محمد علي اليوسفي

دَانْتِيلاَّ

رواية

الحياة مهلة بين قوسين

ظلّت تتراقص في لياليَّ أطيافُ سبع صبايا، بينما أبحث، في النهار، عن امرأة ثامنة هي الأولى، تماماً كما بقيت أنتَ، صدى صوتي الأول.

ناديتُكَ كثيراً حتى جعلتك تلتفت. كنتُ متيقّناً أن ندائي سوف يجعلك تجُيب. وَجَدتُكَ مازلت تهيم بالصّوت المرئي؛ حسبتُ من استقبالك الأوّل لي، أنك صرت كائناً متحفّظا إزاء كلّ سماع. ألم تقل لي: "العالم بات قرية صغيرة، وأنا تنقّلتُ عبره، كما تنقّلت أنتَ من القناطر إلى العين الباردة، ومن النَهر إلى بركة السنهوري"؟

لكنك لا تستطيع السّماع فقط؛ تريد دائما أن تسمع فترى ما تريد. لذلك تبدو ملولاً "لاتحسبني تجاهلْتُك، قلتَ لي، سمعتُ فيك صوتا داخلياً أيقظ أناملي من هجعة اللمس، ما من كلمة عندي تأتي من دون نداء."

أشعرْتني بالثقة؛ حكيتُ لك كلّ شيء. عدتُ إلى تلك الأرض ومستنقعاتها. عدت إلى العينوس وشمس القراميد. حدّثتك عن الصبايا السبع وقمر البركة. وقبل ذلك حكيت لك تفاصيل هيامي بامرأة ، بات يفصلني عنها جبلٌ من بلّور، تغسله الأمطار وتنعكس فيه الشموس.

ظلّت مشكلة واحدة: تريدُ ذكْر اسمي الصّريح. حذّرتك بالتنكّر للحكاية كلّها، وإنكار معرفتي بك. هل أنا جابر الطروَدي حقّاً؟ لكنّك اعترضتَ: "اسمعْ يا عزيزي جابر! حتَّى إن ذكرتُ اسمك كاملاً، هل هناك مَنْ سيتعرّف عليك، مصادفة، غيرَ مريم، وعمر، والمستر هامّت؟" وهكذا تناسيت أنهم يتكاثرون اليوم، ونسيتَ أو تناسيت أنّ في كلّ قزم خمسين قزماً، فمن يضمن لي أنّ سهلون لن يعود؟

ليتني اكتفيت برواية السّيَر الشعبيّة التي ورثتها عن والدي، ولم أستجب لندائك، بعد أن أغريتَني بأن أبتكر سيرةً لي. لقد طَمأَنْتَني في النّهاية عندما قلت لي: "سوف أضيئك حتّى تنتفي؛ وبذلك يكتمل التمويه على وجودك الأصليّ."

نقطة واحدة مازالت تحيّرني: لماذا تتحدّث عنك أحياناً، وكأنك عنّي تتحدّث؟ أرجوك. لا تعدْ إلى الادّعاء بأنّك أنقذتني، وسوف أتوقف عن الادّعاء بأنني تبنّيتُك ذات صيف، وعلّمتك!

كان ثمن ندائك لي غالياً... غالياً.

وها أنتذا تستمع إليّ أروي لك حكايتي وكأنّك برئ من كلّ ما حدث. مُكْرَهاً ذهبتُ إلى الموت مراراً ولم أمتْ. الموت الوحيد الذي دفعتَني إليه هو الحياة. وها أنذا أموت لأحيا. أليست الحياة مهلة بين قوسين؟

وجوه هاربة

خرجتُ من النَّفَق شَخْصَيْنْ

ظَهْري يقصد العاصمة ووجهي ينظر إلى الخلف، إلى ما فعلته بحياتي، ولا سيّما في الأعوام الأخيرة: درستُ ففشلت، عملت في الحقول والمزارع، كتبت حروزاً وجلبت غائبين- لم يأتوا، وآخرين أتوا، حللتُ أكثر من معقود لأنّه اعتمد عليَّ فاعتمدتُ عليه. لكنني لم أعد إلى رواية حكاية واحدة. سكنت الحكايات حياتي فصرْتُ أنا الحكاية.

كان والدي، قبل وفاته، قد اكتسب موقعه في القرية، وسلطته خارجها، من الكتب الصّفراء والسِّيَر الشعبيّة، والمربّعات، وآداب المعبر، وتمييز الرؤيا، والأخلاط الأربعة، وأسرار الحروف. أما أنا فقد لبّيتُ نداءً خفيّاً، بدأ بالخروج من كتب أبي، ثم دفع بي إلى مغامرات محمومة لصنع قدري، فتعثّرتُ في عيش حياتي.

وراء ظهري عنوان لشخص أعرفه؛ هو عمر القاسمي، وآخر لا أعرف عنه الكثير؛ هو المستر هامّت. أما أنتَ فلم أكن لأصدّق وقتها أنني سوف أراك ذات يوم.

أتذكّر ما قاله لي عمر في زيارته الأخيرة إلى كاف الحجر:"الفرص كثيرة هناك، في العاصمة، بالنسبة إلى شخص مثلك. الحياة معقّدة، نعم، لكنهم يحتاجون إلى معارفك السّحرية التي باتت مطلوبة حتّى في الأحياء الراقية" أَتَذَكَّرُ يومها أنني قلت له: " لن أفعل ذلك لأنني أدركُ حُدُودَ ما أعرف"؛ فردّ ساخراً: "غيرك لا يعرف تلك الحدود، بل يوسّعها، ويُوجدُها إنْ لم توجد!" وأغراني باختصاص آخر رأى أنني أجيده بالوراثة، وأسهب في الموضوع: " تستطيع أن تروي ما حفظت عن والدك من سِيَر الأقدمين. بعض الأماكن صارت تحنّ إلى الفداوي وإلى أيام زمان، وخاصة في شهر رمضان، يا جابر يا خوي! يصير التونسي يأكل من الذاكرة ويتفرّج على الذاكرة،على الماضي...التلفزة تتحدّث عن الماضي، والإذاعة تعود إلى التسجيلات القديمة، ويخرج الشيوخ والعجائز ليقولوا "آه!" ويفرح المذيع لأنّ بعد الآه، حكاية يتطلّبها رمضان ويلهث وراءها البرنامج. وأكثر من ذلك، عندك المسرح والسينما، يا جابر ياخوي! رجعوا للجبّة والشاشيّة والحضرة والنوبة والتخميرة. أنا متأكد، إذا ذهبت إلى تونس سوف يطلبونك إلى المهرجانات والمسرح والسينما والتلفزة، وتصير مشهوراً. هذا هو المطلوب هذه الأيام؛ والمطلوب عندك موجود."

وجدت نفسي جالساً في منتصف عربة القطار بالضبط حيث تلتقي المقاعد المتّجهة إلى الأمام بالمقاعد المتجهة إلى الخلف. لا أدري ما الحكمة في تقسيم المقاعد بهذه الطريقة حتى ليَبدُو نصفُ الركاب ذاهبين ونصفهم عائدين. آه! لاشك أنّ ذلك من أجل العودة. فلو جُعلت المقاعد في اتجاه واحد لصار الأمام وراءً لدى عودة القطار في الاتجاه المعاكس... ألا يمكن تغيير اتجاه العربة كلها، أم أنّ القطار كالحمار لا يسير إلى الوراء؟

أمامي راكبان ينظران إليّ، وآخر بجانبي يبادلهم الحديث. ينتظرون منّي أن أشاركهم الحديث وأحكي قصّتي كما فعلوا. هيّأت نفسي لأصير شخصاً آخر. قلت "أنا طالب ذاهب إلى العاصمة لأكمل دراستي". بدا عليهم أنّهم لم يصدّقوا كلامي ولا حتّى هيئتي ولباسي. تجرّأ الجالس بجانبي وسألني عن عمري وعن اختصاصي العلمي، وعن السكن الجامعي، وأشياء أخرى كثيرة لم تكن في بالي.

شعرت بوقوعي في فخ، ثم قلت في نفسي: "لِمَ لا أستفيد من أناس يعرفون العاصمة، وقد يساعدونني حتّى في معرفة أرقام الحافلات وطريقة الوصول إلى عنوان عمر..."

- الحقيقة أنني لم أنجح، انقطعت أعواماً عن الدراسة، وأريد أن أكملها على حسابي، بطريقة أو بأخرى.

لا أدري إن كنتُ قد وفّقت الآن في العبور إلى اكتساب تصديقهم لي. ابتسم الرجل الجالس قبالتي:

- عندك أقارب في العاصمة ؟

- نعم .

- وهل تنوي السكن معهم ؟

- نعم .

- حللتَ نصف المشكلة لأنّ السكن يكلّفك كثيراً، وأنت مازلت لا تعمل..

لابدّ أن أصل إلى أريانة. عمر يعمل هناك، مقابل السوق المركزية. قال إنه يذبح الدجاج الأبيض وينتف ريشه ويسلخه ويقطعه ثمّ يقدّمه للزبائن في أكياس سوداء. "مَدْجَنَة الأمل" قال لي : "لاتنسَ الاسم؛ وفي كلّ الأحوال، ليست هناك مدجنة أخرى بقربي."

دخل القطار نَفَقاً مظلماً فأضيئت مصابيح خافتة فوق رؤوسنا. سكت الجميع، وكأنهم يواجهون بصمتهم هذا التغيّر الطارئ على مسار الرحلة. وعندما بدأ القطار يخترق ضوء النهار، خارج النّفق، تغيّر مجرى الحديث تماما وصار يصبّ في ماضي النفق. تذكر المسافرون أخباراً وحكايات عن قطارات تدخل أنفاقاً مظلمة وتتعطّل أضواؤها فيحدث كلّ شيء غير متوقّع:

- مرّة، دوّى صوت صفعة قوية، وصاح راكب من الألم، ولم يعرف أحد مَنْ لَطَمَه، قال الأول.

- مرّة، صاحت امرأة وعلا صوتها بالشتائم بسبب انقضاض طائر في الظلام امتصّ شفتيها كالخفّاش، قال الثاني.

- مرّة، أضاف الثالث، تنكّرت مجموعة جانحين في أزياء مراقبين لشركة سكة الحديد، وطلبوا من الرّكاب القادمين من الجزائر أن يحضروا جوازات سفرهم، وكلّ العملات الأجنبية التي بحوزتهم من أجل إتمام الإجراءات الإدارية لدخولهم، مقابل رقم يعطونه لكلّ مسافر بعد أن يقدّم أوراقه وأمواله، كي يستعيدها في محطة الوصول. وعندما وصل القطار إلى النفق غادروه وتركوا المسافرين يتابعون الرحلة مع أرقامهم الوهمية ثم يصطفّون أمام إدارة المحطة المركزية!

أما أنا فلم أقل شيئاً.

خرجت من النفق فوجدت نفسي شخصينْ: أحدهما يبحث عن نفسه والثاني يراه.

أحياناً أريّش دجاجة من زبوناتي!

بعد بحثٍ مُضْنٍ وأخطاء كثيرة وصلت إلى عنوان عمر القاسمي. بلغت السوق المركزية فتعرفت على "مدجَنة الأمل" بسهولة. رآني عمر فألقى بالدجاجة ومسح يديه ليسرع نحوي

مُرَحِّباً. كان جسمه يعبق برائحة دجاج نظيف . لاحظت له ذلك بتلقائية فردّ مبتسماً:

- اسمعْ يا جابر، هذا الدجاج الأبيض يأتي بغيره.

- لم أفهم .

- أحيانا أريّش دجاجة من زبوناتي!

تورّطت معه في اللعبة :

- وماذا يكون المقابل ؟

- بضع دجاجات مسلوخة!

سألته عن بيته فأجاب مشيراً إلى خلفيّة دكانه:

- قريب، لكنه يتطلب القليل من السير؛ لن تفاجئك المسافة...

- لماذا ؟

- لأنك بدويّ حقيقي!

انتابني شعور بأنني جئت في وقت غير مناسب. اعتذرت له فقال :

- سأفرغ من العمل بعد قرابة الساعة، ونذهب معاً لتناول الغداء.

خرج من دكانه بضع خطوات ونادى باتجاه مقهى مجاور.

- هات اثنين شاي يا رضا!

أغلق الدكان وتوجّهنا إلى بيته سيراً على الأقدام. كان الشارع الرئيسي المؤدّي إلى مسكنه مزدحماً بالسيارات والمشاة؛ قال :

- يوم الجمعة، موعد السوق الأسبوعية، هناك يوجد بيتي. إنها فرصة لأشتري ما أحتاج إليه من مكان قريب، وبسعر أرخص قليلا.

مررنا بالسوق المتلئة بالبشر، والسيارات، والثياب، والأبواب الخشبية الكبيرة، والخضار. كانت السّاحة المخصّصة لبيع الثياب المستعملة أشبه بمقبرة تنبشها النساء منحنيات، ومؤخّراتهنّ تتزاحم وتهتزّ حول أكداس الثياب التي غادرت أصحابها الأولين. ساعدت عمر في نقل مشترياته حتّى شقّته في الطابق الرابع؛ قال لي وهو يلهث من صعود الدرج:

- أبناء الملعونة! أتعرف لماذا يقاولون حتّى الطابق الرابع، ويتوقفون عن بناء طابق خامس ؟

- لا...

- القانون يجبرهم على تجهيز العمارة بمصعد إذا كانت ذات خمسة طوابق. لذلك يبنون أربعة طوابق ونصف طابق أحياناً، ويتوقفون!

وفي المطبخ نصحني وهو يقْلي السمك :

- اسمعْ يا صاحبي، الحياة في العاصمة صعبة. وهي تتطلب مظهراً خارجيّاً لائقاً، أو خادعاً، إن شئت. كما أنّها تتطلب لساناً حلواً أو مُرّاً، حسب الحاجة. أنت أسمر، جرّب بدلات فاتحة اللّون وقمصانا ملوّنة. لكن، ثمّة ما هو أهمّ؛ أن تتحلّى بذكاء خاص بهذه الأيام!

- أيّ نوع من الذكاء يا ترى؟

- تدبير الرّاس، تدوير " الزّيرو" ! إذا حافظت على أخلاق الرّيف هنا، حطّمتك المدينة. إماَّ أن تبدأ بالقفز العالي أو تجد نفسك تنظف الشوارع وتجمع الفضلات، هذا إذا شغَّلَتْك البلديّة!

- أليس هناك مجال لإتمام الدراسة يا ترى؟

- أَمَا زلت تتحدّث عن الدراسة وأنت في هذا العمر؟ انظرْ إلى وضعي مثلاً، هل نفعتني الدراسة؟ سنةَ واحدة وغادرت الجامعة، هل وجدْتَني أمارس عملاً له علاقة بما كنت أدرس؟ علوم إقتصادية، طز!

- لكن الدراسة هي التي فتحت أمامك آفاقاً أخرى، وجعلتك تنظر إلى الواقع كما تنظر إليه الآن...

- أقول لك "تَدْوير الزِّيرُو " تقول لي الدراسة ؟ الدّراسة لن توصلك الآن؛ تأخّرت كثيراً. كلّ الناس تعلّموا وسبقوك إلى ما تريد أو تتمنّى، ينبغي أن تتفرّد بشيء؛ تجارة، سمسرة، صناعة ياغورت، أو تجمع بين كلّ ذلك.

- لستُ ماهراً في هذه الأشياء.

عندئذ جرّني عمر من يدي إلى الشرفة المطلّة على السوق :

- انظرْ! أبسط ما يمكن أن تفعله، مع أنني أتمنّى لك ما هو أحسن، أن تنتقي أفضل قطع الروبافيكيا، وتنظّفها وتكويها لتبيعها بأضعاف سعرها. يكفي أن تتعاقد مع امرأة تكوي وتطوي. هذا ما أفعله، إلى جانب أشياء أخرى. هل تظنني أعيش من الدجاج وحده؟ أكان في إمكاني أن أسكن في مثل هذه الشقة على الرغم من تواضعها؟

- حدثتني في السابق عن أهمية الحكايات والسير الشعبية...

- تظنّها بهذه السهولة؟ سبقوك، ولن تربح كثيراً.

- لا أفكر في الرّبح وحده...

- تفكّر في "الميزيريا"؟ بلا حكايات " بلاتزمير"، الذَّهب يا صاحبي، الذهب! فكّر في الذهب تنسَ الفقر والجرب!

تذكّرتُ الفداوي رابح، صديق والدي، فسألته عنه. أدار رأسه مرتين ثم أجاب :

- مازال اسمه الفداوي، الجميع ينادونه بهذا اللقب، لكنْ ألا تعرف ماذا يعمل بعد أن حلّ بالعاصمة ؟

-كلاّ.

-يعمل طيّاباً في الحمّام. يغسل أوساخ الرجال، بعد أن غسل الآذان بحكاياته مثل والدك سعيد.

رنّ جرس الباب ونحن حول مائدة الأكل. ذهب عمر ليفتح، ولم يكد يفعل حتّى امتلأت الشقة بصوت أنثوي. قدّم لي صاحبته سارة فأربكني حضورها. كانت تتكلم بتلقائية وتضحك بصوت عال. ظلّت تنظر إلى عمر وتضحك حتّى غمزني قائلا :

- تستطيع الذهاب إلى الغرفة الصغيرة لترتاح قليلا.

ذهبت وتركتهما يدخلان غرفة النوم. ومنها تناهت إلى مسمعي ضحكات، وأصوات أخرى...

فجأة انتبهتُ إلى اتّساع فرجة الباب عند محوره. اقتربت من الباب وتمدّدت على الأرض جاعلاً جسمي يختفي على امتداد الجدار، بينما عيناي تخترقان الشق...

تمنّيت لو كنت قادراً على التجوّل وحدي، إذن لخرجت وذهبت حتّى العاصمة لمشاهدة أشياء كثيرة لا أعرفها. لكنني اكتفيت بالنوم. وهو الحلّ الذي بتّ أهرب إليه في الأيام التالية حتى بدا على عمر أنه مهموم بشأني:

- النوم لا يحلّ مشكلتك، ولا حتّى التسكّع في المدينة، اِسمعْ! سأبدأ معك بمفاجأة...

- أية مفاجأة ؟

- يوم الأحد القادم تعرف !

ورفض أن يوضّح لي ذلك إلاّ صباح يوم الأحد عندما قال يهيّئني للمفاجأة :

- اسمعْ ! لا تبهذلنا اليوم ! كن رجلاً. سارة ستأتي بصديقتها ريم لتتعرف عليك. كن في المستوى !

خفق قلبي وشككت في أمري، فأضاف عمر :

- اليوم سنقوم برحلة جماعية.

- إلى أين ؟

- إلى بنزرت...أقلّ من ستّين كيلومتراً، أنت لا تعرف "القُرَوتْ" !

- ماذا ؟

- القروتْ، أي الكهوف البحرية. هناك تحلو السباحة، لكننافي بداية الشتاء، وأنت عوّام وديان !

ما مصيرها الآن بثدي واحد ؟

هل أُضيفُ عبوس ريم إلى عبوسي؟ ومن أدراني حتى الآن، قد تكون متحفّظة أو خجولة فحسب؟ فرحتُ لحضورها وحسدت عمر على جمال صديقته ومرحها. فراغ الأنثى بين ضلوعي يقول لي إنني أستأهل امرأة أفضل. لا أتوصّل إلى بدء حوار معها. من أين أدخلها؟ ها أنذا أحاور نفسي، فتزداد وحدتي وابتعادي. أبحث عن امرأة أخرى بينما ريم تنتظر منّي مبادرة. هل قُيّض لي الفشل الدّائم؟ إنها تنتظرني؛ عيناها، شفتاها، صدرها، خصرها، فخذاها... تفاصيلها تنتظرني وأنا لا أطرِق اللحظة وأدخل. أترى أستأذن تردّدي أم خجلي؟ وحشتي أم مراياي؟ ما أدفأ مريم التي تحصّن ارتباكي حتّى وهي غائبة.

أشعر بتوهّج ريم في مفاصلي. أتأمّلها وأرى أعضاءها فيَّ. حركاتها تدخلني. كيف تصير لي؟ تبدو منساقة وبعيدة. ولم أختَل بها حتّى الآن. لم أبادر خوفاً من صمت مفاجئ يُطبق عليَّ ويتركني وحيداً معها. كأنها لا تسعى، بدورها، إلى الإختلاء بي. كلاّ، إنها تترك لي المبادرة. هكذا هنّ النساء. لكنني لا اشعر بدافع قويّ يخلّصني من النظر في مرآتي.

قصدنا الشاطئ الصّخريَّ حيث الكهوف البحريّة. ظلّت ريم تتأمل البحر من فوق الصخور.

نزلتُ وحدي إلى اللّسان الرملي الضيّق. لم تتبعني؛ لعلّها كانت تنتظر مساعدتي للقفز بين الصخور. هي الآن تشرف عليّ من فوق. المهمّ أنها تطلّ عليّ من هناك! هل تناديني؟ ينبغي أن ألتحق بها ولا أفكّر كثيرا. هل أستطيع دعوتها إلى أحد الكهوف؟ لكن هكذا؟ من دون مقدّمات ؟

نادتْها سارة من الجهة الأخرى. شعرتُ أنني مقصّر. عدت إلى تسلّق الصخور. ساعدتها على القفز وتفادي العقبات. اصطدت لها قنديلَ بحرٍ صغيراً كان حبيساً في بركة بين الصخور. جلسنا أربعتنا على صخرة. استطعتُ الاقتراب منها وملامسة فخذها. بدأتُ أخشى تهديداً ما. لكن من الأفضل أن لا أكشف عن خوفي. أنا رجل ! وهي تريد رجلاً قويّاً لا يخاف الآخرين في الخارج، ولا يخشى الأنثى في داخله.

آه! ستنقذنا حبّات المطر الغليظة الدافئة (تعالوا بنا نذهب، سيغمرنا المطر في هذا العراء الرّمليّ...)

ثمّة ما يشدّني إلى ريم، فلماذا ألاحقها صامتاً، متكلّما في داخلي؟ لماذا أشعر بدفء يسري في مفاصلي ولا أبادر بشيء تجاهها؟ لماذا أراقب ما يحقّقه عمر في مناوراته مع سارة ؟

في أحد الكهوف الصغيرة اختلى عمرٍ بصاحبته. ظلّت ريم معي، وعلى شفَتَيْها نصف ابتسامة مكتومة. ربمّا يعود حرجي إلى قِصَرِ عهدي بمعرفتها. ربمّا كانت كذلك بدورها. نحن وحيدان الآن. آه! ها هي ذي تبادر بموضوع يملأ الفراغ بيننا .

أسئلتها الأولى واضحة. العالم مفسّر. أهي ساذجة إلى هذا الحدّ، وفارغة؟ كلّ هذا الصمت لتهجم مباشرة وتستَدرِجَني كي أتكلّم عن نفسي؛ ماذا أعمل ؟ كم أقبض ؟ كيف أعيش ؟ هل ليّ مشاريع ؟... والحال أنّ الزّواج مسؤولية !

اقتربتُ بحذر من مغارة عمر وسارة لأرى ما يحدث في نصف عتمة رطبة. كان المكان صخرياً وعراً، لا يؤمّه المتطفّلون إلا نادراً. أما في الجهة العليا من الكهوف فقد كانت بعض السيارات تتوقف قليلا ويتأمّل ركّابها البحر ثم يغادرون.

في طريق العودة بواسطة الحافلة قال عمر :

- سوف أشتريها، بنت الكلب، طال الزمن أو قصر!

- تشتري ماذا؟ سألتْه سارة .

- السيّارة! السيّارة! لا يمكن أن تكتمل متعة الحياة من دونها!

وفي الليل سألني عمر :

- أعجبتك ريم ؟

- تردّدت ثم أجبت :

- ربمّا...

- لا تتشرّطْ كثيراً، سَايرْها حتّى تجد غيرها...

قلت أمازحه:

- رأيتك اليوم يا عمر!

فَاجَأهُ اعترافي :

- ماذا رأيت ؟

- رأيتك تهتزّ في نصف عتمة محمومة!

رماني بمنديل كان على المائدة :

- أمّا هي فقد أدْمَتْها الصخور الرملية!

رفع سبّابته في اتجاهي وأضاف:

- سوف تخبرني سارة عن انطباع ريم إزاءك. وفي المرة القادمة، أتحدّاك أن تدخل المغارة، سوف ترى ما أفعل معك!

انتقلنا إلى غرفة الجلوس فتناول عمر جهاز التحكّم في التلفاز وانطلق معلّقا:

- تفتح التلفزة فتجد الأفلام القديمة أكثر جرأة. إذا رأيت الأسود والأبيض عند العرب، فمعنى ذلك أنّ هناك رقصاً ومايوهات وأفلاماً استعراضيّة. إذا رأيت الألوان فمعنى ذلك أن هناك كوارث وهزائم و "يا خَبَرْ إسْوَدْ!". تذهب إلى شاطئ روّاد فتجد النساء يسبحن بفساتين وسراويل. تقرأ جريدة أو كتاباً فتجد الرقيب قد مرّ بين السطور أو حطّ بثقله على كتفي الكاتب... أين ماضينا يا ناس ؟ في الفيديو أم في البارابول، في الديش أم في الكابل...ماضينا في غير لغتنا...تعرف كم كلّفني البارابول ؟ مائة دينار من كلّ شقة... وتمتلك نصف العالم إلى الأبد!

قاطعتُه قائلا :

-يبدو أنك تهذي بسبب النعاس والتّعب، وليس بسبب العرب!

- التقط الكلمة الأخيرة من فمي وتابع :

- العرب؟ كانوا يفتحون صَدَفَة بحريّة كبيرة كي تخرج منها راقصة ذات فخذين من نور، لأن العالم أسود وأبيض... صاروا يفتحون ليلهم على أسرار العالم مستوردة في علب صغيرة وشاشات هائجة وعطور مهيّجة. كنت أشاهد صور الخمسينات فأقول كم كنّا نبدو ساذجين! ثم أفكّر في الأجيال القادمة عندما تأتي بعدنا وترى صورنا فتقول: ما أشدّ ما كانوا ساذجين!

- هل وصَلتَ إلى الأجيال القادمة أيضاً؟

- الحقيقة لم أعد أفكر كذلك، لا حاجة إلى انتظار الأجيال القادمة. نحن جيل قادم من خراب، نستطيع أن نرى صورتنا منذ الآن ونقارنها بالخمسينات والستينات ونقول ما أغبانا اليوم قبل مجيء الغد! كنت أسخر بمرارة من الخُدَع التي صدّقها أجدادنا أمام زحف المطامع الغربية، وإذا نحن خيرُ خَلَفٍ لخير سلف؛ نحرق لحمنا في الخليج ونَتَناهَشُه نيئاً في الجزائر.

ذهب ليغتسل، ومن الحمّام سألني :

- هل تستطيع أن تتذكّر قريتك يا جابر؟ إنها دودة لا يراها أحد. لكنها تُصنّف طبيعياً ضمن دود كثير يسعى في الأرض. أنا ذاهب للنّوم، ينبغي أن ألتحق بالدّكّان باكراً...أشعر بالتّعب.

- معك حقّ! قلتُ، وتوجّهت إلى غرفتي، أنا أيضاً.

رأيتني وحدي.

عبثتُ قليلا بأزرار جهاز التحكّم عن بعد. وجدت زرّاً جانبيّاً خفيّا. ضغطت عليه فدارت

الشاشة واستدارت، وصارت أشبه بكرة أرضيّة داخل إطار. ضغطتُ فتجمّدت الصّورة ثم تحرّكت. قذفتْ بطفل رضيع يبكي... قلت له "عُدْ من حيث أتيتَ، لستُ أمّك!" والرّضيع يبكي، لاح نحيفاً، أسمر. لعلّه يريد الأكل. ضغطتُ فدارت الشاشة واستدارت كرةً أرضيّة. تجمّدت الصّورة ثم قذفت بضابط ذي نياشين كثيرة. كان يجلس على كومة من أسلحة مدمّرة. غمزني وقال: " هه! عرفتَ أنني عربي؟" قلت له " عُدْ من حيث أتيت كما فعل الرّضيع" قال " ألا تدري ماذا يوجد خلفي ؟" ثم عاد إلى قلب الكرة، فلاحت فيها صورة جديدة تجمّدت ثم "طنق!" قذفت بطفل يبلغ التّاسعة تقريباً، أشقر الشّعر، أبيض البشرة، مكتنز الجسم، والشّرر يتطاير من عينيه؛ كان يغلي ويحسبني عدوَّه، أردت إرجاعه فصار يهدّدني بحركاتٍ ملاكم. لكنني سيطرت عليه وأعَدتُه.

مرة أخرى ضغطت على الزرّ فدارت الشّاشة واستدارت...

قفزتْ، هذه المرّة، صبيّة في نهاية المراهقة: قاسية الملامح، تهدّدني بأمرٍ ما، هي أيضاً. داكنة السُّمرَة، نحيلة الجسم، بارزة الحوض مع صدر غير واضح؟ استلقت على ظهرها وأخرجت لي لسانها. انزعجتُ قليلا وسألتها " مَنْ أنت؟" أبدتْ طيشاً في ردودها وتهوّراً في حركاتها. تريد شيئاً لا يعنيني. هذا ما فهمتُ من حركاتَها وردودها من دون أن تصرّح به كلاماً. حاولت إرجاعها فبدأت تتلوّى. أرادتْ أن تُفهمني بأنها قادرة على فعل أشياء كثيرة؛ لكنها أشياء غامضة. تابعتُ الجهد من أجل رفعها عن الأرض وإعادتها إلى الشاشة. عندئذ خلعتْ قميصها وأَرَتْني صدرها، ثم عادت إلى الاستلقاء على ظهرها فوق البلاط مباشرة. ثدياها ضامران متطاوِلان مثل ضرع عنزة جفّ حليبها. قالت: "هذا ما فعل بي اللاعب الإفريقي..." وذكرتْ اسماً لم أعد أذكره. لكنه أقرب إلى اسم إنكليزي. أمرتْني أن أضع يدي على ثديها الجلدي. مالت، وهي مستلقية على ظهرها، إلى اليمين قليلا، حتّى حطّ ثديها المترهّل على البلاط. قالت لي "امسكه وسوف يعود إلى حالته الأولى" اقتربتُ منها. وضعت يدي على ثديها فبدأ الجلد يمتلئ فعَلا تحت كفّي. اكتنز تماماً ونفرتْ حَلَمَتُه. أحسست بتغيّرات حثيثة تسري في جسدي. كان جسدي ينساق، تقوده الصورة. وكانت أذني تنساق، يسكنها الصّوت. بينما يدي... يدي...(لقد صنعتُ نهداً!) تركتُ الشاشة فارغة مثل عيون الموتى. وتركت الصبيّة ممدّدة على الأرض، عارية، تنتظر اكتناز ثديها الآخر. لم أُرْجِعْهَا...لو أنني أرجعتها؟ ما المفاجأة التي كانت ستليها؟ لم أسألها عن اسمها...ما مصيرها الآن بثدي واحد؟ بأية لغة فهمتُ كلامها الغامض؟

لكنّ جهاز التلفزة ظلّ مفرغ العين مثل ميت. لم تعد الشاشة تدور وتستدير، وكفّت عن الإتيان بالصُّور... صور الحلم.

تركتْها روحي ومازال جسدي يطلبها

تأتي ريم بعينين مسحوبتينْ إلى الدّنيا، بورْكين عريضتَينْ وكلام كثير. تأتي بصدر مندلق وعينين إضافيّتين لمَنْ لا يرى الأشياء مثلها. تتظاهر بالتّصالح مع جسدها. تتصنّع دراية بالفراش. تتوقّف عند حدود تسيّجها الفخذان. ويبدأ حرّاس خفر السّواحل بالتدخّل. تأتي أصابعها لدَرْء الموْجات المتعاقبة وتحويلها نحو وجهة أخرى. خَرجْنَا. خائباً كنتُ. وكانت تكرّر لي أنها تشعَر بكلّ العيون تراقبها. " لا شيء" قلتُ "خوفك فيك". قالت " نعود إذاً". قلت " نعود".عدنا إلى الشقّة ، إلى السّرير. لم تخلع سروالها (المدينة تتحرّك بسراويل ضيّقة، بأرداف مهصورة) عدنا.

- غريب أنت!

- لا تزيدي في غربتي .
- هل تحبّ أخرى ؟
- أخرى؟ (قُلْ: لا، دائماً، نصحني عمر)
- امرأة أخرى ..
- ربما أنتِ
- الأولى ؟
- والأخيرة.(ها أنذا أُتْقِن الكلام يا عمر!)

تبقى ريم خائفة. تحرّك يديها في كلّ اتجاه. تؤدّي واجبَ أَنْ تكون مستلقية، ضمن دور موقّت ومدروس. تُفلت إلى هواء، تظنّه أنقى، تقودها عيناها؛ لذلك لم تَرَ...ورأيتُ وحدي. تغادرني فينهشني جوع من نوع آخر، لا يمكنها إشباعه لأنّني مفرغ منّي قليلا. الآن أستطيع نسيانها، بل أتذكّرها أكثر، بعينين ضيّقتين لا تريان، بل تنساقان، في لهفة لا تقودها إلاّ إلى السطح، ووعود مجزّأة في روحها فلا تملأ كفّي. أحتاج إليها؛ لا أحبّها. كيف أقول لها ذلك فلا يتعمّق يأسي ؟

مرّت أسابيع قليلة فتدفّقت أسئلتها: العمل، الجهاز، الخطبة، الزواج...وتستطيع أيضا أن تشاركني في أيّ مشروع، كما تفعل سارة مع عمر إذْ تكوي له ما كان مدعوكاً وترتّق له ما كان مفتوقاً.

تركَتْها روحي ومازال جسدي يطلبها. هي لا تعرف أني تركتها وانتهى الأمر. تحذّرني بأنها قد لا تواصل مثل هذه العلاقة غير الواضحة، وقد تكون هي المبادرة في التخلّي عنّي. لكنني تخليت عنها وهي لا تدري.

بهدوء، صرت قادرا على مواجهة مرحلة ما بعد الفراق وأنا أمام المرآة :

- " بصراحة أنا قرّرت...لم يعد هناك حلّ...أرجو أن تتفهّم الوضع..."
فأردّ عليها بيأس هادئ وألَمٍ خَبِيء:
- أهكذا يا ريم؟ أهذا معقول؟ أرجوك!
(كلاّ لن أقول لها " أرجوك")
بهدوء...بهدوءٍ ويأسٍ يسكنان القاع ولا يَتَمَرأَيَان على السّطح الرّاكد. أين مريم الآن ؟

أخذْتُها وتَرَكْتُه يبكي متوعّداً

أتسلّل إلى أماكن جديدة فأحسب أنني بدأت أعرفها. كأنّ لي جسماً مضيئاً يشقّ عتمات تراكمتْ قبله، فتُلَمْلِمُ نفسها وتتراكم خلفه من جديد، تاركةً أثراً من ذكرى عبور سابق. لكلّ منطقة، أدخلها للمَرة الأولى، رائحة أولي، وألوان، وضجيج. لكلّ شارع أكتشفه زوايا لا مرئية تتكتّم منذ الآن ولا تبوح بتفاصيل "رأيتُ وسمعتُ" تفاصيل "جئتُ وعشتُ" ، تلك التّفاصيل التي سوف تفعل فعلها لاحقاً ولا تبقى منها سوى ذكرى ماضٍ هارب تتحرّك فيه رائحة مربكة، أطلبها، فلا يجيء بها زمن خارجيّ. هكذا تندثر الأمكنة أمامَ عيوننا وهي لا تزال محمّلة ببناياتها وصخبها. كأنمّا لكلّ لقاء طبقات حضورٍ فينا، ونحن لا نصادف سوى الطبقة التي نقصدها في مكانها وزمانها.

أقشّع طبقات الغياب فوق أمكنة أرتادها الآن. أشعر أنها تحافظ على بقاء بعض قشعريرة متيقّظة في ملاحقة رغباتها، وتلفّ بعضي بخشية لا أجد لها تفسيراً. ترى كَيف كَانت هذه الشوارع قبلي؟ كيف ستصير بعدي؟ ما أكثر الأمكنةَ التي تستطيع أن تكون من دوننا! ولكنْ من نحن؟ ومن أنا؟ موتى أم أحياء أمام الأماكن الخالدة؟

صرت قادراً على التجوّل في العاصمة مع حاجة أقلّ إلى سؤال العابرين، كما كنت أفعل في البداية. المترو، الحافلات، الشوارع، الأسواق؛ متعة أن أكون في الزّحام وحدي. مبنى الإذاعة والتلفزة، المسرح البلدي، دور السينما، دار الصّحفي، دار الكاتب، بيت الشّعر...وحشة أن أكون في الزّحام وحدي. ولم أجرؤ. كان لابدّ أن يأتي شخص آخر ويقول لي "أجلْ!" ثم يقول لهم "هذا شاعر آخر، يستطيع أن يكون فداوياً، أو يشارك في الحضرة والنّوبة !"

كنت أتوغّل في زقاق ضيق. كان ذلك الطفل يلعب مع أترابه. ألعاب الأطفال هنا، تشمل الكرة والعلب والأحجار، وكلّ شيء لا يخطر على بال. قلت له: "انتبه !" وفي اللحظة ذاتها كان قد ألقى بحجره الكبير. احترتُ كيف استطاع أن يوصله من تلك المسافة. أصابني الحجر، لكنْ، من دون أذىً واضح. كانت الضّربة خفيفة على عظم لوح الكتف. نجح الطّفل في استفزازي. أتُرى أذهب إليه وإلى أقرانه، أم لا؟ ظلّ غير مكترث. لم يحاول حتى الاعتذار. بل لمحت ابتسامة شبه ساخرة. اقتربتُ. أمسكت به من يده: جاءت ساعته في يدي. أمسكت الساعة بيد، وهجمت أضربه بالأخرى. لم يبدُ الضّربُ مؤثّراً فيه، مع أنه كان يتفاداني محرّكا يديه في كلّ اتجّاه، باحثا عن فرصة للانعتاق. توقّفتُ عن ضربه فلم يلح أيّ انفعال على أصدقائه. ظلّ منهم اثنان فقط. إنهما يضحكان؛ يبدو أنه قصم ظهريهما سابقاً. كانا مستعدَّيْن للشهادة الفورية ضدّه: "هو الذي رمى بالحجر!" وهو الذي أصاب مني عظمة الكتف. الشّاهد الأوّل: طويل الوجه، أحمر البشرة، بارز الأسنان مثل كلب، لكنه ليس مخيفاً، مع أنّ ملامحه ريفيّة إجمالاً. كان يرتدي مريولاً أخضر فاقعاً؛ بدا متواطئاً. الشّاهد الثاني: لم أتبينّ ملامحه، لا أستطيع تذكّرها، مع أنّه كان قريباً من الأوّل لا يبارحه، والذنب ليس ذنبي: كان طفلاً بلا ملامح.

تعبتُ من مشاكسة طفل السّاعة فقرّرت تركَه. كان مُدَرَّعاً لا يُؤثّر فيه ضرب. لم أكد أتركه حتّى صاح: "ساعتي! أريد ساعتي!" قلت له: " لن تأخذها! حرمانك منها هو عقوبتك، ما دام الضّرب لا يؤثّر فيك!" إذْ ذاك اندلعت المعركة الأكبر بيننا.

ظلّ متشبّثا لا يتركني. حثَثْتُ خطاي، ففعل. هدّدته بالعودة إلى الضرب فوقف مستعدّا للمناورة، وربمّا للضّرب، على هيئة ملاكم قصير ومُدَرَّع. ركضت فبدأ يركض. قرّرت الخروج من الزقاق جرْياً، ثم الاختباء في أوّل منعطف، وتغيير مساري. كان همّي الوحيد أن لا يعرف بيتي وعنواني حتى لا يكسر زجاج نوافذي. فأنا حديث الإقامة وأخشى المتأتئين الغاضبين. انتابني شكّ بأنّ أحد الشاهديْن يعرفني، إذّ لم أستغرب ملامح القرويّ الأوّل ذي المريول الأخضر الفاقع. هذا إذا لم يستنجد طفل السّاعة بأهله، لمهاجمتي. قلت: "من الأفضل أن أعود وأعيد إليه ساعته". لكنّ طمعاً متزايداً فيها ظلّ يحرّكني.

أخذتُها وتركْتُه يبكي متوعّداً. ومن يومها وأنا أتساءل: "ماذا أفعل بساعة طفلٍ حتّى الآن؟"

لا تحقدْ عليّ أنتَ !

جاءت ريم مترددّة، صامتة ومرتبكة. كانت حالتها تلك. تخفي كلاماً. رحّبتُ بها على غير عادتي. لقد مرّت أسابيع من دون أن أراها. ادّعتْ أنّها كانت مسافرة. وبعد أن هدأ اضطرابها

قليلاً، بدأت تعترف:

- الحقيقة...جئت...

سكتت برهة لتضيف وهي تعبث بأصابعها:

- لا أعرف كيف أبدأ...

بهدوء، قلت لها:

- سأساعدك!

نظرتْ إليّ دَهِشَة ثم استعادت جرأتها:

- عندي خبر غير سارّ...

- وما هو ؟

- أرجو أن تتفهّم الأمر.

- لا تخافي...

- قرّرتُ وضع حدّ لعلاقتنا!

- ألهذا السبب تَغيَّبْتِ كلّ هذه الفترة ؟

- أنتَ السبّب!

- جئتِ لإنهاء العلاقة وتقولين أنا السبب؟

- وجدتك متردّداً، لم تحسم أمرك، ما رأيك؟

- وتطلبين رأيي أيضاً؟ أما زال يجدي ؟

- لم أشأ إيلامك.

- لقد فعلتِ.

- غريب أمرك! ما هو شعورك؟

- شعوري أنك قتَلْتِني، وتريدين دفني أيضاً!

- لكنّك لم تُفاجأ؟

- لم أغضب؟ لم أصفعْكِ مثلا؟

سكتت متأمّلة ثم عادت إلى الكلام:

- أردتُ أن أخبرك أيضاً...

- خبر آخر غير سارّ؟

- ربمّا...

- تكلَّمي...

- تعرّفت على شخص آخر، موظّف...

- وأنا أتساءل عن كلّ هذا الغياب!

- قلت لك لم تحسم أمرك...

-... فَحَسَمْتِه أنت من جانب واحد.

-لم تترك لي خياراً آخر.

- مبروك إذاً.

- تقولها بهذه البساطة ؟

- لكي أفوّتَ عليك فرصة دفني.

- أمرك عجيب فعلاً.

- لا أعتقد.

- طيّب، لنفترض أنّ كلّ ما أخبرتك به ليس صحيحاً...

- يصعب الآن أن نفترض ذلك .

- قلت لك، لنفترض، حتّى أسألك سؤالاً آخر.

- لكنه يتوقف على الإفتراض!

بدا عليها انفعال يائس هذه المرة:

- اسمعني وافعلْ ما تشاء.

- نعم.

- لنفترض أنني غبت كلّ هذه الفترة...

- ثلاثة أسابيع...نعم.

- فلماذا لم تسأل عنّي؟

- كنت أحسب الأيام!

- تحسب الأيام فقط ؟

- أحسب الأيام وأبحث عن عمل.

- وهل وجدتَ عملاً ؟

- ليس بعد...

- الناس تحسب الفلوس وأنت تحسب الأيّام!

- لأن النّاس يخافون الفقر...

- وأنت ؟

- أنا أخاف الموت في الحياة.

- والفقر؛ أليس موتاً في الحياة ؟

- الفقر ليس موتاً، بل الخوف منه هو الموت.

- بدأت تتفلسف...

- لا أعرف الفلسفة...

نفخت متبرّمة ثم توقفت تفكّر؛ وقبل أن تخرج قالت:

- سارة أيضاً لعبت دوراً...

- أيّ دور ؟

- نسيتَ أنها تركتْ عمر ؟

- حسبْتُه هو الذي تركها!

- اكتشفتْ أنه يستغلّها مرّتين.

- ما هي الثانية ؟

-جهدها وتعبها، تكوي وتخيط بينما هو يحاول السطو على صديقاتها في الخفاء!

-لذلك نصحتْكِ بالتخلي عني أيضاً؟

-نعم.

- لأنك كانت الواسطة ؟

- نبّهتْني إلى مسؤوليتها.

- واقتنعت ؟

- تردُّدكَ هو الذي أقنعني.

- لكننا سنبقى صديقين، أليس كذلك ؟

- إذا...سمح زوجي!

- لن يسمح طبعاً!

استأذنتْ للخروج. تردّدتْ قليلا ثم قبّلتني. استجبت ببرود, أكّدت لها:

- يهمّني أن نبقى صديقين، فلا تحقدي عليَّ.

التفتتْ نصف التفاتة، فلاحَ وجهها شاحباً. قالت بشفتين مرتعشتين:

- لا تحقدْ عليَّ أنتَ!

وانصرفتْ.

أمشي بحذائكَ وأتفادى البِرَك المائيّة ؟

قدّم لي عمر ثلاثة اقتراحات للعمل: حارس عمارات، بائع ثياب مستعملة، أو عامل في مصهر للحديد. شعرت أنّ في إلحاحه تلميحاً إلى طول إقامتي عنده، ومن دون عمل أيضاً. تذكّرتُ المستر هامّت. كدت آكل أصابعي أسفاً على إضاعة عنوانه. وعلى الرغم من احتفاظي ببدلته الكاكيّة، فقد غسلْتُها مراراً من دون التّفطّن إلى الورقة التي تحمل عنوانه في الجيب الخلفي للسّروال. أعتقد أنّ مجرّد الالتقاء به قد يعيد إليّ توازني، وقد أبيعه ما أُتْقِنُ من سِيَرٍ شعبيّة يسعى إلى جمعها، وقد يتوسّط لي في إيجاد عمل مناسب، وقد...

قال لي عمر:

- مشكلتك أنك تشعر كثيراً وتتحرّك قليلا. الكتب لن تجديك نفعاً، تأخذ فلوسك وتبعدك عن الحياة. لكنْ من الأفضل أن تحافظ على علاقتك السّابقة بالكتب الصّفراء، وتصدّقها، لابدّ أن تصدّقها، لأنها تجلب لك المال والنّساء، إذا أحسنت التعامل معها. غير أنّك عاجز، عاجز عن ذلك. ليتك تصدّق كتبك الصّفراء فقط!

تلك ظروف هيَّأتني لأنْ أستسلم إلى دوريْن متناقضين ومتكاملين، حَتَّمَتْهما طبيعةُ العلاقة غير المتكافئة مع عمر؛ أنْ يكون هو المنتقد الدّائم وأنا المتلقّي:

- لن تستطيع العمل، لا في المسرح، ولا في السّينما، ولا في التّلفزة. أنت لا تنتج صُوراً، وثانيا لأن صورتك غير كافية، وثالثا لأنك لا تشكّل قيمة في المجتمع الحديث يُشار إليها بالأصابع وتُلاحَق عبر الإعلام. قيمتُك في تلاشيك وراء هواجسك، وتباكي الآخرين عليك لأنك جزء من ماضيهم يتلاشى، وقطعة من وجدانهم تتفتّت. أنت مثل ماء الورد والسقّاء وبوسعديّة وبوطبيلة. لكنك فقدت هذه "البو" فلا تستطيع أن تكون فداوياً مثل أبيك سعيد ولا تستطيع البحث عن عمل مُجدٍ، ثم إنك لست فنّاناً يتحلّى بموهبة بارزة حتّى تفكّر في المسرح أو في السينما...

حاولتُ تغيير مجرى السيل الهادر:

- اليوم، يا عمر تجوّلتُ في المدينة العتيقة...

فازداد غضبه:

- الفرق بينك وبين المدينة العتيقة هو أنها بدأت تُرمَّم، أما أنت فغير قابل للتّرميم.أعذرني على هذه الصراحة الجارحة. ربمّا كانت فرصتك أن تعيش شهراً واحداً في العام، انتظرْ شهر رمضان كي تستثمر حنين الصّائمين للماضي، تماماً كما تحنّ إلى ما يمضي من حياتك.

استثمر عمر صمتي وخجلي لأنني لا أحاور الآخرين إلا عبر مرآتي. هو الذي قال لي: "إذا بقيت تراعي مشاعر الآخرين كثيراً، وبدقَّة متناهية، لن تتقدّم خطوة واحدة، العالم في سباق حتّى الموت."لكنني بقيت أراعي شعوره وأقدّر ضيافته. وأخفي عنه ما أستطيع قوله ولا أجرؤ عليه: يا عمر، لقد اكتسبتَ مبدأ مغلوطاً في الحياة. عشتَه وصدّقته وتبنَّيْتَه. قلَّةُ النوم عندك تعني التوتّر الخلاّق. المنبّهات، السجائر، العدوانيّة السّاخرة تجاه العالم والأشياء والنّساء، تفضيل مَنْ يخدعونك على من يصارحونك. أنت تبحث دائما عن التّابعين وليس عن الأنداد، أو حتّى عن المنتقدين. لا تريد الحقائق الواضحة فيك لأنها تؤلمك. تأويلك للواقع حرّ إلى درجة لا تصدّق. تبتعد عن الآخرين لتأمن شرّهم، أو تقترب منهم لتؤلمهم. أليس لك أعداء غير ضروريين بالمرة؟ شجاع في التصريح بأفكارك حتى المزيّف منها، محراث في علاقتك بالنساء، قادر على أن تكون متحضّراً انطلاقاً من النوايا المُبيّتة، كأنْ تعلّق معطف امرأة أولى، أو تفسح لها، باسطاً كفّك أمامك، كي تدخل قبلك، مدمِّر وحنون...

ها أنذا قلت لك كلّ ما أفكر فيه وأخفيه. نعم...نعم...إذاً ، لقد اقتربنا من نقطة التّلاقي... لقد بدأنا بالحوار الحقيقي. لكنْ قبل ذلك ينبغي أن أعمل. سأبدأ بأيّ عرض أجده. سأنظّف الشوارع، أو أصهر الحديد. كيف يُصهر الحديد؟ وأين ؟

قبل ذلك ينبغي أن أبحث عن مسكن مستقلّ لأنّ الاحتكاك يولّد الشرر. هذا أمر بدهي. فما بالك إذا كان أحد طرفي العلاقة يعيش عالة على الثاني. ما من أحد، هذه الأيام، يقدّم معروفاً من غير استعباد. تريد أن تشغّلني وتحكي في كلّ مكان وزمان أن أياديك كريمة تجاهي. تريد منّي أن أمشي بحذائك وأتفادى البِرَك المائية؟ تريد منّي أن أسير في الزّحام وأنتبه إلى أزرار

سـترتك؟ ينبغـي أن تتحوّل إلى فاعـل خيـر، يندر وجوده هذه الأيّام، كـي تتمكّـن مـن مسـاعدتي، تصير مجهولاً وترمي بما تجود به يداك. أنا أفضّل معروف الدولة على معروفك. هي، على الأقلّ، تساعد الجميع، وتقول ساعدنا الجميع. لكنها لا تشير بإصبعها نحوي شخصيا عندما أسير بين الجموع، ولا تقول لي: انتبـه إلى أزرار السـترة التـي أعطيتـك إياهـا، لا تقول لي: امـشِ هكذا، بحذائي، ولا تمشِ هكذا، لا تقول: انظروا، هذا السيد الذي يمشي حرّاً مستقلاً، هناك قربَ كشك الجرائد، أنا التي سَاعدْتُه!

هل كان عمر يقرأ أفكاري؟

- عليك أن تراعي ظروفي، أرجوك!

قال لي ذلك ليلاً، ونحن أمام جهاز التلفزة، ثم أضاف:

- سارة تركتني بلا رجعة!

- لماذا ؟

- تريد الزّواج طبعاً.

- وأنت؛ ألا تنوي الزّواج حقّاً؟

- تزوّجت مرّة وطلّقت. لن أعيدها. هذا الكلام لا يعرفه أهلي.

- اطمئن...

- تعرف... المطلّق تحطّ النساء على مائدته كالذباب.

- صنف معينّ من النساء...

- أنت على حقّ، صنف معينّ من النساء.

- مطلّقات ؟

- ونصف مطلّقات.

- أي عوانس؟

- تقريباً.

لاحَتْ بوادر جوّ حميم بيننا فانتهزت الفرصة وسألته:

- مريم...هل تعرف بعض أخبارها ؟

- من تقصد بمريم ؟

- مريم نحّال ابنة قريتنا...

- ... مريم نحّال! ألم تنسها إلى الآن ؟

- نسيتها؟ ربمّا! لكنّني أسأل عن أخبارها، أليست من قريتنا ؟

- فوجئتُ بصـورتها فـي التلفزة بضـع مرّات. هـل تصـدّق؟ لقـد تمكّنتْ مـن تحقيـق بعـض الشهرة في الغناء، لكنها لم تنجح على ما يبدو...أو قد تكون هاجرت إلى الشرق.

- كيف استنتجتَ ذلك ؟

- لم تعد تظهر كثيراً، حتى في الجرائد، ثم إنها غيّرتْ اسمها...

- غيّرت اسمها ؟ لم تعد مريم نحّال ؟
- بل لقبها، صارت، على ما أذكر، مريم حسن .
وأضاف بأسلوبه التراجعي المعتاد عندما يكون رائق المزاج:
-على فكرة، إذا وجدتها تستطيع استقبالها هنا...

صِرتُ متلصّصاً متسامياً!

أينما تتوجَّه، تسوق المدينة عينيْك وخطواتك، تَرْدعُها أو تُطْعمُها نزراً من رغباتها.أتكون العين، في المدينة، آسرة أم أسيرة؟ تستكشف الاتجاهات والرغبَات ثم تأنس إلى قاعدة حلّ الألغاز، وفك الرموز، وقراءة الإشارات، من أجل خضوع دائم.

لا أحد يرى إلاّ عاداته، والعيون تتطلّب أيضاً سماع النّداء.لا أحد يسمع، والجميع يتحدّثون. يتجبّر كل شيء ويحطّ بثقله على العين. حتى الموت تراقبه العين راكضاً، هنا وهناك، في الشوارع والشاشات. حتى بيتك ليس بيتك وحدك، بل عشٌ يغريك بالطمأنينة، وفيه دمار، وغاز، وكهرباء، وأدوية، ومبيدات، يراقبها دماغ خفيّ، ويقودها بإرادة خفية فيما تدفع له من جيبك أتعاب سَهَره وبثّه لتلك الإشارات.

صرتُ متلصّصاً متسامياً كما كان يقول لي العينوس!

أمامي، هناك، على الشّرفة الجانبيّة، تجلس على كرسي. لقد انحسر "الشورت" الضّيّق. انكمشت وروده الصغيرة الحمراء على أرضيّة قماشيّة بيضاء. داعبتْ وركها اليسرى.انحنتْ أكثر لترى. وجدتْ شيئاً ما، ناتئاً، يمكن التأخّر عنده (بثرة؟ حشرة؟ زغب؟) انحنت أكثر.الضوء يغمرها. شكّلت زاويةً، عشّاً من ظلال.نظرتْ إلى كتفها العارية، لامستْ شيئاً أحسّت به ولم تجده. عادت إلى وركها اليسرى. نظرتْ في كلّ الاتجّاهات (لستُ!)مدّت ساقين مجدولتين في فراغ يريد الامتلاء. أنزلتْهما عن المائدة. أشعلت سيجارة. مالت بالكرسي إلى اليمين: فخذ وذراع، من هذه الجهة، تنغرزان في قضبان الشرفة(الشرفة للإنسان) تدخّن بشراهة. ترفَع رأسها وتنفث الدّخان.دارت إلى هذا الاتجاه. رفعت ساقيها. قدماها السبطيتان على القضبان. أصابع طويلة مستدقّة تتوزّع على يمين القضيب وعلى يساره. دخل القضيب في الفَوْت؛ في الفرجة بين إبهام القدم وبقية الأصابع. تضع ساقاً على ساق.عريها يتمدّد. تتخلّله الَظّلال (بينهما) انحنت إلى الأمام. عادت إلى مسند الكرسي.لماذا وقفتْ؟ ضوء أزرق مفاجئ من شُبّاك الغرفة الثانية. لن تعود إذاً! ضوء الشرفة ينحسر. لن تعود.

أفتح جهاز التلفزة الآن لأخمّن أيّ الصُّور أخذتها منّي وأبعدتها عنّي: هذا فيلم فرنسي، هذا فيلم مصري، هذا مسلسل مكسيكي... أين هي الآن؟ لن تعود!

صرت متلصّصاً متسامياً كما كان يقول لي العينوس!

هنا، تحتي، في هذا المبنى؛ نداء استغاثة...انبثق وتلاشى. هزّ سكون الليل. نداء كالحشرجة. كأنما هو يشكو امتلاءً مّا، غادره. لم يتوجَّه إلى الفهم بل خاطب الحواس. مزّق المفاصل. ترك درجات الفهم حائرة متسائلة. ماذا كانت تلك الصّرخة؟ كيف العودة إليها، كيف

استرجاعها، وقد أفلتت على صهوة لحظة فالتة؟ كيف أستعيد تلك اللحظة وأجعلها تستغرقني حتى أفهمها نهائياً. ماذا كان ذلك؟ خَيْط فحيح طارئ ؟ صريفاً هارباً، كَشَطَ العتمة والسكون، بحبل كتّانيّ خشن، ثم تلاشى مع لحظته، ككلّ ما يتلاشى وراءنا، من دون فرصة للفهم؟

مرّت تلك الليلة. وها أنذا أنتظر صَرِيفَ الكتّان الخشن. أرصد تمزيقه للسكون والعتمة.

بدائيٌ، مبهم. ينبثق ممزّقاً ومتمزّقا. يغزو الحواس فلا تتوصّل إلى فرزه وتصنيفه.يتكرر. أخطئ. أخمّن. أجلب من ذاكرتي أصواتاً تشبهه. سفليٌّ، قديم. يأتي بين الحشرجة والهديل. يُحْدث صدعاً غير مرئيّ في إسمنت الجدران. وإذْ يصدّه الإسمنت؛ يتسلّل عبر الفرجات وفراغ الآجرّ وشقوق الأبواب والنوافذ. تتوقّف عيناي مجهدتين. فلا تستبقان أذنيّ المنفردتين بأصداء صندوق مغلق. أصداء ممتلئة. ألصق أذني بالجدار، بالأرضيّة. هنا، هناك، في هذه الغرفة أضع كأساً، بوقاً. عيناي تلاحقان أذني عبر متاهات وحواجز إسمنتيّة.

الليلة أنتظر...

إنـ... ــه...هـو..!صوت ارتواء، أم صوت استغاثة؟ كأنه صوت أنثى. خُنقت مرّة أخرى أم أسكتها الاسترخاء؟ تهليلة ليليّة عاشقة...بعدها ينطبق الصّمت. كيف أتوصّل، منذ الليلة، إلى مصدر الصرخة، بعد أن تكررت أمامي اللحظة، بتراكم الانتظار والخبرة؟ الصرخة الحبلى بتمزّق لحظتها العاشقة، مرتمية في الصمت والفراغ: نحلة تخترق فضائي وعلى جناحها التماعة رحيق زائل.

لقد مرّت تلك الليلة أيضاً. وها أنذا الليلة أنتظر...

حشرجات خفيفة متقطّعة، تأوّهات تملأ أذنيّ. ثم حورية الأمواج الصوتية تسبح في أذنيّ، تسيل في مفاصلي، تناديني إلى جسدي، إلى وحدتي. أنصت إلى ذا الجدار وذا الجدار، أنصت إلى الأرض.

الليلة أيضاً...أتحرك في مرصدي.أنتظر الصوت.أتوصل بالتجربة إلى أفضل نقطة للرّصد: حافة السرير الخشبي. أتّكئ عليها بأذني فتنقل لي ذبذبات الصّوت واضحة، متميّزة، متخلّصة من الزوائد الصوتية. هي التي سكنت أذني وليلي، حورية الموجات الصّوتية في الطابق الأسفل. رأيتها بعد ذلك تنزل سلّم الدرج، منفتحة على الأيام الأولى من شهوتها، بشَعْر مسدل وقامة طويلة. أحست أنني قريب منها، من نبضها ومن تدفّق الدم في عروقها، وأحسست أنني بعيد عن جسدها المتعالي نازلاً من عليائه بقدمين رشيقتين على درجات السلّم.أحسست أيضاً بذنب مّا تجاهها...ذنب الحميمية المختلسة.

والآن؟ كيف أقاوم تغلغل هذا الصّوت المتموّج في مفاصلي كلّ ليلة؟ كيف أتوصّل إلى التخلص من إدمان الاستجابة لندائه، وهو لا يناديني؟

...ثم تجاوزتُ الصوت إلى التدقيق في ما يحيط به من تفاصيل. ماذا فعلت بنفسي، وماذا أفعل بغيري؟ هل بقيت أنا أنا؟ وهل يبقى غيري كما هو، إذا تسلّلتُ إلى حميميته؟ لكنه لا يدري. أنا أدري: أرصد لحظة جرّ المدفأة إلى غرفة النوم. أنصت إلى مياه الاغتسال من قشعريرة الصرخة حتّى تأتي مصادفة أخرى وتفتح لي مسارب على آفاق أوسع.

سمعتها تتكلّم. مصادفة سمعتها تتكلّم.

كيف أمكن للراديو التقاط هاتفها، على هذه الموجة تحديداً، وعندما تكون إبرة المؤشر في هذا الموضع بالضبط؟(يا عمر! هل يمكن للراديو التقاط الهاتف؟ أجاب عمر : إذا كان لا سلكيّاً!)موجتي على شاطئها والمؤشّر على صوتها. هو ذا الرنين!آلو...آلو...أعرف عنها كلّ شيء

وهـي لا تعرفني: صوتها، جسدها، آهاتها، اسمها، عملها، أحوالها. ثم رأيت زوجها الأصلع الشبق فيما بعد. كان بريق عينيه يمسك بي متلبساً؛ كأنّني دسست يدي في جيب سُترته!

تعليق عمر فيما بعد مبتسماً:

- هل تعلم؟ سكن عروسان جديدان في الشقة التي تحتنا، ألم تسمع شيئا؟

هو أيضا ً...

هـي! مريم!

أخيرا اشتغلت حارساً ليليّاً في مجمع سكني أقرب إلى غابة إسمنتيّة. لا أحرس العمارات لكنني أحرس السّيارات الرّابضة بين العمارات، طيلة الليل. اقضي الوقت وحيداً فأراني كثيراً وأعيد رؤية ما رأيت .

تنعق بومة فوق السطوح، أو تهاجم الحَمَام الهاجع، فأحدّق في مرآة الليل التي باتت مرآتي: "ماذا فعلتَ يا جابر؟ عدتَ إلى ليل الصّقر: إلى البومة!" تنام المدينة. أنساها. يهاجمني الماضي. يتمرأى لي العينوس شبحاً ليليّاً بعيداً. فأكاد أصدّق أنه واحد من مكسّري الزجاج ومهشمي المرايا وسارقي السيارات.

أقول: أين مَنْ عرفتُهم؟ هل تسكن مريم مصادفة في إحدى هذه العمارات؟ من هي المرأة الأقرب إلى ملامحها؟ حفظت الملامح كلّها. وزوّدني الأطفال بما لا أعلم: عمّي جابر! عمّي جابر! ولستُ عمّاً لأحد. مرةً تبنَّيتُ طفلاً، كما أراد لي العينوس، وعلّمته، كما شئت وشاء، فعلّمني ما لم أكن أعلم، وغاب. أين هو الآن؟ مرّتْ أعوام وأعوام. ماذا يعمل؟ ليس حارساً ليليّاً في كلّ الأحوال!

أسهر الليل بكامله. أنام صباحاً. وأتسكّع بقيّة النّهار في الزّحام. أحبّ الزّحام. إنّه يشبه ليلاً آخر. لكنه ليل ملوّن، يتحرّك على السّطح ويجعل المرء يتلقّى الصُّور ولا يبثّها كما قد يفعل في الليل.

كنت في مثل تلك الحالة من التلقّي والاستقبال قبل أن يفاجئني قدري يشق أحد شوارع العاصمة ويمشي على أرضها في هيئة امرأة مسرعة .

تجوّلت في ساحة برشلونة ثم قصدت شارع شارل ديغول. ومنه إلى باب البحر. وتحت القوس تماماً، قادمةً من الأسواق، وجهها، مشيتها، وجهها فقط، عيناها، هي...هي، لا...هي! صحتُ:

- مريم!

اتّسعتْ عيناها وانفرجت شفتاها بابتسامة اليقين:

- جابر!

وكانت الأسبق إلى تقبيلي .

(أحبّ وأحقد. أنا أطول منها. أيّ أَلَم تشكو منه سوف يشفيني.)

- أنت أيضاً هنا ؟

- منذ وقت طويل .

(ينبغي أن أحبّها أكثر. أحبّها أكثر وأتركها كدَلوٍ في منتصف المسافة، أريدها أن تبكي من أجلي، من أجل تلك اللحظات... لن أتركها في منتصفٍ المسافة.)

- ماذا تفعل ؟

- أتجوّل .

(عندما كانت تجلس تحت التّينة على أعشاب مَرِحةٍ تراقص ظلّها، والنّمل يهرب من حضور جسدها.)

- أقصد ماذا تفعل هنا، في العاصمة ؟

- أشتغل حارساً ليليّاً .

(بينما عيناها بَحْري وغرقي... وابتسامتها سائلة في ما هو سائل في مفاصلي.)

- أين ؟

- في المنزه السادس .

(كأنّني السبب. أنا الذي لم أرها. رافقتها...ألم تبك كثيراً ونحن في مقبرة القرية؟ ألم تتوسل إليّ كي أتفهم عثراتها وعلوّها؟ عليّ أن أسأل أنا أيضا، وقلبي...)

- وأنتِ، ماذا تشتغلين ؟

ارتبكت قليلاً ثم استدركت نفسها:

- لا، لا شيء. كنت في زيارة مجاملة فقط .

(كانت تحبّني ولا تعرف كيف. كأنها تقول في نفسها: شيء ما يجعلني لستُ له، ويجعله ليس لي. لكن، ما هو هذا الشيء؟ عليّ أن أسألها مرّة أخرى ودقّاتِ قلبي...)

- ما هي أخبارك بعد كلّ هذه الأعوام ؟ سألتُ عنك، يا مريم، في كلّ مكان!

- أنا في العاصمة، كما ترى.

(أنا كبير وهي غائبة وتستأهل ذلك. أمر مفرح أنها حاضرة. إنني أكبر بامتلاكها. أمتلك ماضيَّ ولا أتحسّر على شيء. خفت أن تُفلت منّي هذه الفرصة المُرْبكة. أمشي إلى جانبها. تمشي إلى جانبي. أكبرُ بامتلاكها. ما ألذّ آلام مريم في مفاصلي، ومتاعبها في خطواتي. أشعر بالتّقصير ثم أعود إلى امتلاكها. أمتلكها وأملأ بها الماضي. لم أخطئ إذاً... أكاد أصرخ. بل ثمّة من ينفجر ويفجّر ضلوعي صارخاً: "متاعي! متاعي! مريم متاعي!" يا لجَبَروت سنواتها الكبيرة بعيدة عنّي. ها هو ذا جلال النّضج بين يديّ... إليَّ! إليَّ! يا مريم...إليَّ!)

- تعالي نذهب إلى مقهى أو مطعم...إلى حديقة.

- هذه المرّة لا أستطيع لكني أعدك...

- كيف تعدينني؟ لم نتحدّث. لا أعرف عنوانك، لا تعرفين عنواني... أرجوك يا مريم...

- اسمعْ...أعطني عنوانك، أين تسكن؟

- في أريانة، عند صديق تعرفينه...

- من هو ؟

- عمر القاسمي.

- أخشى...

- لا تخشيْ شيئاً. عُمَرقاطَع كلَّ ما يتعلّق بتلك الدنيا.

- ومن أدراك ؟

- أتخافين شيئاً ؟

- لا أخاف. المشكلة ليست هنا؛ أنا أيضا قاطعت...قاطعت كثيراً. طيب، أعطني العنوان.

- نبقى معاً، نصف ساعة على الأقل!

- سترافقني إلى المحطّة... كلا سأستقلّ سيارة أجرة...

وفي الأثناء غيّرت رأيها جزئيّاً. توقّفنا لنتناول كوبينْ من عصير البرتقال .

- مريم! مازلت أحبّك!

سألتْني وعلى شفتيها البرّاقتين طيف ابتسامة ساحقة:

- ألم تتزوّج ؟

- كلا.

ففاجأتني بما كنت أخشاه:

- أمّا أنا فقد تزوجت.

- آه! أنتِ متزوجة إذاً!

(مريم تهرب. أراها وأنا وحدي. مريم تزداد طولاً وفرحاً...)

وضعتْ يدها على ذراعي وأضافت:

- بل نصف متزوّجة! نصفي طالق ونصفي عالق، كما يقال.

- ماذا تقصدين؟

- دعنا من هذا الموضوع الآن؛ سوف تعرف ذلك في الوقت المناسب .

(لم تنجح مع غيري. لم تحب الحبّ الحقيقي. هو ذا الزّمن! أيَّ طُموح أردنا ولم نحقّق؟ كلاّ إنها ساحرة، أخّاذة، آسرة، بارتباكها لي، بأولى شعراتها الشّيباء لي، بأسفها وفشلها لي، بصوتها الذي تَشوبُه بحّة حزنٍ شفيفٍ لي، عمرُها لي...)

أمسكتُ بيدها. طلبت عنوانها. فرفضتْ متعلّلةً بحرج موقفها.

- لكنك تخرجين وحدك.

- هذا شأن آخر.

- أرجوك يا مريم لا تتركيني.

- إذاً، نتّفق على موعد منذ الآن.

- نعم.

- لن آتي إلى عنوانك هذه الأيام، نلتقي هنا في تونس.

- متى، أين ؟

- نذهب إلى السينما غداً، لكنْ في الفترة الصباحية.

اتفقنا على قاعة السينما. كانت بجانبنا. هي التي حدّدت لنا مكان الموعد. نظرتْ إليها مريم فوظّفَتْها، كعادتها في التقاط اللحظة.

ودّعتُها متوسّلاً. قالت: "ألا تصدّقني؟" قلت في نفسي " قد تكرهني ذليلاً" لكنني أحبّها. قلت: "هل تكذب ؟" كيف أفلتتْ منّي هذه الفرصة ؟ عدت إلى نقطة البدء. لا أعرف عنها شيئاً سوى أنها طلّقت أو ستطلّق قريبا. أين تسكن؟ ماذا تعمل؟ أين كانت؟ هل تأتي حقّاً؟ ليتني كنت أكثر إصراراً... لكنْ، كيف ؟

همتُ في الشوارع لا أرى أحداً وأسأل أشخاصاً وقططاً وأشجاراً تُطلّ من وراء غلالة المرئيّ. سَألت العينوس. سألت البومة. سألت أيامي ولياليَّ. أريد الرؤية ولا أستطيع. أريد الفهم ولا أستطيع. أريد الانتباه فتفلت منّي امرأة. تعود المرآة. يعود جبل البلّور. أعود حارساً ليلياً.

لم تحقّق مريم أحلامها. فهل سبقتني إلى الفشل؟ لكنها مازالت كما عهدتها، في علاقتها بي، على الأقل، منذ أن كنّا صغيريْن: هي التي تبادر؛ وأنا الذي أوافق. أوافق أو اضطرّ إلى التوسّل كي أوافق. تخيّلتها نجماً في سماء العاصمة. توقعت أن أراها، فجأة، على الشاشة، أو على صفحات الجرائد. ماذا تفعل الآن ؟ لقد بدأتْ بالطلاق. هل معنى ذلك أنه ضروري كخطوة أولى في طريق أحلامها الشائك؟

فوجئ عمر:

- لماذا لم تأت بها إلى هنا؟

- حاولتُ؛ لكنها لم توافق.

- لم توافق أم أنت الذي...

- حاولتُ.

- أعرفكَ؛ كانتْ تحدّثُكَ وأنتَ تحدّث نفسك.

- أخذتْ عنواني واتّفقنا على موعد.

- أين؟

- في السينما.

- وماذا ستفعلان في السينما كعاشقيْن مراهقين؟ ستدنوان من بعضكما، يلامس كتفها كتفك، يدغدغ شعرها أذنك، تكفّ أنت عن متابعة أحداث الفيلم؛ عن فهم الحكاية، بينما هي، هنا وهناك،على وعي تام بك وبالحكاية؛ بل وتسألك أسئلة تحرجك. لاتقل إنك لن تمدّ يدك على الأقل، أو تجعلها تفعل ذلك...

لاحظ عمر صمتي فأضاف:

- أمامك حلّ واحد...

- ما هو ؟

-بعد السينما، عليك أن تدعوها إلى البيت. سوف أترك لك الشقّة فارغة، مساء

السّبت كلّه، اِطمئن!

دعوة جهنّميّة!

خرجنا من قاعة السينما وذهبنا إلى البيت. كان عمر هناك. عاد من عمله ظهراً، ولم يتوقّع أنني سأنجح في الإتيان بها. تصرّف بتفهّم وافتعل الخروج.

رفضتْ مريم الدّخول إلى الغرفة. أعرف أنها هي التي تختار المكان والزّمان دائماً. لم أبادر مبادرة واحدة معها إلا وكان مصيرها الفشل. هل بادرتُ حقّاً؟

جرّتني إلى أريكة الصالون. تمدّدنا. تحْتكّ بي. أحتكّ (سروال الدجين يزعجني) تلهث. تعصرني. أقبّل عنقها. تحشر فخذها. تشدّ بركبتها(يزداد الوجع) يدي(ترفض التعرّي... مبرّرات؟) شفتي السفلى، شفتها العليا. أسنان. لسان (ليتني أتكلم) تتلوّى ، تنحني (هذا النّوع من القماش، لو أقول لها ذلك!) تعضّ تصيح (لو...لو...)

- ممتع، أليس كذلك ؟

- أزعجني الـ ...

- لماذا لم تقل ذلك ؟

- فعلاً، لماذا لم أقل ذلك...

شربنا قهوة. دخّنت مريم سيجارة مع قهوتها، ثم وقفت. غابت قليلا ثم التحقت بي إلى المطبخ. كنت لا أزال جالساً. انحنتْ. ركعت. دخلت تحت الطاولة. قالت: "سأعضّ!" أنا لا أرى شيئاً. أمامي طاولة وفنجانان فارغان. لكن العالم السفليّ أنا. لا شيء غير طاولة...وأنا، هو...

تجرّأتُ وسألتها:

- ومن هو زوجك؟

- فنّان فاشل؛ ممثّل مسرحي وَعَدَني بالكثير وأخذ منّي كلّ شيء.

- ألا يحبّك ؟

- في البداية كان ممثّلا ناجحاً، أو قلْ : أنا التي أردته كذلك .

- وبعد ذلك ؟

- عزلني عن أقاربي وأصدقائي ثم صار يأتي بالنّساء ويضاجعهنّ بحضوري!

- إلى هذه الدرجة ؟

- نعم .

- هو الذي...

- ... علّمني أن ألعب دور القطّة !

- لكن ...

- للقطّة مخالب كما تعرف ...

- نعم .

- وعلى القطّة أن تعامله بالمثل، وتنتقم !

- متى ؟

- عندما تحين الفرصة.

- وإلى الآن لم تتوصَّلا إلى الطلاق؟ أليس الطلاق أفضل ؟

- وعدني بذلك ، لكن، لابدّ من إجباره بمبرّر أقوى يقصم ظهره، كما قصم ظهري.

- مازلت قويّة كما عهدتُكِ!

- أمّا عن قوتي الآن، فإنها تتسلَّح باليأس...سوف يرى!

حين تهيَّأتْ مريم لمغادرتي حدَّقْتُ في عينيها، فأشرقتْ آلام أيامي الماضية ببريق صقَلَتْه اللحظة. لكنها أيقظتني بمفاجأة :

- سأدعوك للسّهر في بيتنا!

- ماذا ؟

- نعم .

- وهل سيكون زوجك هناك ؟

- طبعاً لا. فهو لا يعود إلى البيت إلا نادراً. وحتى إذا عاد، صدِّقنيْ! لم يعد بيننا أيّ رابط يستدعي الغيرة! وحتّى البيت بيتي؛ أنا التي اشتريته بما وفّرت من الحفلات. أما هو فيعيش الآن عالةً عليَّ وعلى فنّه!

- إلى هذه الدّرجة ؟

- بل أكثر؛ إنه رجل متحرّر! هل تعرف ما معنى رجل متحرّر ؟

- مع النساء، لا!

- إذاً، سوف ترى .

- متى ؟

- في الوقت المناسب!

رافقتها حتى الشارع. وعندما ركبتْ سيارة الأجرة تركتني مرتبكاً، حائراً. لم أجرؤ على مجاهرتها بجُبْني في مثل هذه المواقف التي تتطلّب مواجهة من نوع خاص! ينبغي أن أجد مبرّراً قويّاً للإفلات من هذه الدعوة الجهنمية.

عاد عمر مبتهجاً وقال لي :

- أنت محظوظ هذه الأيام!

- لماذا ؟ هل تقصد لقائي بمريم ؟

- أكثر من ذلك...سأترك لكما الشقّة ثلاثة أيام كاملة!

- لماذا ؟ أتسافر فجأة ؟

- بدلاً من التساؤل، عليك أن تتمنّى لي النّجاح في هذه الصّفقة الجديدة!

- وما هي هذه الصّفقة ؟

- سوف أخبرك بذلك فيما بعد .

وعندما تأهّبت للخروج إلى عملي في الحراسة الليلية، قال لي مبتسماً :

-اسمعْ! تستطيع أن تعطي مريم نسخة من مفتاح الشقّة، لِمَ لا ؟

الخطأ الأوّل والخطأ الثّاني

أخيراً تعرفت على شاعر! وفي البنايات التي أحرس سيّاراتها، يوجد صحفيّ وموسيقار. يهتمّ الصّحفي بشؤون الرياضة والجرائم التي يدْمِنُ عمر قراءة مواضيعها، معلّقا: "رفعتْ عقيرتها بالصياح...أفقدها أعزّ ما تملك...ألحقها بصفوف المتزوّجات...لكن ، تجري الرياح بما لا تشتهي السفن..." الموسيقار يضع سيّارته دائما في مكان غير مناسب. يعرقل سيّارات غيره. فيصيح هذا: "يا موسيقار!" ويزمّر ذاك حتّى يصرع سكان العمارة "مسيو لوموزيسيان!" ذلك أن السيد الموسيقار يأتي عادة في آخر الليل، أي في آخر الوعي، فيوقف سيارته حيث توقفه. تردّدتُ في البداية، ولم أتدخّل. وعندما ازدادت ملاحظات نقابة المجمّع السكني اضطررت إلى ذلك :

- سيّدي الموسيقار، الجميع يشتكون...

- طز!

- سيدي الموسيقار هناك أمكنة في الجهة الخلفيّة .

- أنا في المقدّمة ولست في الخلفيّة.

- سيدي الموسيقار...

- تصبح على خير.

لم تجدُ ملاحظاتي حتّى عاد الشّاعر متأخراً، ذات ليلة، وصدم بسيّارته الحديديّة العتيقة سيّارة الموسيقار الجديدة، لأنها كانت تحتلّ مكانها وتعرقل مسارب إلى أمكنة أخرى فارغة. أدخل الشاعر سيّارته بمناورة جهنّميّة، كما تتسرّب دودة في عود قصب. وفي النهاية نجح في بلوغ المكان الشاغر، وفي تحطيم المصباح الخلفي لسيارة الموسيقار.قال لي مترنّحاً:

- أنتَ لم ترَ شيئاً!

قلت :

- رأيت وسمعت!

قال :

- رأيتَه يصفّ سيّارته بطريقة الخطأ، أم رأيتني أصدمها ؟

أجبت :

- رأيت الأمريْن معاً.

عندئذ ابتسم لي قائلا :

- اسمعْ! عليك أن تتفادى الخطأ الثاني بتفادي الخطأ الأول.

- لم أفهم .

- الأمور واضحة؛ أخطأتَ مرتين، فهل تريد فقدان عملك ؟

لم أردّ. ولم أفقد عملي. وصار الشاعر يحيّيني ويتوقف معي قليلاً، كلّما عاد ليلاً ورآني. وذات ليلة تجرّأتُ وأخبرته بأنني أكتب الشعر. استغرب في البداية ثم سألني :

- تكتب الشعر الشعبي ؟

- نعم، وسوف أحاول الكتابة بالفصحى لأنني أجيدها.

طلب منّي أن أُسمعه، فقلت :

طَلَّتْها طلّة شفقْ
يضوّي قدّامي الثنيّة
وريحتها ريحةْ حبقْ
يمسّد لي قلبي وعينيَّ
تهربْ وتخلّي القلقْ
يكتّفْ لي يديَّ برجليَّ
نحطّ راسي فوقْ طبقْ
ونمشي عليه بساقيَّ

ابتسم الشاعر وقال لي مجاملاً :

-واللّه عندك ما تقول!

ليلة الشّموع

يجعلني الانتظار أتصاغر دائماً أمام موضوع انتظاري...

أحسّ عندئذ بأنني طفل أمام جدار عالٍ رَفَعَتْه أيدٍ خفيّة. أَذْرَعُ المسافة تحته، جيئة وذهابا، ولا أفعل شيئاً غير معايشة ضعفي، وزرع قلقي، وجَنْيِ تبعيّتي. وبعد طول انتظار، يمرّ بي الزمن باسطاً كفّه أمامي بثمرة أتعابي مهلّلاً "إليكَ ما انتظرتَ!" أو هاتفاً : "هيهات أن يكون!"

كان انتظاري لمريم هو خادمي أيضا؛ خادم الحبّ الذي، في غياب الحبيب، لا يأتي إلا بصُوَره واحتمالاته كبدل من يقين حضوره. غير أنّ حضور مريم هذه المرة، هو الذي يرمي بي

في خضمّ الصُّوَر والاحتمالات التي تسوقها الرّيبة أوّلاً.أترى أنا الذي أردتُ، بمجيئي إلى شقّتها، إخراج عزلتي من بين أضلعي باتجّاه السيُولة، أم أنّ مريم هي التي أرادت افتكاكي منها لكي تردم بها بقايا وحدتها، ممهدة لانتقامها ؟(أأنا الآن هنا، في غرفة نومها أمْ أجوب معها ما تبقّى من مساحة البيت، فيسمعني رجل آخر في غرفة نومها، وينصت إلى حركاتنا وسكناتنا؟) لم أكد أدخل حتى أغلقت الباب الخارجي ورائي، وارتمتْ في حضني مبتسمة. أمسكتْ بي من يدي وأشارت بيدها الأخرىَ إلى الاتجاه: غرفة النّوم!لكنها تركتني أدخل وحدي. أغلقت الباب ورائي. الغرفة نصف معتمة تتراقص في عتمتها المعطّرة ذبالات شموع. لماذا لم تضئ الكهرباء؟ وهل غرفة النوم هي أفضل مكان لإخفاء رجل، ولا سيما إذا كان عشيقا؟ لم تأمرني بالاختباء واقفاً في الخزانة خلف فساتينها، أو حتّى منبطحاً تحت سرير النّوم كما قد تستوجب العادة؛ لم تكن هناك مفاجأة تتطلّب كلّ ذلك العناء.

في أوّل فرصة وفّرها لي عمر كي أختلي بمريم في شقّته، وجدت نفسي غير محتاج إلى شقّة خالية من صاحبها." الطّابق الأخير، الشقّة الأولى على اليمين، قالت لي مريم، نذهب معاً وعندما نقترب من العمارة أسبقك بخطوات...وسوف تجد الباب مفتوحاً" قلت لها معترضاً: "لكنني لا أستطيع ترك شغلي، هل رأيت حارساً يتخلّى عن الحراسة فجأة؟ قد تحدث كارثة وأفقد شغلي!" فأجابت بسخريتها المعتادة: "الكوارث لا تتوقف على وقوفك دونها!" اقترحتُ عليها أن أزورها في آخر ساعات الليل، قبيل الفجر مثلا، فوافقت بشرط: "ليكنْ! لكنْ لا تتأخّر حتّى طلوع الفجر!"وهكذا تسلّلت في ساعة متأخّرة من الليل. كنت أقاوم ريبة تثقل خطاي وتهزّ قلبي، وأحاول تنكّب جرأة تخونني. ما الذي جعلها تصرّ على كلّ هذا التكتّم، والاهتمام بالطقوس السرّيّة، مادام زوجها غير موجود؟

غرفة مضاءة بالشموع!

هنا مرايا مريم. هنا زينتها. هنا روائحها: لغة صامتة تتمظهر بها أدواتها وبقايا نومها وآهاتها.هنا وقّعتْ بجسدها ليسجّل حضوره الأبهى في الدنيا.مَن الذي يطلّ عليّ منْ هذه المرآة الطويلة؟ مَنْ يختفي وراء باب الخزانة؟ أنا، أم زوجها، أم هي من يَخرج الآن؟ فأبتعدَ قليلا لأراها مرّة أخرى عبر المرآة المستديرة على طاولة الزينة؟أحاول تبينّ الأصوات الهامسة خارج غرفة النّوم. لماذا أَنْقَادُ دائماً إلى ما تريده منّي؟ لماذا أرتضي لنفسي هذا الدّور، هذا التخفّي لسبب أكاد أجهله؟ هل هي فرصة أخرى لأستجلي أقاصي ريبتي وألمي؟ ماذا لو أصرخ الآن، هنا، صرخة تتكسّر إثرها المرايا وتنطفئ الشّموع، فتغادرني صور مريم وروائحها، بينما تقبل هي راكضة بجسد حيّ، نابض، يضيء النّور ويهشّم الصّور؟ أسمع وَقْع آنية في المطبخ. ماء حنفيّة. صمت...ماذا تفعل مريم الآن؟ أعتقد أنني سمعت صوتاً آخر معها. هلْ أسمع همساً؟ لمَ خيّم الصمت فجأة؟ هل كان ذلك الصوت يأتي عبر جدار آخر؟ اللعنة على هذه العمارات المغلقة، والمخترقة لأسرار الآخرين في آن!الأصوات تنتقل من المطبخ إلى الشرفة. أحاول الإصغاء. تتداخل أصوات وأصداء متأتّية من الجدران والمواسير والأبواب، في بقيّة الشّقق؛ معزوفة من نشازات متقارعة. أسمع ولا أرى. يختلط كلّ ما أسمعه من كلّ اتجاه. أغمض عينيَّ. استجمع الأصوات مرّة أخرى حتّى أسكن القاع من بؤرة عالمي السَّمعي.

أعود إلى ملامسة مريم عبر أشيائها في الغرفة. أناملي تتحوّل إلى عيون لاقطة، وتلاحق حركات جسدها واتجاهاته. لا أرى فأستبطن. أعود القهقرى إلى ماضي جسدي وجسدها. أصطدم بآثار جسدها في الحاضر.

تربكني المرآة.

تقبل منها مريم بماضيها وحاضرها، بتأوهاتها وكوابيسها. أتخلّص من رؤيتها عارية قبالة المرآة مع رجل غيري، فأراني اثنينْ. أأنا في غرفة النوم أم خارجها؟ ترى، أنا الذي أنصت إلى مريم وإلى الصوت الذي يهمس لها خارج الغرفة، أم أنا خارج الغرفة وهناك من يتنصّت علينا من داخلها؟ أطلّ من ثقب الباب ولا أجرؤ على فتحه. كلاّ، ليس هناك شخص آخر يتلصّص عليّ من ثقب الباب. أرى المشي مضاءً، فارغاً، ولا أحد يتحرّك فيه.إذا كنتُ أحلم الآن فمعنى ذلك أن الحياة يمكن أن تكون حلماً. يُحتمل أن أكون مستيقظاً الآن في مكان آخر، لعلّه زمان آخر؟ هل أسمّيه يقظة الموت، مقابل حلم آخر طويل، هو الحياة؟

أنا الآن مع جابر آخر؛ الآخر سيقتلني لأنّني لا أنوي قتله مهما حصل. ألهذا أجدني أنكمش على داخلي فتتّقد حواسي؟ واقعي معلّق أمام جدار عال، وأنا تابع له.استطاعت مريم أن تعرقل نظري، وتُلهيني بهذه الشّموع، غير أنها لم تتوصّل إلى عرقلة سمعي. استطاعت التّعتيم عليّ في غرفتها البيضاء التي تنيرها الشّموع، لكنها لن تعتّم غرفتي السّوداء التي يضيئها ليل جسدي: ألمس حضورها فتتواصل عَيْني ويدي، أسمع همسها فتقترن أذني بأنفي. أنا الآن هنا في بؤرة أحاسيسي، وأحاسيسي في بؤرة هذه اللّحظة، ومريم هي التي وهبتني هذه اللّحظة. وهبتني مخاطرةً: أمتلك بها ذاتي إذا خسرت، وأمتلك بها مريم إذا ربحت.أغادر ضفّتي سائلاً على حصبائها. لكنني الآن مفرغ منها. لذلك أحتاج إليها. أنا خائف مثلها (هل هي خائفة؟) لذلك أحتاج إليها: هي مرآتي .

كأنني أنتهك صمتاً ليس لي، رائحة ليست لي: كأنني أرتدي فستانها، كأنني في غرفة الشّموع...(كلاّ، كلاّ، أنا، هنا، في قاعة الجلوس!)ألم تستقبلني مريم بحرارة؟ واضحٌ أنها وحدها في البيت. لم يبدُ عليها أيّ ارتباك. قبلة طويلة: "هل تريد التعرّف على بيتي؟" بيتها؟ بيتهما؟ المطبخ، الصّالون، الشّرفة المطلّة على حديقة البلفدير " تسمع زئير الأسد في اللّيل !" الحمّام، غرفة الضّيوف و...غرفة النّوم (مغلقة!) الغرفة الوحيدة التي لم تفتحها أمامي. من حقّها التكتّم على حميمياتها...

أمسكتْ بيدي وجرّتني إلى قاعة الجلوس. استلقتْ على الأريكة بلا مقدّمات(الحركة تسبقني إليها.لا يكفي لو أقلّ بقليل فقط. تتوقف. تحرّكني. أين ما يحرّكني؟ إليها ، إليها. " رأيتكّ نائماً مثل جنين بريء!" تصيح. يمكنني أن أصيح في الصمت.)

- ممتع! أليس كذلك؟

ابتسمتُ وعدت إلى صدرها.

ذهبتُ إلى غرفة الحمَّام. كانت مجاورة لغرفة النّوم التي لم تفتحها. هل يكون فيها شخص؟ زوجها؟. فكّرتُ في فتح الباب لكنني تراجعت. نظرت من ثقب المفتاح: شموع! شموع! نعم، رأيت شموعاً! من الذي كان يتنصّت علينا في غرفة الشّموع؟ من الذي كان يستحضر جسد مريم عبر مراياها وروائحها؟ لقد تأكّدتُ هذه المرة. لست داخل الغرفة ولم أكن هناك. والدّليل على ذلك هو وجود مائدة عامرة بالصّحون والكؤوس، وحولها الشّموع. لا أحد في الغرفة، أو ربما لم أتمكّن من رؤية أحد. كنت إذاً، خارج غرفة الشّموع. أنا أهجس، وأنقسم إلى راءٍ ليس أنا، ومرئيّ ليس أنا، بينما تتحرّك مريم صاخبة في أشدّ أماكنها انتقاماً.

عدت إلى قاعة الجلوس. كانت مريم مستلقية على الأريكة وعيناها تحدّقان في السقف. لم أسألها لماذا لا تُعْلمني مسبقاً بكلّ ما يحدث، لأنني أعرف أنها هي التي تختار، وتحدّد المكان والزّمان.

لم أسترح دقيقة واحدة. تأخذني إلى الشّرفة المسقوفة (أليست باردة؟) ينبغي أن أكون

أنا، وأصير مريم، ولا أُبدي اعتراضاً أو جبناً (فعلَها في الشّرفة هو الآخر؟) خيوط الفجر بدأت تمزّق ما يسترنا. السّماء وحدها ترانا. لماذا تختار أقلَّ الأماكن راحةً وأبعدها توقّعاً؟

لحَاف منشور على حبل الشّرفة؛ تناوَلَتْه وغطّتنا به. صرنا كائنين يتشكّلان تحت لحاف أبيض، يَتموّج فجوره تحت فجر الدنيا (الأسد يزأر) مريم تَبتسم. مدّت يدها. قلتُ "لاشك أنّها.." يدها. وجع العالم عندما يكون جافاً. يدها. يوم مضنٍ. عملي ليليّ. وقت تختاره. أمكنة. يدها. بطء مبرّر. هذا الجفاف اللاّذع. يدها. ليتني أتكلم. ستقول فيما بعد :"لماذا لم تتكلّم؟" يدها. أخيراً عمّ فجر الدنيا. هدأ اللّحاف. لمعت عيناها مثل قطّة ترفع يدها:

- ممتع، أليس كذلك؟

- "مثل قطّة ترفع يدها..."

لكنّ الفجر يهجم ومريم تزداد نساءً!

في المطبخ، في الحمام، في خزانة المجاز... تكوّرنا حتّى كأنها سبع نساء في واحدة.

ومازلتُ هناك، في غرفة الشّموع أتساءل: هل هو زوجها؟ هي لا تدعوني وتمنعني من الدّخول. كأنني سمعت صوتاً يُقبل من هناك ؟ كلا، كلا، أنا هنا، أنتقل مع سبع نساء كلهنّ مريم التي ترتاد بي أقلّ الأماكن توقّعاً. أعود وأتساءل: هل هي أماكن انتقامها؟ هل تستبطن مريم جغرافية آلامها؟ ألم تقل لي إنه صار يأتي بالنّساء ويضاجعهن بحضورها؟ آه! هل معنى ذلك أنه في غرفة النّوم؟

كنّا في المطبخ عندما سمعنا دورة المفتاح في قفل الباب الخارجي.

أسرعت مريم وسحبتني من يدي إلى... غرفة النوم. استجبت لرغبتها متسائلاً :

- مَنِ القادم ؟ مَنْ ؟

- زوجي الممثّل .

- ما هذه الورطة ؟ ألم تؤكّدي لي بأنّه لن يحضر ؟

- لا تخشَ شيئاً! بدأت المسرحية!

- أية مسرحية ؟

- المسرحية التي أُعِدّها له منذ زمن طويل، مسرحية "مريم والشموع"!

- وما ذنبي أنا حتى تحشريني في هذه المشكلة ؟

- ليس لك ذنب، ولا توجد مشكلة!

- إذا ً؟

- هو ممثّل وأنا أردت أن أبرهن له بأنني مخرجة! ألا ترضى بدور البطولة ؟

- وصولاً إلى الجريمة أو السّجن ؟

- قلتُ لك لا تخفْ! سوف تتأكّد بنفسك.

في غرفة النّوم جلسنا إلى المائدة. كانت مريم تلتهم الطعام بحركات عصبيّة. أما أنا فقد اكتفيت بالشّرب، الشّرب... بسرعة وارتباك. قالت وهي تجبرني على تناول قطعة لحم:

- ألا ترى أن أفضل مكان للاختباء هو غرفة النوم ؟

وانطلقتْ تقهقه بلا ريبة أو تحفّظ. قلت:

- لماذا لا أختبئ تحت السّرير ؟

- ها ها ها...

- في الخزانة ؟

- ها ها ها... سوف تكون المسرحيّة تقليديّة، والحال أنّ زوجي مجدّد!

- (...؟)

- ينبغي مواكبة التّمثيل الجديد بإخراج أجدّ!

- (...؟)

- هل تريد معرفة كلّ شيء؟ أنت الآن تتشوّق إلى معرفة ماذا يفعل ممثّلي، أليس كذلك؟

- (...؟)

- لقد عاد مخموراً، مسطولاً! لا يخدعنّك الصّمت؛ لنسكتْ قليلا وسوف نسمع الهمس: إنه مع امرأة أخرى!

ثقافة مريم تجاوزت الغناء إلى المسرح، غير أن إيقاع ضحكاتها جعل زوجها يقترب حذراً من غرفة النّوم، يتقدّم، ثم... يفتح الباب بهدوء، ببطء... يُطلّ (رأيتُه... رآني... رأَتْه... رأيْنَا ... اختلطتُ...) وكنت أنتظر حرباً. لكن...

- متى تغادرين البيت ؟

- تعرف جيداً أنّ البيت ملكي، فمتى تكفّ أنت عن المجيء؟

- أنا مع واحدة!

- وأنا مع واحد.

- كلانا في الهوى سواء!

- لن أصبر على هذا الوضع، ليكنْ في علمك أنّها البداية فقط!

غادر الممثّل عتبة غرفة النّوم مترنّحاً، متلعثماً، مردّداً :

- البداية... النهاية.. .يا بداية... يا نهاية...

أمّا أنا فقد صمّمت على المغادرة برغم توسّلات مريم. كانت فرصتي لأقرّر شيئاً ما، بعد طول مطاوعة؛ فخرجت متسلّلاً مثل كلب مرتخي الأذنين وقد سرق شيئاً لتوّه. نزلتُ درجات السُّلّم راكضاً؛ أذناي مرتخيتان، وقلبي ، هناك في الشقّة، يخفق ورائي.

أما زلتِ تحلمين ؟ ماذا تفعلين يا مريم ؟

سأخون مريم. سأخون ريم. أطلب مريم في ريم بعد أن طلبتُ ريم في مريم. ما ينقص مريم هو أنها لا تريدني لها. تريدني شمعة لزوجها. ما ينقص ريم هو أنها تريدني لها ولا تتمكّن

من امتلاكها لي. أخونها أمام مرآتي حيث أكون وأراني. ثم أخونهما حيث لا أراني. أدخل في الزّحام. أخرج. أتوغّل في الأزقّة حتى أبلغ ماخور الولي الصالح سيدي عبد الله قش، حامي حماهنّ- فلْيُبَرِّدْ له ثراه! أختار جسداً معروضاً. أتخيّله يحلو لي، فيحلو لي. لا أعرفها. لا أعرف اسمها. كتلة أنثويّة مبهمة. لا تعرفني. لا يهمّها اسمي. قالت :

- أُكتب لي رسالة .

سألتها مستغرباً :

- رسالة؟ إلى من؟ إليك؟

- إلى شخص يحبّني، وعدني بالزّواج.

اعترضتُ :

- لكنني جئت ...

هدَّأت من غضبي :

- معنا الوقت الكافي .

كتبتُ رسالة بخطّ لا أعرفه، إلى رجل لا أعرفه، من امرأة لا أعرفها. وقلتُ في الرسالة على لسانها: "وعدْتني، تحبُّني، أما زلت على العهد؟ هل تتذكّرني؟ ألم تقل لي: لا يهمّني وضعك الحالي، سوف يتغيّر كلّ شيء ؟" لا أدري أيّ رجل سيقرأ لغتي ويفكّ طلاسم خطّي. غير أنني، معها، صرت أكبر من ريم ومريم. (الحقيرة! تَلَقَّتْني وهي تنظّف أنفها بخنصرها!)

والآن؟ هناك شخص سيدفع بي إلى الجنون: مريم نحّال أم عمر القاسمي؟ هو يريد أن يربح العالم ويريّشه مثل دجاجة؛ وهي تخسر العالم فتتخبّط فيه مثل دجاجة، لكنْ... إلى أنواع من الذّبح. لذلك نشأتْ هشاشة بينها والعالم. لم يعد أحد قادراً على امتلاك روحها. ولم تعد هي معنيّة بالآخرين. أشكّ أنّها ستصطاد منهم كلَّ مَنْ يروي لهفتها إلى ليلة شموع أخرى، كلَّ من تراه في هيئة شمعة مطفأة أمام عينيها، فتسعى إلى إشعالها في ليالي انتقامها، من أجل عمل تمثيليّ جديد، لن يجرؤ زوجها على إخراجه مسرحياً. "منذ فترة رآك أَنْور ولم تره" هكذا قالت لي. هل تسعى بكلّ رجل فتقود خطاه إلى خطى زوجها حتى يراه؟ رآني ولم أره. لم يتكلّم ولم يعترض، ثم رآني شمعة أخرى تضاء له... وتحترق. هو يواصل طريقه، وهي تواصل إحراق اللّحظة الفالتة؛ اللّحظة التي دمّرت أحلامها. أما زلت تحلمين؟ ماذا تفعلين يا مريم؟ أهيّئ شمعة أخرى، أشعلها، أجعلها تحترق، أطفئها أو أتركها تَذوب حتى النّهاية، أجمع الشّمع السّائل، أعجنه، أشكّله رجلاً جديداً يحترق.

كلّما قيل ماتَ لَنَا شاعرٌ

استأنست بشاعر العمارة. أدمنت قراءة الشِّعر الفصيح، وأخبرته بذلك، فصار يُعيرني بعض كتبه. صرت أحاول الكتابة بالفصحى. أعطيته قصيدتي الأول :

آهِ ! كانتْ حياتي أمامي وملْكي

فبدَّدْتُها مثلما لم أَشَا
وأنا اليوم أحضنُ رُبْعاً تبقَّى
وأخشى عليه صرُوفَ الفنا
غداً سوف أنظرُ نحو الوراء
فلا أتذكّرُ غيرَ الظّما
عندها أستعيدُ الذي قلتُ :
"ظلَّ أمامي رُبْعٌ أخيرٌ
فبدَّدتُه مثلما لَمْ أَشَأْ "

أعاد إليّ القصيدة وأمطرني بوابل من الملاحظات، مازلتُ أذكر منها: "عندك موهبة، هذا لا شكّ فيه، لكنها تحتاج إلى الصّقل. عليك أن تدمن القراءة. هناك كليشيهات بِنْيَويّة تأتي بسبب تعوّدك على الشّفاهيّة. وهناك تكرار وحشو في كلّ سطر، من أجل إشباع الوزن. حروف عطف كثيرة، كلمات قديمة ..." أذهلتني قدرته على النّقد فسألته :

- هل تشجعني على المتابعة ؟

أجاب بحماسة ظاهرة :

- طبعاً! لا أريد قتل موهبة أخرى!

تساءلتُ "هل قتل مواهب أخرى قبلي؟" ولمّا لاحظ ارتباكي وصمتي قال :

- تعال عندي هذه الليلة، سوف نتحدّث مطوّلاً.

ذهبتُ إلى شقّته قبيل منتصف الليل. وجدته وحيداً يحتسي كؤوس النّبيذ. وحوله كومة من الصّحف المرميّة. رحّب بي ودعاني إلى الجلوس بقربه. كان التّلفاز يبثّ صوراً من دون صوت. تحدثنا مطوّلاً. كلاّ لم نتحدّث؛ لقد تكلّم وحده وهو يناولني كأساً من هنا، وسيجارة من هناك. استأذنت للخروج أكثر من مرّة "حتّى سيّارتك يمكن أن تُسرق!" قلت له. لكنه ظلّ يتكلّم وحده حتّى أغفى على مقعده. شعرتُ بالحرج وقرّرتُ الخروج. وفي تلك اللحظة وقع بصري على مقال، في صحيفة كان يقرأها قبل مجيئي. فُوجئتُ. نعم. كان المقال بتوقيعكَ أنتَ! أليس هذا اسمك ؟ نعم. هو ذا اسمك! وقرأت:

("تحوّلات مارس الجبّار

كلّما قيل "مات الشعر" ولد شاعر جديد في الأقاليم.

"في يوم ما حلّ ذلك الشاعر الوليد بالمركز. وليس المركز عاصمة للبلاد بالضّرورة، بل هو عاصمة مّا، للكتابة، وربمّا للألم، بتعبير بول إيلوار. وجد أمامه نواديَ وأمسيات شعريّة. وجد أمامه "دار الكاتب" وفرح بتحفة اسمها "بيت الشعر" و"التوصيات بالنشر" ... قبلَ ذلك ، وبعده، سمع عن قوافل تتجمّع في المكان "ميم"، وتنطلق في الساعة "سين"، باتجاه مدن وقرى... تجارتُها مثل تجارته: آبنوس وعاج وعشب وأرض وقلق وقطط وقمر، حرير وصوف وصوفية وخمرة ووجه حسن الخ.. . قال : متى يأتي دوري ؟ فجاءه دوره.

"لم تمض بضعة أشهر حتى أحسّ الشاعر الوليد بأنه ابن زمانه وسليل مكانه (عاصمة الألم) وكاد يسمّي نفسه "قصيد العام" . لكنّه جلس إلى شاعر أول، وثان، وثالث... وخرج بنتيجة

مكثفة في حوار بات يحفظه عن ظهر قلب: *(- : أَسْمِعْني آخر ما كتبت. - : آبنوس، عاج ، قلق، قطط ، وقمر، دمّرتني المدينة. -"ينقصه الكثير!" -:" دَعْ ألف زهرة تتفتّح!")*

"اقتنع الشّاعر الوليد وقال :"فعلاً ينقصني الكثير" "حتى جاء شهر مارس الجبّار. وهو قد لا يعرف لماذا يصف شهر مارس بـ"الجبّار" ... غير أنه بدأ يقترب من الكلمات الكبيرة؛ الكلمات التي تخرج من شغاف القلب فتحرق الشفتين، ثم تبرد على الورق.

"في مارس الجبّار، كان له حوارجديد مع شاعر آخر:*(- : لا تكتَب هكذا ...اكتبْ هكذا ...- : وما السّبب ؟- : اسمع كيف أكتب أنا!)*

"وقبل نهاية الشّهر، عاد الشّاعر الوليد، وقد كتب مثله تماماً. حمل أوراقه *(لم يعد قادراً على حفظ شعره، لأنه لم يعد شعره)* وقصد الشّاعر ، ليفرحه بتطوّره الجديد. وكانت عاصفة:"سارق! سارق! لصّ! متلاصّ!" قال الشاعر الذي لم يفقد صوابه، فبدأ يفقده. وحاول مجالسوه تهدئة جرحه:" اِهدأْ! إنه تناصّ!" فردّ :"التناصّ لا يكون إلا بين العمالقة!"

"وخرج الشاعر الوليد من المحفل مثل جرو مبلول.

"مرّت أشهر على هذا الكلام. وبموازاة"المعاناة الإبداعيّة"، عانت القصيدة الوليدة، و الشاعر الوليد، من"معاناة" أخرى، اجتماعيّة ونفسيّة وسياسيّة؛ تألّم للبوسنة والهرسك، والزّمن الرديء الذي ازداد رداءة بعد حرب الخليج والنّظام الفوضويّ الجديد... حتى جاءت المهرجانات!

"فوجئ بأن المهرجانات تُقصي الشعر لأنه ليس فرجة. فذهب إلى قريته المدينة، أو مدينته القرية، فوجدها تحتفل، هي الأخرى، بمهرجان الفقّوس، من دون شعر. ومدينته ترفضه كشاعر أصلاً، أو حتّى كإنسان لا يشعر. من هناك، من تخوم الشعر والكتابة، رأى عاصمة الألم كبيرة، على الأقلّ مقارنة بمدينته القرية.

"وفي الخريف تصوّف! بدأ يكتب شعراً صوفياً. وفي إحدى لحظات التجلّي والاستدراك الدائم، تساءل:"لِمَ أكتب شعراً سبقني إليه الأوّلون ؟ هل في ذلك ردّة ؟ هل هو هروب من انكسار شوكة العرب، إلى شوكتهم الأخرى، الحادة ، الواخزة، الضّاربة، الوازنة، الموزونة؟"

"فكتب قصيدة النّثر! عندما كتب قصيدة النّثرهاجمه شعراء التّفعيلة، العارية إلا من ضلوعها، واتّهموه بما يلي:"هل من باب المصادفة وحدها أنك كتبت قصيدتك المتصوّفة في الخريف، وعندما اقترب عيد ميلاد السيد المسيح ورأس"السنة الإدارية" كتبتَ قصيدة النثر؟" فذهل، وأراد أن يستدرك. لكنّه أجّل استدراكه إلى مناسبة أخرى. مع ذلك، مازالت تنتظره مفاجآت عديدة. فقد اقتنع بأن العصر عصر صورة. ولا بد لي من تلفزة. قال:"سوف أكتفي حتى بجهاز مستعمل")*.

×××

لم أكد أنتهي من قراءة المقال حتّى أفاق الشّاعر حمدي توفيق من غفوته. ابتسم لي وكأنّه يعتذر عن الإنقطاع المفاجئ للحوار. قلت له :

- كأنّ هذا المقال كُتب عنّي! هل تعرف صاحبه؟ أريد أن أراه!

لم يكترث للأمر، غير أنه أشعل سيجارة وقال :

- أريد أن أسمع شعراً . هل تكتب قصيدة النثر أيضاً؟

فقرأت:

ها أنذا، بعد رحيلها، جذع موحش
تأتيه الرِّياحُ بطَلْعٍ أخير؛
ميناءٌ يَؤُمُّه الإعصار
بحطامِ زورقٍ لا يحتاج إليه...

تَرَكْتُه نائماً وتسلّلت لحراسة سيّاراتي الرّابضة في الظّلام. اقتربت من المرسيدس البيضاء ووضعت يدي على جناحها الخلفي. كان مكتنزاً وناعماً، رطباً وبارداً...

أنا مَلِكَة مظلومة أنا مَلِك

ماذا تبقّى يا مريم؟

في آخر لقاء، أعقب ليلة الشّموع، وعصفَ بآخر ما تبقىّ بيننا. بَدَتْ لي مرحةً بعض الشيء، ولم أتمكّن من إدراك مدى تظاهرها بذلك النّوع من المرح. كان مرحاً نائياً عنّي، وكأنها تقول لي "اُنظرْ، لستُ كما تعتقد، لم ينته العالم حتّى الآن!" ذهبنا إلى شاطئ المرسى. وهناك قالت لي "الشمس في حقيبتي" وعندما أوصلتها إلى بيتها لم تفصح عن أية رغبة في استقبالي. وقبل ذلك طلبت منّي، ونحن نحاذي حديقة البلفدير، أن نذهب لمشاهدة البطّ. قالت : "أنا أيضاً أسبح كالبطّة!"

كيف تمّ اللقاء الأخير ؟

هي التي زارتني. ولم ينسحب عمر كعادته. امتدّت جلستنا الثّلاثيّة، فخفْتُ من احتمال تأرجحي على خيوط خفيّة تنسجها عيونهما(مريم تبدو بعيدة عنّي. عمر يتركني. قلبي يدقّ... أكرههما. أنا وحيد...) هل كانت مشاعري ناجمة عن غيرة في غير محلّها ؟ لذلك فرحتُ عندما لبّتْ دعوتي للخروج.

سألتني ونحن في طريقنا إلى البحر :

- ماذا تطلب في المرأة بالضّبط؟
- أنتِ!
- سألتكَ بجدّ...
- وأنا أيضاً أجبت بجدّ.
- وما الذي تراه جدّياً فيَّ؟
- مريم الأولى!
- يا حسرة!
- لماذا ؟
- ماذا تطلب منّي بالضّبط ؟

- الزّواج .

- هل أنتَ متأكّد ؟

- لا تطرحي مثل هذا السؤال!

حدّقَتْ فيَّ مثل مدرِّسة تحذّر تلميذها قبل أن تلجأ إلى معاقبته:

- اسمعْ ما يعني الزّواج: أيام أولى سعيدة، بحث عن مسكن، اكتشاف الرّتابة والعيوب، برود الجسد، التفكير في تجديد الأثاث وتربية الأطفال وتأمين العلاج... وينتهي ما كان بدايةً إلى تَرقُّبٍ للنّهاية. وهكذا يشرع الإنسان في مواجهة موته...

- أنت تبالغين! ألا يوجد قبس من فرح، في صُلْحٍ، أو في ولادة طفل؟

- لكنّك تخيفني يا جابر، أكثر من أيّ رجل آخر!

- عجباً! لماذا ؟ كنت أعتقد أنكِ أنتِ التي تخيفينني!

- ربما كان الأمر متبادلاً!

- ولماذا تجدينني مخيفاً أكثر من أيّ رجل آخر، كما قلتِ؟

- لأنك ممتلئ بفراغك؛ ولهذا يُفضّل أن نفترق!

- هل تقرّرين الأمور بمثل هذه البساطة ؟

- ليس القرار هو الصّعب إذا كانت خلفه أسباب قاتلة لكلّ شيء.

- كيف تتكلّمين هكذا ؟ أنتِ تتألّمين ولست تتكلّمين .

- آه...

- يَأسُكِ هو الذي يقودك، يجب أن تقهري اليأس!

- وهل تدّعي، أنتَ ، القدرة على ذلك ؟

- لِمَ لا ؟

- ما هي قدرتك؟ هل هي ضياعك في هذه المدينة ؟

- أرجوك: لا تتكلّمي هكذا!

- أواجهك بحقيقتك، يا جابر، هذا كلّ ما في الأمر.

- أهي حقيقتي أم حقيقتك ؟

- هل تعيّرني؟

(أحسست أنني خسرتها...أحسست أنني انزلقت...)

- لم أقصد ذلك.

- أنتَ شامت.

- كلاّ! أقسم لك!

- يجب أن نضع حدّاً للقاءاتنا.

- أرجوك يا مريم، لم أقصد إيذاءك.

صرت أحوم حول بيتها ولا أجرؤ. أدمنت التّجول في حديقة البطّ ومقهاها، وكأنني أنتظر رؤيتها مصادفة. لقد تركتها تبادر في كلّ شيء. ذهبت مريم ونسيت قميصاً أحمر شفّافاً عندي. وكان أن ترصّدتها يوماً كاملاً. ورأيتها تخرج من باب العمارة. خاطبتها بهدوء أقرب إلى الهمس هذه المرة: "مريم... جئت... قميص..." لكنها لم تلتفت ولم تجب إلا بكلمة واحدة: اِنْسَ...

ذهبت مريم وتركت قميصها ...

أوصد غرفتي. أتعرّى. أرتديه. أضربها فيه. أربطني بخيط رفيع، أمشي. أطلّ من النافذة. أخلع القميص الأحمر الشفّاف. أشدّه إلى سروال أزرق، خشن القماش. أملأ ما تبقّى من مريم بمخدّتي. أُمسك بلجام الشرّ حتى لا أقترفه. أناديها من الأبواب والنوافذ، عبر الجدران والشرفات. أنزل إلى القاع وحدي. أرى أرواح الموتى، أشباحهم. ولا أموت...

أنقذني مجيء ريم في زيارة مفاجئة؛ قالت في نبرة أسى :

- تركني ذلك الموظّف الكلب!

ارتميتُ عليها فابتسمتْ بمرارة:

- جابر! ماذا أصابك؟ ألم نتّفق على البقاء صديقين ؟

أهرب إليها. أبحث فيها، فلا أجد إلا طعم الفراغ. هل جاءت مثلي، تبحث عنها في ؟ لم أجدها، لم تجدني، لم نجدنا. كان قلبها محطّماً في حقيبة موظّفها، وقلبي في حقيبة مريم. أقتربُ بلا قلب، فأرى امرأة لا تراني. تشتكي لي من صديقها :

- الخائن!

تستلقي على فراشي .

- ليس رجلاً .

تمدّدتُ إلى جانبها .

- آخر ما كنتُ أتوقّعه أن يُلقى عليه القبض متلبساً في شبكة زنا.

مالت بجسمها صوب الحائط .

- النّذل!

قلت في نفسي " أكفّ عن سماعها" ملْتُ بدوري واحتضنتها من الخلف. مررت يدي على صدرها، على بطنها، على الأزرار. لا تستَجيب لكنها لا تعترض أيضاً. تتكلّم فقط وأنا لا أسمعها. ساعدتني بساقيها. أراها كتلتي المبهمة. شجرتي. أتسلق شجرتي صامتة. أتكلم وحدي. أناديها وهي كتلة لا تتشكّل. لا اسم لها. لا اسم لي. لا أرى. لا أرتقي. لا أسمّي. أنا الشجرة وهي لا تتسلّقني. هي الشجرة وأنا أتسلّقها. هي ليست شجرة. ليست اسماً. أنا لستُ لأتسلّق. هي ليست. مكامن لنارٍ هادئة . أبدأ ولا أنتهي. توافق لكنها تتكلم "شماتة فيه!" أبدأ ولا أستطيع. أعيد. "غابت الَشمس!" أصنع مركزاً لذاتي. هنا قوّة مضغوطة. نار. عصارة. لكنها "أوف!" كتلة مغلقة . لوزة. جوزة. شماتة. لم يبق إلا... ودوني الفتيل، الصاعق. تشتكي.

تتركني. تراه، تحدّثه، شماتة، أنساه. أنساني. "حلّ الليل!"

- مازلتُ عذراء... لم أتركه! يكفي الآن!

الآن!

ذهبتُ إلى الحمّام. مزّقتُ الهواء بسهمٍ، والأرضَ بنَيْزَكٍ .

كلّ ما فعلَتْه، عندما استبْطأتْني، هو الالتحاق بي حتى باب الحمّام. سألتني :

- ما بك ؟

أجبت :

- الآن، لا شيء!

تخلّت عنّي مريم، تخلّت عنّي ريم، تخلّى عنّي عمر. تخلّى عنّي أبي. قالت لي أمّي: "ولدتُك في الحقل أمام عيني بومة " تخلّت عنّي الحياة. أتألّم. ينبغي أن يدفعوا الثّمن. أنا نسيم خفيف على سطح الماء؛ صورة فيها الأرض والسّماء؛ فيها غزالة. أغضب عليهم جميعاً. أمزّق الصّورة. أترك الدّموع تغمر عينيّ. لكنني أخافكم. أخدعكم حتّى لا تخدعوني. أنا ملكة مظلومة. أنا ملك. أنا الواحد؛ الفحل، الفرد، المبتدأ. أنا الاثنان؛ الظلمة والنور، المرأة والرجل. الحبّ والحقد. أنا ثالثهما حتى أكتمل، حتى أشتعل. يكتمل المثلّث. تدقّ دقّات المسرح الثّلاث: والآن إليكم مسرحيّة "مريم والشّموع ". أعدّ إلى الثلاثة كي أبدأ: أطرق باب الفرح وأتركه. أطرق باب الألم وأتركه. أطرق باب الرّماد وأبدأ من جديد. أبدأ بماذا؟ بالبحث عن مسكن آخر، بعيداً عن وصاية عمر.

لذلك اِبتكَرْتُ حِيَلاً

هل أكره البحر لأنّني جبليّ النشأة ؟

ومع ذلك سكنتُ قبالة البحر، في ضاحية حلق الوادي.

أتلصّص على عمر وأقتفي خطواته علّه يقودني إلى مريم. لكنّه يقودني إلى البحر. أكره البحر. رمل وملح. وحتّى بريق فخذ امرأة، من فرجة نافذة، أشهى من ألف امرأة عارية على الشاطئ. فهل هي الشمس التي تشرق على الجميع، فتؤاخي بينهم، وتجعل كلّ شيء يسترخي إلا العين التي تختزن ما يحبل به ضوء النهار ؟

أقتفي خطى عمر فأضيع .

تلوح لي فكرة: لماذا لا أقتفي خطى ذلك المواطن؟ الوقت صباح. إنه يمشي. أمشي وراءه. يرتدي بدلة ويضع ربطة عنق. يبدو أنّه سيلتحق بعمله. كلاّ، ذهب إلى الحافلة. أفعل مثله. لم يجد مقعداً. ظلّ واقفاً. يطلّ من النّافذة؛ أفعل مثله. أراه ولا يراني. يقترب من الباب؛ اقترب. ينزل من الحافلة؛ أنزل. عرفتُ مكان عمله؛ سأنتظره. كلاّ سوف أعود إليه، مرّة أخرى، كي أرافقه، في الاتجّاه المعاكس، نحو البيت.

ماذا أفعل الآن ؟

تلك المرأة تتعثّر مثل إوزّة. أمشي وراءها. تتوقّف أمام واجهة؛ أتوقّف. تواصل المشي. تتوقّف. تلتفت يمنة ويسرة. تعدّل من وضع سروالها الذي انحشر في فلقتها. تقصد السّوق.

تشتري خضاراً ؛ لا أشتري . أتفرّج، أرى ، أسمع، أشمّ ، ألمس. أدخّن سيجارة. امتلأت سلّتها. أنوي مساعدتها على حمل السلّة؛ أفعل ولا أحمل السلّة. أمشي وراءها ولا أساعدها.تمشي مائلة. تستوقف سيّارة أجرة؛ أتركها.

ماذا أفعل الآن ؟

ذلك الشّيخ الأعرج. أمشي وراءه ؛ تؤلمني ساقي، أتركه.

لا أتوصّل إلى النسيان.

أعود إلى زيارة البيت الأول. أجد عمر حزيناً؛ لعلّه خسر صفقة أخرى. يسكت طويلاً ثم يسألني عن مريم، أقول " لا شيء" . يعود إلى السّؤال :

- هل تخاصَمْتُما ؟
- لا شيء. تريد شمعة أخرى.
- ماذا ؟
- تريد الانتقام .
- ممّنْ ؟
- من زوجها .
- لماذا ؟
- لأنها جريحة .
- اكتشفتْ أنه يخونها ، أليس كذلك ؟
- نعم .
- وأنت؛ ألم يكن ظهورك في الوقت المناسب؟
- كان...
- استخدمَتْكَ إذاً، للانتقام من زوجها ؟
- بل من أزواجها.
- لماذا، من أزواجها ؟ كم مرّة تزوّجت ؟
- مرّة واحدة .
- والبقيّة ؟
- بحث عن المرّة الأولى .
- وهل ستظلّ هكذا ؟
- لست أدري .
- هل طرحْتَ عليها الزّواج ؟
- عندئذ تركتْني .
- وهل كان طلبُك الزواج منها هو السبب ؟

- تلك هي النقطة التي تريد بلوغَها .

- النّقطة ؟

- أن تجعلك تحبّها، وتهيم بها، ثم تتركك.

- لماذا ؟

- لكي تستعيد روحها .

- من أين ؟

- من جرحها الأوّل .

- تقصد من زوجها ؟

- من حطام زوجها .

- مات ؟

- مات في الحياة .

- لو لم تطرح عليها الزواج ؟

- لا فرق؛ كل شيء لا بدّ أن ينتهي .

- لماذا ؟

- من أجل بداية جديدة .

- تقصد ...

- الإمعان في الرّكض وراء المستحيل .

- حتّى الموت ؟

- موت الآخرين أولاً .

- كيف ؟

- موزَّعين في موتها .

- يا إلهي! كيف توصّلتَ إلى فهمها هكذا ؟

- مستيقظاً في الليل، من أجل الحراسة، سهرت في النهار، يا عمر، مشيت ساهراً، نمت ساهراً، أفقت ساهراً. حتّى أنتَ، اقتفيت كلّ خطوة من خطواتك، راقبتُ كلّ حركة من حركاتك، حتى صرتُ تفاصيلك. شككت أنها تركتْني إليك!

- هل أعمتك الغيرة إلى هذه الدّرجة ؟

- لا أعرف؛ كرهتُك يا عمر.

- والآن ؟

- الآن استرحت!

- لماذا لا تعود إلى السّكنى معي؟ عليك أن تنساها يا رجل. الشّوارع ملأى بالنّساء! متى تعود لتسكن هنا ؟

- انسَ هذا الموضوع ؛ تلك صفحة طُوِيَتْ.

كيف فضّلت مريم ذلك الحلّ ؟ كيف تورّطتْ فيه ؟ قالت إننا متشابهان. سألتها : "ما رأيك في الزّواج ثانية ؟" قالت: "مستحيل!" حاولتُ اللّجوء إلى استثارة غيرتها؛ أخبرتها بأنّ لي علاقة بامرأة أخرى. سألتني: " هل ستتزوّجها ؟" أكّدت لها ذلك. ردَّتْ بمكر : "تحدَّث الآن كما تريد، سوف تندم غداً، وتتذكّرني!" أردتُ طعن غرورها: "وهل نصَّبْتِ نفسك ميزاناً للآخرين؟" سكتتْ.

أعود إلى التسكّع وحدي. أبحث عن وجهي الهارب. أعود إلى مراقبة مواطنيَّ. تلك المرأة الحامل! في بطنها جنين لم يأت بعد ليفكر في صعوبة هذه المدينة ، ويقول "جئت لألعب قليلا، ثم أدرس، وأبحث عن عمل، وأتزوّج، وربما أطلّق، أو أموت مبكرا، أو أرتكب أفعالاً متهوّرة." أتركه في بطن أمّه .

أبحث عن مواطن آخر. أعطيه رقماً. أقف أمام بيته. أنتظر خروجه. ثم أبحث عن اسمه من خلال عنوانه في دليل الهاتف. كيف أتوصّل إلى ذلك، وأقول له أعرف اسمك أيها المواطن. وأنت أيّهذا الذي لا أعرف اسمك، سيأتي دورك. سوف تجدني ألاحقك. ألاحقني لأراك. وقد يصير رقمك عندي هو 3333.

أنتَ! نعم أنتَ !لماذا، عندما يصل المترو، تسرع إلى الباب. تدفع الآخرين. تدخل بسرعة، تجهّز مؤخرتك في وضع إقعاءٍ جزئيّ، تفتّش بها، في حركة دائريّة قافزة، عن أوّل مقعد شاغر تَرَاهُ مؤخّرتك قبلك. تجلس هي بينما ترفع أنت رأسك نحو الداخلين والواقفين، فرِحاً، ظافراً، لأن قاعدتك أقعدتك قبل غيرك.

المدينة... مغص. مواطن يسعى من الريف. ينسى أخلاق القرية ولا يدرك أخلاق الضّغط. موظّف مشمئزّ الوجه "ارجعْ غدوة!" رشوة. مواطن تسبقه تذكرته.يقطعها ثم يسير وراءها:" عمّرْ لي يا ولدي ماندة!" يقود سيّارته بعكس السّير أمام السّوق البلديّة. يعرقل طابور السّيارات " يا أخي ما نقضيش؟" يسرق معطفاً "واللّه كنت بردان!" يركب معك في مقعدك " أنا أيضاً دفعت مثلك!" واحد يمشي ولا يقع. كلّ الماكنات تعمل ولا وجود لبشر. لذلك ابتكرتُ حيلاً .

أقف وحدي في صفّ أتخيّله. أدفع بالغائبين المتزاحمين حولي. أصيح فيهم: احترموا الدّور! احترموا الدّور! وأتقدّم وحدي .

قبل دخول الدّوائر الرّسميّة أسلّم على الحارس، وإذا لم أجده أسلّم على الباب.

أوقف " تاكسي " وهميّة وأمتطيها إلى حيث أشاء من دون أن أدفع.

أكذب على من يكذب عليَّ ويقول " عُدْ غداً" فلا أعود إلا بعد الغد.

أستخرج أوراقي بتقطّع، يوماً في الشّهر، وأعود متعباً كلّ يوم.

كلّ الذين ماتوا غادروا الدّنيا وتركوا أوراقهم وأسماءهم.

العمر أوراق رسميّة؛ أما أوراق الدّفن فهي على حساب الأحياء.

أمشي في الشّوارع وأبحث عنكَ(أنتَ، نعم أنت، قُلْ " أنا" لتعرف أنني أعنيك أنت) سوف أقتفي خطواتك.

أمشي. أمشي. أمشي... حتى يحلّ اللّيل وأذهب إلى حراسة سيّاراتي. أداعب كَفَل الفولكسفاغن، عيني البيجو، جبين الفيات، خاصرة الأودي، فخذ المرسيدس... حتى يحلّ الصّباح.

تركت مواطني رقم 863 يذهب في حال سبيله. نزلت من نهج جامع الزيتونة إلى قوس باب البحر. رأيت عيونا تراقبني:

- "ها هو ذا جابر!"

- "انظروا إلى جابر الطّرودي ولد منّانة!"

- "شوفوا شعره! شوفوا عينيه!"

- "مسكين، ضائع، مجنون!"

- " يا ربّ استرْ!"

أجوب شوارع أخرى وأقول: قدري أن أجوبها لأنّ امرأةً سبقتني إليها وتركت عليها آثار خطاها... امرأة هربت منّي وفي حقيبتها الشّمس.

عَمّك الفرجاني لا يصدّق هذه الأمور بسهولة

حَلْق الوادي، ضاحية تعرّيني أكثر. ليس لأنّ فيها بحراً، بل لأنّ النّاس يراقبونني كثيراً، هنا. لا أتوصّل إلى إدراك أسباب هذه الرّيبة التي لُسْتَقْبَلُ بها. الأطفال ينظرون إليَّ من بعيد ويهمسون. النّساء يحدّقن ثم يتمتمن بكلمات غامضة. كلّ ما هنالك أنني وجدتُ منزلاً رخيص الأجرة بشكل لا يصدّق؛ "فيللا" قديمة واسعة، وسط حديقة تنمو فيها أشجار مهملة ونباتات طفيليّة، يعود بناؤها إلى أيّام الفرنسيّين. طفل واحد تشجّع ، بعد بضعة أسابيع، وأخبرني :

- عمّي، أنت لا تخاف ؟

- لماذا تسأل هذا السؤال ؟

- لأنّ بيتك مسكون!

- مسكون ؟

- نعم، مسكون بالجنّ!

- ومن أخبرك بذلك ؟

- كلّ الناس يعرفون، وكلّ من يسكنه يتركه بعد وقت قصير.

وعندما سألت صاحب الدّكان المجاور، عدَّد لي سلسلة من الأحداث تحت عنوان واحد هو: يقال...

- يقال إنّ تلك الفيللا القديمة مسكونة فعلاً. ثمة أصوات في اللّيل وتحرّكات لا مرئيّة مشبوهة...يقال إنّ المستوطن الفرنسي الذي بناها جعل لها سقفاً مزدوجاً...يقال إنه قتل عشيقته التي خانته مع ضابط فرنسي، ودفنها في السّقف... يقال إنّ هذا هو السّبب في سماكة السّقف، تأكّدْ بنفسك...يقال إنّ البيت ليس مسكوناً بالجان، بل هي روح تلك العشيقة الفرنسية تحوم في البيت مع هبوط الليل...آخر عائلة غادرت تلك الفيللا كان لها طفل هزيل السّاقين... يقال إنه بات عاجزاً عن النموّ والمشي بسبب حالات الرّعب والفزع... يقال إنّ تلك المرأة الشّبح جعلته محور تحرّكاتها في الليل... ألم تلاحظ رخص أجرة الفيللا مقارنة بمثيلاتها في الضّاحية كلّها، حتى وإن كانت قديمة؟ ذلك أنّ كلّ من يعرف السرّ يرفض السّكن فيها، وإذا تورّط فيها، من دون علم،

فإنه سرعان ما يكتشف السرّ ويغادر... حدث هذا لمستأجرين كثيرين رأيتهم يغادرون بعينيَّ هاتينْ، وعرفت الأسباب منهم مباشرة مع أنّ عمّك الفرجاني لا يصدّق مثل هذه الأمور بسهولة!"

تعليق عُمَر فيما بعد: "هذا البيت يدخل في اختصاصك تماماً!"

أمّا أنا فقد فكّرت في الاتّصال بصاحبة البيت، وهي أرملة خمسينيّة متصابية، لكنني أجّلت الأمر إلى آخر الشّهر عندما تأتي لتقبض أجرتها.

صارت المسافة بين عملي، حارساً في المنزه السادس، وسكني في حلق الوادي، طويلة جدّاً، وتتطلّب ركوب القطار والحافلة. غير أنّ الشاعر حمدي توفيق بشّرني بفرصة للعمل نادلاً في دار الكاتب. أخبرني بأنّه طرح الموضوع على الإدارة الجديدة فوافقت بشرط أن لا أتدخّل في شؤون الكتّاب وأن لا أجالسهم، وأضاف:

- معهم حقّ! لم أترك أحداً من دون أن أحدّثه عنك. كلّ الشّعراء والكتّاب الذين أجالسهم صاروا يعرفونك بالاسم، ويستغربون: حارس ليليّ يكتب الشّعر الملحون، وعنده محاولات في الشّعر الفصيح، ويدمن المطالعة، وأكثر من ذلك، قلت للقصّاصين والروائيين إنّه مصدر إلهام لا ينضب بالنسبة إليكم!"

كنت أتصوّر دار الكاتب أجمل بكثير مما هي عليه، فوجدت داري أجمل. وليست دار الكاتب سوى علبة ذات غرف ضيّقة تغصّ بالكتّاب والدّخان والضّجيج والأمزجة المحاصرة. موائد تغتاب موائد. مقاعد تنمّ على كلّ مقعد فارغ، أو سيفرغ. حُبّ وقبلات متبادلة في أوج الشّرب مع شِعر ينتهي أحيانا بكوابيس عضليّة تنقصها الرّاقصات.

قبل أن أتعرّف على دار الكاتب، خلال تجوالي الدّائم، كنت أتخيّلها في مكان بعيد عن وسط العاصمة وضجيجها وأسواقها وسيّاراتها... تصوّرتُها فيللا واسعة من الطراز الكولونيالي، تحيط بها الأشجار، ويترقرق فيها الماء من نافورة رخاميّة تنعكس في بركتها النّجوم... والقمر، بينما الشّعراء والكُتّاب، تحت هذه النّخلة، أو قرب تلك الصّنوبرة، يتناقشون ويقرأون ويحلمون... ويجاملون شاعرة واحدة تجالسهم وهي تشعر بالابتهاج والرّاحة، وبرعشة قصيدة قادمة...

لم تنقضِ أيام قليلة حتّى بدأوا بإحراجي مع نفسي ومع الإدارة. ففي لحظات التجلّي ينسون العاصمةَ والنّقاش والطّباعة، ومشاكل حياتهم اليوميّة، ويصيحون بي :

" هيّا يا جابر أسمعنا!"

" قصائدك عن مريم أفضل من الشّعر التّونسي كلّه!"

" تعال اشرب كأساً وشنّف آذاننا!"

عندئذ أتملّص متهرّبا أومجاملاً، مدركاً أنني سأفقد شغلي الجديد عمّا قريب. وهو ما حدث فعلاً، لكن بعد بضعة أشهر، ومع الظهور المفاجئ للقزم سهلون!

قبل ذلك استفدت كثيراً من عملي. وكنت لا أجالسهم بقدر استماعي إلى حواراتهم، وإنْ بأشكال متقطّعة، ومتقاطعة. بتّ أعرف تفاصيل علاقة هذا بذاك، في حضوره وفي غيابه. وأعرف أخبار هذه؛ الحاضرة، وأسرار تلك؛ الغائبة. وأتساءل أحياناً: ماذا لو تسمح لي الإدارة بتعليق نشرة يوميّة على الجدار ألخّص فيها كلّ ما جرى البارحة؟ ماذا لو أعمد إلى ربط عشوائي بين كلّ الموائد وحواراتها وقراءاتها؟ ماذا لو أحصي، كلّ ليلة، عدد الشتائم وعدد القبلات؟ ماذا لو أجمع أفضل الطّرائف، وأرصد لدى كلّ واحد كلمته المفضّلة أو جملته الأثيرة التي تلازمه مثل مفتاح بيته ؟ لكنّني أكتفي بالاستماع والمجاملة. وأفرح بالكتب التي تصدر لهم ويقدّمون لي

نسخاً منها، مع إهداءات حميمة.

ذات مرّة سمعتُ أحدهم يردّد اسمك: "لاشك أنه هو!" قلت؛ "طفلي الذي تبنّيته، وعلمته ذات يوم، صار يكتب روايات!" سألت عنك، عن عنوانك، عن زياراتك النادرة، ثم المنعدمة، لدار الكاتب.

وأخيراً تمّ اللقاء بيننا. لاشكّ أنك مازلت تتذكّر ذلك اليوم. لم تتفاعل في البداية. لم تفرح كثيراً. كنتَ أهدأ مما يجب. شعرتُ بالخيبة. وقلت في نفسي: "لعلّه فَقَدَ تلقائيّته الأولى، وصار من ذلك الصّنف الذي يمتصّ أيَّ حدث مفاجئ، ولا يأتي ردّ فعله إلا متأخّرا؟" وهذا ما تأكّدت منه لاحقاً؛ ألستَ كذلك؟

فاجأني شعرك المبيضّ مبكّرا. فاجأتني لهجتك، بل لهجاتك المختلطة. وأكثر من كلّ ذلك، فاجأني هدوؤك الذي أدركتُ أنه يحجب أعاصير مكبوتة. من يصدّق؟ أنت طفل المزرعة (ريش البطّة! قاهر القزم ذي المقصّ!)(×) هل جرَّتكَ أحداث الدّنيا إلى نتائج معكوسة، تماماً كما في الحلم؟

(×) إحالة إلى رواية " شمس القراميد" للمؤلف؛ وسوف يتكرر ذلك في السياق.

قزم فالت في المدينة

أين كنتُ يا ترى ؟

هـايْ! أنتَ، يا مواطني! لقد عدتُ إلى ملاحقتك. عرفت اسمك وعنوانك، بوسيلة أخرى. صارت لديّ ألف وسيلة. خرجتَ من بيتك وسعلتَ سعلتين. أعطيتك الرقم 890 . لابدّ لكل جسم من رقم. لاشك أنك تسعل بسبب التّدخين. أتبدأ بالتّدخين منذ الصّباح؟ ما أطيب خلقك هادئا في الصّباح. تقول لكلّ عابر: صباح الخير! ماذا لَوْ جاءك ذلك العابر إلى مكتبك، هكذا، نكرة، من دون معرفة سابقة؛ يسعى إليك تسبقه أوراقه ويسكنه صبره أو ذلّه؟ اسمعْ! لستُ أتركك الآن لأنك امتطيت حافلة بعيدة الاتجاه . كلاّ! ليكنْ في علمك ، وأنت لا تعلم، أنني أنا الذي أراك ولا تراني أراك. لا أتركك الآن، بل... سيارة... آ
ي... ي... ي...

....
.... نفق طويل أحلّق فوق جسمي. لقد متُّ إذاً... بعد أن صدمتني تلك السيارة... لكنّ خيطاً مازال يربطني إلى جسمي. أنا هنا وأراه. أراهم أيضاً يتحرّكون حوله. أتركهم وأذهب. عتمة خفيفة ثم يلوح ضوء بعيد. أستعيد شريط الماضي. أراني أركض، ألعب: كاف الحجر، الحقول، النهر، أمي، مريم، هنااااك ... ماذا فعلتُ ؟ لا أريد العودة . أُسرعُ. نور يجذبني. أتقدم مُدَوِّماً بسرعة فائقة. أفرح. لي قدرة على الحبّ. النّور! النّور يتدفّق من كلّ اتجّاه! يمحو الظّلال، يقشّر الألوان، يلغي الأجسام، يغيّب كلّ حضور عداه، لا مادة إلاّ النّور، ولا مكان إلا الهُنَا. لا إيقاع إلاّ للجوهر؛ حضور لا نهائيّ لوجود مرئي. الصّمت يتكلّم أخيراً. الباطن هو الظّاهر. الظّاهر هو الباطن. الضّوء حاضر. لم يعد يتحرّك متدفّقا. صار هو النّبع، متخلّصاً ممّا سبق وممّا لحق؛ النّبع الذي تحرّك، ذات يوم موغل في القدم، من أجل تعاقب الخليقة. أنا فيه، وهو في جوهر الكون.

يتقدّمون. يبتسمون. أعرفهم. هذا أبي يبتسم.

- أنا جدّتك وكان هذا جدّك ، ألم تعرفنا ؟

أبي يبتسم ولا يلومني على شيء. يكلّمني. لا يكلّمني. يسكت ويكلّمني. هناك ما يتكلّم فيه. هناك ما يتكلّم في داخلي! نتحدّث ولا نتكلّم . قلتُ في نفسه:

- أنا أيضاً فَرِح مثلك!

أمسك بي من يدي :

- هذا صاحبك العينوس! هل اشتقت إلى صاحبك العينوس ؟

ابتسم العينوس :

- آه ، أيام طفولتك كنتَ تعيش في الجغرافيا. انظر الآن إلى أرض النّور بلا زمن! كنتَ تظن العين مجرد عضو منفصل ؟ من قال إنك ترى بعينيك فقط ؟ انظرْ إلى النور كيف يفتح روحك للصّور .

أحسست بأنه مازال يتكلّمني في نفسي ؛ قالني :

- هل كنت تشك أن مجرّد وجود العالم الذي كنتَ فيه، لا يفترض إمكانية وجود عالم آخرممكن الوجود؟ هيّا بنا إليهم...

لا حاجة إلى الذهاب. لقد جاؤوا: قمر! ياقوتة! شامة! حتّى القطوس يبتسم هنا! يقترب

منّي أبي. يتكلّمني :

- هيّا! هيّا!

نتوغّل في النّور يتوغّل فينا. ماذا بعد النّور ؟ لا أحد يبتعد عن الآخر. أذكرهم كلّهم. أراهم كلّهم. نتجاور. نتكلّم كما نشاء. نرى كما نريد. قال أبي في داخلي :

- قد تكون لك أربع عيون.

- هل أخذتُ عينيْ أخي ؟

- ليس لك أخٌ واحدٌ ، هنا، كلّنا إخوة .

- هل تكفّ هنا عن كونك أبي ؟

- أنا كما تشاء ، لكن لا أحد أكبر من الآخر .

- حتّى العينوس ؟

اقترب العينوس من نفسي :

- بدأْتَ تختلط في تلك الدّنيا. كنتَ مقبلاً على اضطراب.

- نعم .

- لكنك مازلت هناك، لستَ بيننا الآن .

- أنا أراكم وأحدّثكم. أين أنتم الآن ؟ أين نحن ؟

- نحن في البرزخ. نحن الآن في عالم واحد. هناك، في الدّنيا، كان لكلّ شخص عالمه، لأنّكم نائمون، تحلمون...

- لماذا نتكلّم هكذا ؟

- لا حاجة للكلام. ألا تسمعني هكذا ؟

- نعم. أحسّ بأنني أقولك وتقولني. ما الذي يتكلم بيننا ؟ هل هو النّور ؟

- مازلت تسأل هذه الأسئلة إذاً ؟

- أنت تخبرني...أنت تطلب منّي...

- مازلتَ ترى جسدك ؟ أتراهم يتحلّقون حول جسدك ؟

- ما أبعدهم! ما أصغرهم!

- إنهم يحلمون. لم يبلغوا اليقظة بعد. لكنك تراهم ، إذاً سوف تعود.

- كيف ؟

- تسأل كيف؟ ستعود إذًا. انتبه إلى قرينك. لم يعد لك قرين واحد. انتبه إلى قُرَنائِك إذا عدتَ.

- من ؟

- أنت تختلط، هناك. ولم تأت تماماً إلى هنا. قد يكون ذلك بسبب تلك المرأة ...

- مريم ؟ مازلت تذكر مريم ؟

-لكنك لم تحافظ على شخصيّة واحدة متّزنة. هوذا أبوك سعيد ...

دنا منّي أبي وتكلّم فيَّ:

- آه! منذ صغره في الجغرافيا كان هكذا. كان عليك أن تمرض يا بني حتّى يخرج الاضطراب الكبير. إنْ لم تمرض حتّى الآن، وأنت هناك، فمعنى ذلك أن مرضك سوف ينتقل إلى عقلك. أخْبِرْهُ يا عينوس...

- نعم، ستختلط ويصير مرضك إلى الدّماغ.

- ما الحلّ ؟

- كيف تسأل عن مرض سيصيبك هناك ؟ أنت مازلت هناك إذًا. نحن لا نفكّر في هذه الأعراض الفانية. اِسألْ أباك ...

- آه! دعه يا عينوس. هو لم يأتِ كلّيّاً!

- ما معنى ذلك يا أبي ؟

- مازلتَ هناك. مازلت تحاذي تعاقب الموت في عالمكم .

- أين قمر ؟

- أنا قمر!

- ياه! لماذا لا تسرعين إليَّ ؟

- وهل أراك جئتَ ؟

- أنتِ تتكلّمين في نفسي. وجهك مشرق الآن؛ أنتِ أيضا في البرزخ؟

- نعم كنتُ في حلم عميق رأيتَه أنتَ .

- لكنْ عندما رأيتك، عندما رأيتك ، أين كنتِ؟

- أين كنتُ ؟

- نعم؛ ألم أقابلك في الخان، في أرض العينوس ؟ هل تذكرين الخان، وبركة الصبّار، والقطوس؟

- نعم؛ تدخل القطوس وأضاف: قبل مجيئك رأيتُ شخصاً اسمه جابر سيجيء.

- إذاً، أنتم مازلتم تحلمون ؟

- لماذا الحلم إذا كان هناك من يحلم بنا ؟ قال القطوس .

- نحن في حلم دائم ، قالت قمر .

- لذلك لا نحلم ، قال أبي.

- وتعيشون ...

- نحن نعيش وأنتم تحلمون بنا .

- نستطيع أن نعيش ونراقبكم ، قال رجل آخر .

- ما اسمك أنت ؟

- ماذا ؟

- سألتُك عن اسمك ...

- تسأل عن اسمي ؟ أنت لست من هنا ...

- لماذا ؟

- لأنك تسأل عن أشياء عارضة.

- كيف أعرف مَنْ أنتَ ؟

- أنا أنا .

- يا أبي كيف أفهم ؟

- نحن لسنا في حاجة إلى وسائل الآن...

- ماذا تقصد بالوسائل يا أبي ؟

- الاسم...الجسم....الرسم...

- والأوراق الرسمية أيضاً؟

- هاها...تعال إلى النّبع. لم تأت بعد. نعيش هنا ونراقبكم حتّى في أحلامكم. هي أقرب ما فيكم إلينا. أخبره يا عينوس!

- مازال يجهل الكثير!

-إلى أين ذهبت ياقوتة يا عينوس ...

- كانت عندكم!

- ماذا ؟

- لها حفيدة تحبّها كثيراً .

- هنا ؟

- بل هناك .

- لكنّها كانت طفلة .

- طفلة ؟ لم تأت طفلة إلى هنا. الزّمن يتدفّق عندكم. أما هنا فنحن في النّبع .

- أيْ خارج الزّمن ؟

- في البرزخ .

- سألتك عن ياقوتة ...

- لها حفيدة عندكم، تحبّها كثيراً وتراقبها .

- وتراها من هنا ؟

- والحفيدة تحلم بها من هناك .

- كيف ترى ياقوتة حفيدتها ؟

- أنت تسأل ... أنت تسأل ... لم تأت كلّياً إذاً... لقد رأتها تسقط من الطّابق الرّابع...

- ماذا ؟

- نعم، أسرعتْ ياقوتة وأحدثتْ بلبلة في النّور ثم عادت .

- وما معنى ذلك ؟

- وهناك استغربوا ...

- هناك ؟ أين ؟

- عندكم ، في الأرض التي يتناوب عليها الضّوء والظّلام .

- وماذا استغربوا ؟

- تساءلوا كيف تسقط بنيّة من الطابق الرّابع ولا تتهشّم عظامها!

- وكيف حصل ذلك فعلاً ؟

- أسرعتْ ياقوتة إلى حفيدتها ثم عادت إلينا فهدأ النّور. عرفنا أنها عادت إلينا لمّا هدأ النّور. لقد سبقته!

- النّور يتحرّك ؟

- هنا كان العالم قبل أن يصير ...

.....

..... الحركة تتملّكني مرة أخرى. كلاّ ، بل هي السرعة. السرعة تعود وتأخذني. لا أريد البقاء هنا. هل أعود ؟ أتذكر حياتي الماضية. كانت من ألمٍ لا وجود له هنا. فلماذا أعود؟ من ينادينـي؟ في تلك الزّاوية المعتمة...هناك...من... ينادينـي.....

.....

- سهلون ؟ أنت سهلون ؟

- نحن على مائدة الزمرّد! ألم تعرفها ؟

- من ؟

- هذه جانيت!

- اسمها جانيت ؟

- نعم جانيت .

- وماذا تفعلان ؟

- نحن نجلس إلى مائدة الزمرّد. عليك أن تنتظر؛ المادّة جاهزة للتّحويل.

- المادّة ؟

- هو ذا المصهر فوق النّار، قالت جانيت .

- انتظرْ حتى ترتفع الحرارة، قال سهلون .

- ماذا تفعل مع جانيت ؟

- انفصلت الكتلة أخيراً ؛ ها هي ذي العناصر الأوّليّة .

- ماذا تفعل مع جانيت ... سألتك

- مازالتْ تائهة بين العناصر .

- العناصر ؟

- العناصر الأولى لا ترتاح في الضوء ...

- وأنت يا سهلون ؟

- أنا أيضاً. وأنت؛ انظرْ : التّراب في القاع ازداد سواداً وكثافة وثقلاً. أما الهواء فقد أفلت؛ هل لاحظت هذه الأبخرة ؟

- إنها سوداء ، رماديّة ، بيضاء ، قالت جانيت .

- وملوّنة أحياناً ، قال سهلون، هذا بسبب الوعاء . لقد بدأ الماء بالغليان ...

- انتظرْ حتّى تندلع النّار في الكتلة الأوّليّة ، قالت جانيت .

- ماذا تقصدان بالكتلة الأوليّة ؟

- المادّة، قال سهلون، ستتحوّل إلى غاز مشتغل .

- آه! لقد تحقّقت المعجزة! قالت جانيت، انظرْ إلى هذه الشعلة الخلاّبة!

- وماذا بعد ؟

- هي التي سوف تقودنا إليك!

- إليَّ ؟

- جانيت مازالت هناك عالقة، أنا مازلت هناك... ها ها... يدي تسوقني إلى القريب، أنفي يسوقني إلى البعيد ، ولا أحد يراني .

- مَن الذي يتكلّم إذاً ؟

- ضَعْ أذنيك في قدميك ، وعينيك في يديك!

- سهلون ؟

- جئتَ قبل أن تموت.وأنا هنا لأذكّرك بأنّك ستعود لتعيش خلف دفعات الموت...حتّى النّور الذي رأيته ولم تعشه.أفضل ما تملأ به موتك هو العيش والشّيخوخة.تكلّمي فيه يا جانيت!

- " أنا جابر الطّرودي، انتقلتُ قديماً من ادّعاء العلم إلى آداب المعبر والسّيَر الشّعبيّة، ومن المرحلة الباطنيّة إلى إغراء البوح والكذب ..."

- إلى أين هو ذاهب يا سهلون ؟

- ذاهب إلى عينيْه ، إلى صُوَرٍ تصير واقعاً يراه، إلى حاضر يصير ماضياً...

- وهل سيبقى كما هو ؟

- أنتَ منذ الآن لست واحداً. أنت تتعاقب في صورك الزّائلة. مازلتَ تتطوّر نحونا، بهذه الأعراض. صرتَ وجوهاً. أنت منذ الآن لا ترى. أما غيابك فيأتي من تفشّيك في وجوه هاربة.

- هل هو خائف يا سهلون ؟
- عينه صندوق أسود والخوف يقود الخلق نحو النّور.
- بماذا جئته يا سهلون ؟
- جئته بإرباك كبير كي يتوصّل إلى كَسْر القياس .
- وبماذا زوّدته يا سهلون ؟
- زوّدته بموشور لتجزئة الضّوء والصّورة حتى يبلغ الحافات.
- ولماذا نتعب من أجله يا سهلون ؟
- لأن الوسط مكان السّائد والدّهماء.
- وهل نفعل ذلك حبّاً فيه، يا سهلون ؟
- بل لحاجة فينا إلى عربة الحواس.
- إذا كان انفجار الجرذ الذي يسكنك من فعله هو، لا من فعل غيره، اِسألْه يا سهلون!
- نعم، من الذي أعدّ الطبخة كلَّها ؟
- الطّبخة ؟
- قبل أن تعود، لأنّك عائد، سوف يسحقك عالم مازال تحتنا وكلّه صُوَر.
- صُوَر؟
- كانت الصّورة تنزل من الكهوف صارت تحطّ عليكم من فوق، شاشةً مكتظّة بالجثث. علينا أن نعيده بدفعة منّا، أليس كذلك يا جانيت؟ ستساعدينني من أجل تحالف القوّة. أليس كذلك؟
- نعم ، نحن نحتاج إلى سائق عربة .
- لقد تشكّلت الشّعلة، صارتْ عيناً كونيّة. تعال يا جابر نوقّع .
- نوقّع ماذا ؟
- الميثاق!
- ميثاق ماذا ؟
- ميثاق العين وسائق العربة...
- لا أفهم!
- أنا العين، وهي الرّوح، وأنتَ العربة؛ امضِ بنا!
- مَنْ أنتما ؟
- أتَسْأَل ؟
- أنا شعلة العين.
- أنا جانيت.
- أنا سهلون.

- لست أرى أحدا.

- ضَعْ عينيك في يديك وأذنك الوسطى بين قدميك! أسرعْ! فالعينْ لا زمنيّة أيضاً بما تختزن... أسرعْ وراء العين.....
..... بسرعة جنونيّة أعود فأتذكّر الشّمس...العمارات، الشّوارع، الأشجار، الضّجيج. قرّرت أن أعود. كلاّ من الذي يعود بي؟ لا بدّ أن أعود. كأنني أخرج لأعود من جديد. أصيح: لا أريد. لكنني أعود. أنزل بهدوء. أنزل بخفة. أنزل من قمم النّور الخالص وعتبة الظّلمة، إلى ضوء الشّمس، أرى جسدي فوق الفراش تغطّيه ملاءة بيضاء. أعرف ماذا ينبغي أن أفعل " ذاك لي" أنزلق إلى جسدي ببطء، بهدوء، أستقرّ فيه، أفتح عيني برفق، قليلا قليلا.....
.....
.....

- يا إلهي! حدثت المعجزة! آه!آه! ثلاثة أشهر وأنت في هذه الحالة. لقد نجوتَ أخيرا!

- ما هذه الأنابيب ؟ ماهذه الأمصال ؟ أقوم من نوم البارحة وأجد نفسي في مستشفى؟

- كنتَ في غيبوبة طويلة. كاد الأطباء ييأسون من حالتك. سأسرع لأخبر الطّبيب...

- أنا جائع! أنا جائع! أريد الأكل؛ الكثير من الأكل!

هل متُّ وعدتُ؟ لكنني كنت هناك. رأيتهم هناك. رأيت أبي، رأيت قمر، رأيت العينوس... رأيتهم كلهم. تحدّثنا. وذلك النّور...النّور!

- أنا طبيبك... احمد اللّه! لقد خرجتَ من حالة "كُومَا" طويلة .

- لكنني رأيت أبي... جدّي... رأيت...

- ربمّا...

- أؤكّد لك...

- ربمّا وصلتَ إلى عالم غير هذا العالم...

- وصلتُ... ورأيت...

- قد تكون الصّدمة هي التي وضعتك في غيبوبة، أو وضعت دماغك في مستويات أخرى، ضمن عالم ذبذبات مختلفة عمّا يوجد عندنا. هذه الأمور تحدث كثيراً لدى مَنْ يصابون بصدمة ويعودون، وكذلك الذين يتمّ إنعاشهم... ولا تنسَ أنك تلقّيت صدمة قويّة...

- عن أيّة صدمة تتحدّث يا دكتور؟

-صدمة الحادث! لقد تعرّضت إلى حادث سير. صَدَمَتْك سيّارة في الطريق العام...

أين كنتُ يا ترى؟ في البرزخ؟ ومائدة الزمرّد؛ ما معنى مائدة الزمرّد؟ ماذا فعل بي القزم سهلون؟

الضّرْب في الخفاء

في أوّل زيارة إلى بيتكَ وجدتُك منشغلاً بتسمية "دلاّعة" كبيرة حمراء. وجدتك حائرا في تسميتها على الورق: دلاّعة، أم بطّيخة حمراء، حتّى يفهم الجميع؟ سألتك: "ومن هم الجميع؟" أجبت: "الذين يقولون: دلاعة، والذين يقولون جبسة، والذين يقولون: رق ي، والذين يقولون... لست أدري..." دلاّعة كبيرة أكلْتَها منذ عامين. وظلّت ابنتك تدحرجها في الصّورة. تساءلتَ أمامي: "ليتني نقَرْتُها، وأفرغتها، وألبستها لابنتي عندما كانت تحبو. وهكذا تصير سلحفاة لزجة من الداخل، خضراء مدرّعة، من الخارج" ولم تنتبه إليَّ إلاّ بعد انتهائك من تلك التساؤلات والحسرات:

- ماذا أصابك يا جابر؟ تبدو هزيلاً! برز نتوء وجنتيك أكثر، حتّى مسحة الحمرة الرّيفيّة التي كانت تطبع وجهك تحوّلت إلى سمرة داكنة!

- لقد متّ...وعدتُ!

- ماذا ؟

- خرجت من المستشفى... أمضيت هناك ثلاثة أشهر وحدي.

- لم أسمع... لم يخبرني أحد!

- كنتَ تتأسّف على دلاّعتك!

- الحياة تفاصيل...

تتحرك، تدور، تكتب، في غرفة تحيط بها العلب والصناديق والكتب، وتتوسّطها مائدة دائرية هاربة. "لم أستقرّ بعد من سفري!" قلتَ. وبعد ذلك صرتُ أجدك يوماً تحت المصباح مباشرة، متوسّطا غرفتك، وفي يوم آخر، تزحف بك الطاولة فتلاحقها بمقعدك حتى الزّاوية اليمنى، ثم اليسرى. كلّ شيء فيك يتنقّل: مزاجك ، شخوصك ، أقلامك... ماذا أنتظر من كاتب يزحف وراء طاولة متنقّلة ؟ تُقاطع الكتابة، وتشتم مشاغلك اليوميّة، فلا تتقدّم الحكاية، بل تتشعّب وتتأمّل ذاتها، لكن في مرآة مكسورة. تكتب في اللّيل وتتمنّى أن تكتب صباحاً. تتحدّث عن أهمية كلّ شيء صباحاً، بعيداً عن اعتداء العالم الخارجي، بعيداً، بين الخامسة والثامنة صباحاً، عن الاتّصالات والزّيارات والمفاجآت. تقول: "بين الخامسة والثامنة صباحاً ينام اللّصوص من تعب البارحة" لكنك تعود إلى الكتابة في اللّيل. تكتب وتتساءل "لماذا؟" تتحسّر على أشياء ليست في متناولك. ولو كانت كذلك لما استطعت ممارستها لأنك أنتَ أنتَ: الغناء، الرياضة، التجارة!وفي الأثناء تزحف ابنتك. لقد كبرت الآن قليلا. تتبوّل في الغرفة، بجانب مكتبك. تُدْخلُ الحدثَ في هذه الحكاية أو في تلك. تجد له مدخلاً، أو مخرجاً، مادامت هي قد وجدتْ لبولتهَا مخرجاً تلقائيا، تلقائيا جداً. وتأتي أمها: "هنا بيبي؟ هنا بيبي؟ في الرواية بيبي؟"

حيّرْتَني عندما اشتريت أرضاً ساحليّة قريبة من شقّتكَ المستأجرة، ثم اكتشفْتَ أنها أرض زلقة، مالحة، رطبة. ومع ذلك بدلْتَ بوَضْع الأساس لبناء فيللا جميلة. وما لبثتَ أن صرت تتردّد على ذلك الأساس العاري من أجل الكتابة صيفاً، تحت سُحب البعوض. يأتي البناؤون ويغادرون، والبِنَاءُ لا يكتمل، وأنت تشتكي: "انعدمت الثقة في هذه البلاد!الكلّ يغشّ! الفلوس لا تكفي! لا أجدَ حارساً أميناً!" أشفقت عليك. لم أشفق عليك في الواقع؛ أشفقت على نفسي وأنت تلمّح لي. خفت من التورّط في العمل معك، فقرّرتُ الاتّصال بأحد أبناء قريتي: بوسطل، شاويش الجبس،

العائد من ألمانيا مثقوب الجيب، لعلّه يوافق على حراسة أرضك. يبدو أن رحلتي التي أمعنتْ بي في الفراغ، قد أوصلتني إلى فراغ آخر؛ هو أنتَ! إلى مسالك مضيئة في أماكن كنت أحسبها واقعيّة. كيف أجعلك لا تخذلني؟ كيف أرمي بخيوط عزلتي إلى خيوط عزلتك لنبلغ موقعاً في الذّاكرة، تنبثق منه عين باردة، نغتسل فيها، نركض، نمزح، أناديك فتجيب، أحكي لك فتكتب... لكنك تبقى تؤلمني كعادتك. لديّ طاقة من الحبّ. كيف أجد لها مسالك إليك؛ وأنت لا تهتم إلاّ بالأدب؟ تبقى تهددني. تهدّد أملاً في دواخلي. لأنني أجعلك متفرّجا على حياتي، لأنك تعرف أنني أجعلك تتفرّج على حياتك؛ تثور:

- أنتَ، يا جابر، أمام الرّاديو والتلفزة والكرة، تبدو نوعاً منقرضاً ، حمّالاً يبحث عن ليلته مع البنات السبع. لقد قفزت، شبحاً، من مقبرة في كاف الحجر إلى حياة ليست حياتك. تريد أن تبيع حكايات؟ ربمّا بقيت لك ساحة جامع الفنا في المغرب، أو جوقة تصرخ في دماغك حتى يختلط الصّوت المنفرد بالصّوت الجماعي: أنت وَاهِم! عليك أن تتعايش مع الواقع أو تعود إلى مقبرتك!"

- أنت، تتكلّم هكذا ؟ ألا يأتي دورك بعدي مباشرة ؟

- لماذا ؟

-لأنّك حكّاء مثلي ، كلّ ما هنالك أنك تكتب حكاياتي!

-حكاياتك؟ ألأنك علّمْتَني ذات يوم؟

- لأنني تبنّيتك أيضاً!

- ومن الذي وافق على ذلك ؟ على أية حال، أنا الذي أتبنّاك الآن!

- فات الأوان!

- لماذا ؟

- لأنّ من تبنّاني ناداني إلى الموت...

- ألهذا جئتَ ؟ لتقتلني معك ؟

- إذا قتلتك أكون قد قتلت نفسي.

- أما أنا فأستطيع التخلّي عنك...

- ومن يبقى بعدي ؟

- أنسيت ؟ القزم، المقصّ ، العين، مكسّر المرايا!

- أنا!

- بل أنا!

- آه...

- الشفوي كش، مات! يا جابر، وراءك عين البومة، ورائي عين التكنولوجيا الدقيقة! لماذا أهديت ابنتي خمسة وحوتة ؟

- أراهما فوق سرير الصغيرة! ينبغي إخفاؤهما عن العين الرّائية، العين الحاسدة، حتى يتمكّنا من الضّرب في الخفاء.

- ينقص سياق كامل حتى تتمكّن كفّ اليد والسّمكة من الإقناع بالأمان والضّرب في الخفاء... وهذا السّياق لم أعد أمتلكه أو أعيشه...

- ألا تصدّق مثلاً، أن البيت الذي أسكنه، في حلق الوادي، مسكون ؟

- كلّ إنسان يكون مسكنه صورة من نفسه، أليست نفسك مسكونة؟ ومن يُدمن الدّوران حول هاويته، يأتيه يوم، وتزلّ قدمه على تراب حافتها، فيهوي فيها... ولن تترك شفتاك أدنى بصمات في الرّيح...

- لكنني بحثت عنك، ثم جئتك، ألم نتّفق ؟

- علامَ اتفقنا ؟

- على أن أروي وتكتب...

- لِمَ لا تكتب أنت ؟

- بدأتُ بالكتابة فتوقفتْ بي عند حدٍّ اخترقتْه ذاتي. لذلك أمزّق ما أكتب.

- واضح أنك لا تستطيع القراءة إلا بصوت عالٍ، ولا تستطيع تذكّر كلمات أغنية من دون أن تغنّيها!

- وماذا يعني ذلك ؟

- يعني أنك تستجيب للنّداء ولا تستجيب للكتابة.

- حتّى الحكايات بدأتُ أنساها .

- هذا أمر طبيعي...

- لماذا ؟

- لأن الشّفاه تتطلب آذاناً.

- والكتابة؛ ماذا تتطلّب ؟

- عيوناً لا تقرأ بل تفكّ الرّموز!

- تعني...

- ما أعنيه بالضّبط!

- قد لا تصدّق حكايات البيوت المسكونة، لكنها قضيّة أبدية. لا يمكن تكذيب الشّاهد لأنه لا يفتخر بشيء.

- وهل حدث لك شيء من هذا القبيل ؟

- رأيت الكلاب تبتعد مع زمجرة مكتومة.

- وفي الدّاخل ؟

- لا شيء حتّى الآن.

- وماذا كنت تنتظر ؟

- يحكون عن روح امرأة فرنسيّة مقتولة!

- سوف أزورك، عندما تظهر، لنراقصها ليلاً!

- أنتَ لا تصدّق طبعاً!

- البشر مرايا تعشق صُوَرَها؛ وإلاّ لماذا يحبّ الإبن أباه، والمواطن موطنه؟

- الموتى يرتاحون من هذه الأدوار ؟

- أكيد أنك كنت عندهم وجئت بالخبر اليقين!

- لماذا تأتي عشيقة الفرنسي إذاً ؟

- ثمة أرواح قلقة، لا هي تحيا، ولا هي تموت. وأعتقد أنك تنتمي إليها!

- ألا تغريك العشيقة الفرنسية؟

- لماذا ؟ ألأنّها تمدّ قوسين من القرن الماضي إلى اليوم؟ تعال نتفقْ ونسمِّها، ما رأيك في سوزان؟

- كلاّ ...

- كاترين ؟

- كلاّ ...

- سأجد لها اسماً قريبا من اسمك ، يبدأ بحرف الجيم على الأقل ...

- جانيت!

- نعم، جانيت! من اليوم نبدأ؛ نحبها معاً، نخافها معاً. صباح الخير يا جابر، العاشق يحبّ سماع أخبار معشوقه، هل جاءت اليوم، أقصد الليلة ؟

- منْ ؟

- جانيت طبعاً!

- والفرنسي ما اسمه ؟

- لابدّ أن يكون جورج .

- جورج ؟ نعم ، بالتأكيد!

- لماذا بالتأكيد ؟

- لاشيء ؛ فقط خمّنت أن عشيقة السقف ليست فرنسية بالضرورة...

- لماذا ؟

- مجرّد تخمين...

وأنتِ، يا جانيت، دعي الصُّحون هادئة!

- من الذي يسوقني ؟

- تقدّمْ!

- إلى أين تأخذني ؟

- لا تسألْ!

- ....

- هذا الاتجّاه... نعم... اصعدْ... الصّبايا ينزلن. غادرْ نفسك إليهنّ. يصحن، يتشتّتن. يضعن أيديهنّ على أفواههنّ كاتَمات مفاجأتهنّ ، فالتاتٍ عن يمينك وعن يسارك، متجمّعات من جديد في قوس صاخب خلف ظهرك.

- لماذا تلتحق بي ؟ لماذا تراقبني بين الأزقة ؟

- من فضلك يا سيد! هل تعرف...

- كلاّ، لا أعرفه. هل ركضتَ ورائي لتختبرني فقط ؟

- تحرَّك! اذهب الآن بسروالك الأزرق الضيّق إلى ذلك الاحتفال. السّاحة كبيرة. احشرْ نفسك في زحام اَلمتفرّجين. هناك. هناك. هنا. جيّد. إنها تتموّج؛ تعلو وتنخفض. ها هي ذي في طور الامتلاء تهتزّ بطارئ. هو ذا ينفجر مرافقاً لحظات التّصفيق الأخيرة بتدفّق تحتيّ في صخب الاحتفال.

- ما هذا ؟ إلى أين تأخذني الآن ؟

- إلى هذه الحافلة المسائية. احشرْ نفسك بين فتيات المعامل. هكذا... جيّد. الآن تأخذ منك كلّ واحدة قطعة. لم تعد قادراً على استجماع أعضائك إلا في نقطة واقفة. هرب منك كلّ عضو إلى تجويف أو تكوّر، وأنتَ لا تستطيع الجلوس. إذاً تمتَّعْ بالتواطؤ الضمنيّ الصامت. فهو لا يتطلّب أكثر من ذلك. في مناسبات أخرى تكون المحاولة عبثاً...

- أمّا هذا ...

- اِختبئ جيداً، عاينْ من خلال هذه الزّاوية الميتة؛ بين الشّجرة والنّافذة .

- ماذا أرى ؟

- هؤلاء أطبّاء المستقبل، يشرّحون نساء عاريات في نومهنّ، بأفخاذ متشنّجة، وعري نائم، يتقبّل كلّ ما يحدث، كأرومات حطب...

- دعني أذهب...

- اصعد الآن إلى هذه العمارة. إلى السّطح. ومن هناك... نعم... من هنا... أَسْقطْ نظرةً زائغة منحَرفة على شبّاك يفتح إلى فوق. لماذا لا تطلب من شاويش الجبس أن يأخذك إلى اَلمانيا؟

- ألمانيا ؟

- خذْ قدرةَ أن تمشي، وفي يَدكَ أسد. امش وفي يدك أسد. لا تُلحقْ أذىً بأحد. خذ نعامةً وقرداً. تستطيع أن تطول كعمود في مَحطّة إرسَالَ، أو تَقْصُر حتّى يخبئك القزم في جيبه.

- أنت سهلون ؟

- وليكنْ أيضا... أنّك... فيأتيك الحارس المكلّف بكلّ أمر طبيعي، ويسألك... ويأتيك طفل لا يصل إليك بَالونُه ويسألك:

- يا عمّي الرّجل ، لِمَ أنت طويل حتّى ... هنالك !

- أَجِبْهُ بسرعة أجِبْهُ!

- يا عمي الطّفل، أنا قزم مثلك، والذي فوقي، هنالك ، ليس أنا!

- والآن سرْ بالطّول وبالعرض. عندك أشياء تدخلها، وأشياء تُخرجها. من يلمس طولك لا يجدك، ومن يلمس عرضك. من يشهد عريك، ومن يشهد قزمك. وحدك تراك.

- إني أفعل...

- سرْ في صيف الكائنات متسلّلاً إلى البريق المعتم، إلى بريق العري مشعّاً من البيوت الخانقة ذات النّوافذ الأرِقَة والغرف المتثائبة خارج كوى الحرارة. سرْ من أجل عينيك باحثتين عن الأعضاء المندلقة. اقطعِ الشارع وانعطفْ! تَوارَ لترى زنداً. اكتمْ أنفاسك لتسمع حفيف نهدين عاريين. عدْ إلى مَراصدك؛ إلى منزلق ظَهر الحادية عشرة، ووركيْ منتصف الليل. اعرفْ جحورك واضبط توقيتك. اجمعْ بَرْقَ النَّهْد إلى نَصْل الفخذ في السّاعة الثّانية. واحملْ، في الثالثة، خَدَرَ الجفنين إلى يقظة الأصابع والخاصرة. احملْ ما جَنَيْتَ من بريق، آلاءً متّقدةً في إنبيق ملتهب. إنّه الصيف؛ وأنت في أعضائه. اقطفْ بريقَ النساء لتصنع امرأة! عدْ إلى جحرك!

- طَرقٌ على الباب ينبغي أن أفتح؛ لاشكّ أنها صاحبة المنزل.

- عيناك تتّقدان! عليك أن ترى جوعك أكثر. لا تفتحْ لها؛ اهمسْ لها بأنك مشغول، ولا تفتحْ!

- مشغول أنا الآن ولا أفتح...

- عندك روح قلقة ينقصها شعر وأنف وفم. ينقصها صدر. عندك أنثى هائمة. اشترِ لها حمّالة صدر. لا تفتح الآن. هذا سروالها الضيّق. هذا قميص شفّاف لصدرها الطّالع من صلصالك. لا تفتح الآن. املأ الصّدر. أَكْمِل استدارة الثّدي. شدَّ الخاصرة بحزام حتى تبرق كهرباء الحوض. لا تفتح الآن حتى تكتملَ الغائبة، الهامسة، المدوّية في حجراتك وأروقتك، المحتمية بظهرك في العتمة، الممسكة بخطواتك إلى الوراء .

- لا أفتح...

- وأنت، يا جانيت، اتركي الصحون هادئة. لماذا تفتحين الحنفيّة ؟ كانت مغلقة قبل قليل. اللعنة! تشدّينَ الماء في الحمّام أيضاً ؟ اتركيه يجبل القدمين. يحبّ القدمين رشيقتين، مستدقَّتين، منزلقتين كما تشاء حركة الأرض. تمشيان في جاذبيّتها ولا تلمسانها. اتركيه، لم يفرغ من تجويف في أخمص القدم...

- لم أفرغ...

- أَمْضِ صيفَك لاهثاً في النّهار، صياداً في اللّيل. ولك في بيتك أنفاس المرأة الفراشة، غمّازة المرأة القَطّة، ردْف المرأة البطّة. في بيتك زغب المرأة الرضيع، خَفَر ومجون، قوّة وتقصّف. في بيتك زمجرة المرأة القردة، عنق غزالة النهار، زرافة الليل. في بيتك عصارةُ بَشَرَة حليبيّة تحت نور خافت، من نافذة المنعطف الثالث، بعد المتجر الكبير. هي ألَقُكَ وآلاؤك. فتنة الأصابع نائمة، متوسّدة ظلالها. وأنت، يا جانيت، دعيه يصنع امرأة الليل والنّهار، امرأة صيفٍ لكلّ الفصول؛ إنّه يخرج، لقد أربكْتِه يا جَانيت ؛ إنه يخرج الآن".

إذا كُنْتَ قادراً ... خُذْني !

أعود إلى الشّوارع. أبحث عن وجه. وفجأة، آه! من أرى؟ من هذا ؟ القزم سهلون؟

- هذا أنت يا سهلون!

- من ؟

- ألستَ سهلون ؟

- أرجوك، أنا المواطن جمعة التواتي؛ لا تسخر! هكذا خلقني ربّي!

- لاشكّ أنك غيّرت اسمك كالعادة .

- اسمعْ! من الأفضل أن تعود إلى بيتك فوراً!

- لماذا ؟

- حتى لا تندم .

- وإذا لم أتركك ؟

- أكسر خشمك بوثبة واحدة؛ هيّا، اتركني!

عدتُ. وجدت دليلة الدلّولة تنتظرني. تراقصت أمام عينيَّ. قالت لي: "لم آت طلباً لأجرة البيت، صدّقني!" دخلتْ معي لتتفقّد بيتها. كلاّ، لتشمّ بيتها، وتدسّ أنفها في الزّوايا والكوى. تريد أن تعرف من يسكن معي، لأنها تعرف أنّ ثمة من يسكن معي.

- لايسكن هنا أحدٌ غيري.

- حتّى في الليل ؟

- حتّى في الليل.

- الحمد للّه طمْأَنتني .

- خفتِ من مستأجر سرّي؟

- بل من مستأجرة!

- لا آتي بالنساء إلى هنا .

- ومن سألك عن ذلك ؟ أقصد...

- تقصدين الفرنسية ؟

- الحيّ كله يغلي بالإشاعات حول البيت.

- ربمّا لأنّ الحيّ ميت.

عندئذ وضعتْ يدها على خاصرتها وتمايلت بدلال:

- بمن فيهم أنا ؟

- ربمّا كنتِ الحيّة الوحيدة ...

- لماذا ؟

- لأنّكِ تسمحين للموتى أن يسكنوا هنا!

ازداد اهتزاز جذعها :

- وهل أنتَ ميت ؟

- أنا كما تريننى .

وضعتْ يدها على خدّها :

- إذا أردتَ الحقيقة، أنا أجدك حيّاً وميتاً في وقت واحد.

- حتّى الموتى يروننى كذلك.

استغربتْ إجابتي مرّة أخرى وردّت بحدّة :

- تقصد أننى ميتة ؟

- أبداً...

- لعلّك ترى الموتى ؟

- نعم أراهم وأبحث لهم عن أجساد.

- وهل تجد من يعطيك ؟

- لا أحد يعطي؛ أنا آخذ!

تقدّمتْ نحوي خطوتين وقالت :

- إذا كنتَ قادراً... خذنى!

تراجعتُ إلى الوراء قليلا وخاطبتها بإصبعي :

- تأخذيننى... لا آخذك.

قالت محذّرة:

- لستُ كما تتصوّرنى.

- أتصوّرك كما قد لا تتصوّرين نفسك.

- وتعجبك صورتي ؟

- كثيراً .

- خذها إذاً!

- أخذت ما أريد منها .

- تأخذها ولا تأخذنى، ماذا أعجبك فيها ؟

- لحْماً للفراغ!

القزم هو الذي جعلنى ألتحم بها، فلا أملأ ثغرة أخرى في جسد المرأة التي أصنعها. لكننى أخذت من دليلة قدرة عظامها على هتكي وعصري، بينما القزم يتراءى لي ضاحكاً، راقصاً، قافزاً حتّى سقف العشيقة الفرنسية. آنذاك أعود إلى مرحلة تسبق التشكّل؛ كُتلة طين تخترقها

رطوبة وفراغات ومسالك للهواء، كُتلة جاهزة لأنْ تملأَ ببراعات وخبرات متراكمة في أعضاء أخرى. وتطلّ عليَّ أشباح وقطط من وراء غلالة المرئي. تشاهد بذرتي، نشأتي الأولى، عجينتي السّرّية التي تهيّئني للنّبوغ أو السقوط، للنّبوءة أو الجنون.

صرت محامياً ناجحاً لأنني لاحَقْتُ محامياً. صرت شاعراً رقمه "واحد" من دون أن أبحث عنه وألاحقه. صرت ممثّلاً. وصرت مغنّياً ناجحاً، صرت ضابطاً... وكلّما روى لي أحدهم خبراً سارّاً، تسلّلتُ إليه لأحلم به، إلاّ القزم... فهو قادر على سرقة أحلام الآخرين. يسهر ليلة كاملة من أجل حلم فيه حبّات كَرَز. لذلك أراقبه وأترك دليلة؛ ثم أشعر بلذّة العودة إلى ماضٍ متقطّع غادرني مع دليلة قبل أن يأتي القزم. أعود إليها، لقدرة عظامها على إنقاذي من القزم.

- أين هو القزم الآن ؟

- فتح الباب وغاب.

- إلى أين ذهب ؟

- ذهب لمقابلة أميركي يسجّل السِّيَر القديمة .

- وهل وجده ؟

- وقف أمام المرآة ليجهّز نفسه للمقابلة فأصابته الغصّة التي تسبق كلّ شيء.

- متى يعود ؟

- لن يعود... لأنّه وجد المدينة فارغة من سكّانها بينما الآلات تعمل...

- طاحونة بلا قمح...

- قمح بلا طاحونة...

- أين سينام؟

- ذهب إلى مقبرة، ليحفر حفرة صغيرة على شكل جرّة، تحت شجرة خرّوب...

- سيبحث عن كنز ؟

- سيترك بقايا شموع محترقة حول الحفرة، فيأتي الناس، ويتساءلون عمّن وجد الكنز، وكالعادة لا يجدون له أثراً...

صفّق القزم وقفز ثلاث قفزات في الهواء

استعدتُ عملي. هذا أمر يدعو إلى الاطمئنان. لكنني صرت ألجأ إلى تمويه اتجّاهاتي حتّى لا يلتحق بي القزم إلى دار الكاتب. صار طريقي إلى عملي أصعب من أيّ مناورة أخرى، وأيّ تمويه هو مجرّد تغيير في توضيح معالم الطّريق إلى القزم.

ارتطم بي وأنا أحاول السَّيْر مواربةً :

- سهلون ؟

- قلت لك أنا جمعة التّواتي. يا أخي، لماذا لا تتركني، لماذا تناديني بهذا الاسم؟ يبدو أنك وحيد وتبحث عن صديق... أليس كذلك ؟

- اسمع يا سهلون، أحتاج إلى رؤية مريم... مرّ زمن طويل...
- أنت عاشق إذاً، الآن فهمت!
- لكنّها...
- أعرف... أنتَ تتعلّق بالصّورة ثم تعود لتسْتَجْليَ البريق في حواشيها.
- ما معنى ذلك ؟
- معنى ذلك أنك تحبّ وترى أنك تحبّ.
- نعم.
- لكن الحبّ ليس هذا...
- إذاً...؟
- الحبّ هو أن ترتمي بمٌ! بُفْ! طرطقْ! غاطساً فيه من دون أن تراه. فلماذا تبحث له عن عين أخرى؟
- لكن ...
- هل جاءتك فرصة لنسيانها ؟
- فرصة ؟
- إذا هجرتْكَ، عليك أن تهجرها...
- ظلّتْ تلوح وتختفي...
- عليك أن تنسى! أيّ حبّ يجب أن لا يدوم أكثر من شهرين!
- وإذا دام أكثر ؟
- ابترْه بألم الوعي...
- وإذا دام أقلّ ؟
- مدِّه بوعي الألم.
- ولماذا كلّ هذا الألم ؟
- حتى لا تذوب في معبودٍ وتمدَّ ذاتك فيه ثم تسعى إلى قتله فيك!
- لم أفعل... ولن أفعل .
- بل فعلت!
- متى ؟
- دائماً.
- مع من ؟
- مع الرجل الذي أنجبك!
- أبي ؟

- مع المرأة التي أرضعتك!
- أمّي...
- مع الشيخ الذي ساق خطاك...
- وهل تعرف العينوس؟ أنت سهلون إذاً!
- مع المغنّية التي تنجح لنفسها وتفشل لك؛ وأنت تظنّها ماتت.
- مريم...
- مع المخرج الذي أَسْرقُ شموع مذبحه، من مخدع زوجته، لأضيء حُفَري في المقابر...
- زوجها أنور ؟
- مع مخرج آخر يعدك بدورٍ في فرجة لاحقة، بطلها حكواتي .
- من ؟
- سوف تلتقيه ذات يوم .

صفّق القزم وقفز ثلاث قفزات في الهواء ثم قال لي :

- والآن خذني إلى دار الكاتب!

في دار الكاتب تنفّس القزم بقوّة ناريّة من منخَرَيْه

أسراب العصافير تحلّق في موجات رماديةٍ داكنة. تعلو وتنزل قبل أن تحين لحظة الانقضاض على قلب المدينة المتناوم. يبتعد سرب ويلتحق به سرب آخر. تدخل الموجة في الموجة من دون اصطدام. تنتظر مجيء موجة أخرى.

الناس يمسحون ثيابهم ورؤوسهم. المتسكّعون يراقبون المشهد. سائحة أغلقت فمها فجأة ثم بصقت.

- الناس فوق، والزَّرَازير تحت .

تركني مبتعداً بضع خطوات وعاد ليهمس في أذني :

- ألم تسمع ما قالت تلك المرأة إلى ذلك الرجل ؟
- لا يهمّني...
- هل أذهب لأسمع لك أكثر ؟
- لا أريد...
- ذلك الرجل، هناك، مذيع تلفزيوني، فرصة! في التلفزة لا يمكن أن ترى إلا وجهه. فرصة! في الشارع تخفّ الفخاخ أمام عينيك ؟
- لا أريد أن أرى...

قفز إلى كتفي وبدأ يهذي:

- تريد الرؤية ولا تستطيع. تريد الفهم ولا تستطيع. تريد الإمساك بامرأة وتفشل. أعرف أن ما ينقصك الآن هو أُذْن وسطى. لديك في بيتك كلّ شيء إلا الأذن الوسطى. أنتَ لا تتكلّم الآن لأنك تخشى ألا يجد صوتك وجهة يقصدها. لا تهتف ولا تسجّل أرقاماً لأنك تخاف من جهاز الهاتف. وفي المترو تقف دائما في الدائرة الرابطة بين عربتينْ حتّى تحسّ بالأرض تدور ولا تمشي. في السّينما تغيب ثم تخرج لتصطدم بمرآة تواجهك أو بلّور لا تراه، لأنك تتساءل عن الصّورة كيف تنتقل في الهواء، عن الصّوت والأسلاك... وبعد ذلك لا تشاهد التلفزة كما يفعل الناس الأسوياء الذين يتركونها تدخل إلى بيوتهم، بل تتعرّى لها وتغمض عينيك كي تقول إنها تشاهدني وتراني. أنت الآن تتكلّم بل تبحث للمرأة عن أذن وسطى. متى نصل إلى دار الكاتب؟ لماذا تغيّر اتجاهاتك ؟"

أخذتُه صاغراً. ظلّ يطنّ في أذني ويراقب الطريق. وعندما وصلنا إلى الباب، قلت له محذّراً :

- اسمعْ يا سهلون! لا تتسبّب لي في مشاكل، أريد أن أعمل ولا أُطرد!

- لا تخفْ! لن أحرجك، سوف أتسلّل فلا يراني أحد أدخل معك.

تسلّل القزم فعلاً. استغلّ فرصة دخول أشخاص وخروج آخرين. اتجه إلى القاعة الكبرى واختار المائدة الأولى قبالة باب المطبخ. لزم الهدوء في البداية متظاهراً بمشاهدة صور التلفزة وسط الضّجيج. وبعد أن كدّس زجاجات البيرة بجانبه همس لي: "الليلة آتيك بالعينوس من أذنه!"

كان الكُتّاب يتساءلون " إنه لا يذهب إلى التواليت مطلقاً ! أين يخفي الكمّيات التي يعبّها؛ ابن الكلب؟" وعندما دخلتُ القاعة طلب منّي زجاجة أخرى بمنتهى الأدب.

- مَنْ سيدفع ؟

- الشعراء!

- سأدفع أنا، إذا لزِمْتَ الهدوء ولم تفضحني!

- ألا تثق بي ؟

- لم أثق بك صاحياً فكيف وأنت تعانق هذه القوارير؟

صار يطلب القارورة إثر القارورة وأنا أعدّ القوارير فأسكر. لكنّه حافظ على توازنه؛ ابن الملعونة! ولم يقطع هدوءه إلا تجشّؤه بصوت عال:

- هات الأكل!

- ماذا تفضّل ؟

- قلْ ماذا أعددتم في المطبخ حتى أعرف ما أفضّل!

- كوتليت، عجّة ، حوت، اسكالوب...

- الكوتليت ضلعان أو ثلاثة، العجة عجّة، الحوت سمكة، والإسكالوب شريحة ديك رومي لا تشبع قطّة... هاتهم كلّهم!

- ومن سيدفع يا ولد الـ...

- القاصُّون والروائيون. ولا تنس الفواكه، أريد دلاّعة كاملة!

- ومن سيدفع يا جمجمة البطّيخة ؟

- النّقّاد!

- وماذا تركتَ للمسرحيين يا... قرد ؟

- موعدنا معهم قريباً!

بدأت القاعة تمتلئ. عمّ الضّجيج والدّخان، فغمرَا القزم، بينما معلّمي يحذرني للمرة الألف: " من أين جاء إصبع الكارثة هذا ؟ هل هو كاتب أيضاً؟ هل أنتَ متأكد أنه سيدفع؟ انتبه! سيكون كلّ شيء على حسابك إذا لم يدفع! وإذا لم تدفع أنتَ أخصم لك المبلغ من راتبك!"

انتشى الشامبانزي وناداني ليهمس في أذني :

- من المستحسن أن يعود المرء إلى التّدخين في هذه الكارثة، ولا يبقى متلقّياً سلبيّاً...

أردت التخلّص بهدوء :

- اسمعْ! التّدخين مضرّ كما تعلم...

وقف على الطاولة وصاح:

- أريد سيجاراً فاخراً!

- لا أحد يدخّن السيجار هنا .

- أريد أن يعمي دخاني دخانهم .

- اِهدأ!

- اِذهب واشترِ لي!

ارتبكتُ. خفت. تردّدت. ولمّا لاحظ ذلك، أمرني بالانصراف، فبقيت أراقبه من وراء الباب.عاد إلى الجلوس. هدأ قليلاً .

كان الحاضرون يقطعون حواراتهم الصّاخبة، فيرمقونه بنظراتهم، ويهمسون، ثم يضحكون. فجأة ضرب بجمع يده ضربة مدوّية على المائدة، فانكسرت قوارير، واهتزّت صحون، وطارت ملاعق. خيّم الصّمت. أطلّ القزم من وراء مائدته واقفاً ثم صاح :

- أنا أفخم شاعر في هذا البلد!

تعالت الهمهمات والضحكات، وبعض "الفصوص" أيضاً. وبدأت التّعليقات ترشق القزم من كلّ اتجاه:

- يا أفخم شاعر، لماذا لا يظهر رأسك من وراء الطّاولة ؟

- شنّفْ آذاننا يا قزم!

- ما هي مؤلفاتك حتّى الآن ؟

- شعرك عمودي أم حرّ ؟

- أَسمعنا صوتك مرّة أخرى!

- لك زجاجة على حسابي.

تنفّس القزم بقوّة ناريّة من منخريْه. نظر عبر فسحة بين خدّه وأعلى مسند الكرسي وقال:

- شعري في أذني الوسْطى. العالم ممتلئ بأصوات خفيّة لا تلتقطها إلا الأذن الوسطى. رأسي هنَا. مؤلّفاتي تصدر تباعاً (ضرطات متلاحقة) شعْري عموديّ إذا انتصبتُ، حرٌّ إذا جلستُ، منثورٌ إذا استرخيتُ...أريد سيجاراً فاخراً !

تجرّأ شاعر وأشار إلى جزء من بدنه، فردّ القزم:

- أشعله لي أوّلا!

ضحك الجميع. وقفوا. تحلّقوا حول القزم. صعد القزم فوق المائدة، وبدأ يغنّي:

ياا... شَمْـ... سَ القَرا... ميد... يا عيني

يا... نور المحرومين... يا عيني ...

ثم ترك الحضور، في هرج ومرج، وانسلّ بين سيقانهم وقواريرهم. هرب من دون أن يدفع شيئاً. وترك خلفه سلسلة من الضرطات. ما ذنبي أنا؟ ما علاقتي بالقزم، حتّى يطردني معلّمي؟

قزم يائس في البنوك، ذو عينين باردتين من القسوة

اختفى القزم في المدينة. كتبت عنه الصّحف في صفحاتها الأولى، وفي الصّفحات الثقافيّة:

" قزم مُتَفَلْسِف يقلب دار الكاتب رؤوساً على أقدام!"

" أكبر شاعر في تونس يظهر ليلة واحدة!"

" البحث عن القزم العجيب مازال متواصلاً"

" العثور على صندل القزم في شاطئ سيدي بو سعيد"

" رجال ضفادع متورطون في علاقة ما، بالقزم ؟"

ولا أحد، طبعا، كشف الحقيقة.

لم يذكروا أنه زارني في حلق الوادي. وسافر إلى جزيرة جربة فضربته ضفدعة بعينيها، كما قال لي. لم يكتشفوا أنه زار البلاد في جيب سائح أجنبيّ يجمع السِّيَر الشعبيّة. لم يكن قزماً، وصار كذلك، بسبب "يراعة الوادي" التي علّمَتْه الصّمت والمجاملة والشّكوى مثل بائع القماش... وغير ذلك من الكلام الذي لا يستوي له منطق.

لم يكتشفوا أنه قادر على التغلغل في الثُّقوب الصّغيرة لمهارة تخصّ خبرته وتناهيه في الصّغر. أقول "بِرْكَة" يقول "بحـر". أقول "بحـر" يقول "أوقيانوس" يحبّ كلمة "أوقيانوس" ويرصد العالم بأذَنه الوسطى، وبعينه المتنقّلة عبر كلّ البلدان.أخبرني بأنه اكتشف قطرات الطمث التي دسّتها مريم في شاي زوجها حتّى يعود إليها من أحضان النساء. اكتشف حارق السّيارة، وصاحب الرسالة السرّية. ولاحق السّيد الذي يتكلّم محدّقا في خدّه.أقنعني بدوّامته التي تقول: يدفع بك السيد "عين"، بوسائل حقيرة، إلى السيد "أُذن". يضربك السيد "أُذْن". لقد ضربك إذاً بسبب السيد "عين". تعود إلى السيد "عين" ناقماً. لكنّك تفضّله على السيد " أُذن". هو لم يضربك. دفعك إلى أن تتلقّى الضّرب. وها هو ذا ينقذك من السيد " أُذْن" حتى لا يقضي عليك.

الآن صار لك عدوّان: السيد "عين" الذي يدفع بك إلى الهلاك، وينقذك وقت الحاجة، والسيد "أُذْن" الذي يضربك وهو مستعد للقضاء عليك. ما الحل؟

"من يستطيع وصف المقصّ؟" سأل الكُتّاب متحدّياً. فأجابه أحدهم: "آلة لقصّ لسانك!" وأشار إلى موضع آخر.

أعادني إلى طفولته الأولى :" صار أبي يحملني ويضعني في جيبه، لأنني لم أولد قزماً فقط، بل صرت قادراً على التقلّص كلّ يوم، فتزداد أسئلتي. ذات ليلة نسيني في جيبه. تركتُ أسئلة الموت والحياة حتّى لا أتقلّص أكثر وأعود إلى بطن أمّي، أو أسأل أبي أسئلة قزم حقيقي:

- ماذا تفعل مع أمّي العارية؟

- أهزّها حتى تنام..."

وأوصلني إلى تراكم خبرته:"لابد من المحافظة على علاقة صراع مع العالم نظراً لحاجتنا الدّائمة إلى إثبات الهُويّة. لذلك لابدّ من أساطير الأجداد"

يمشي وأصداء الأمكنة في أذنه الوسطى. يتبجّح بدخول جيوب النّكرات وبيوت المشاهير:"أعرف أزواجاً لا يفرّق بينهم سوى الزّواج. عندما تحدّثك دليلة، ابتسمْ لها، ولا تنصتْ إليها، لأن سرّها الوحيد هو السرّ الذي تجهله. ذات مرّة أدخلتني امرأة إلى الجنّة. قالت لي: "تفضّلْ! من هنا!" وأشارت إلى بابها. دخلتُ من باب الجنّة فوجدت نفسي أقفز على لهب الجحيم. النّساء شياطين معطّرة بالغواية. مرّةً وجدْتُ نفسي محبوساً مع امرأة وقطّة وذبابة. بقيت أنتظر المرأة، وأراقب القطّة والذّبابة. ماذا كنت أنتظر؟ كنت أنتظر انتهاءهن من الانصراف إلى زينتهنّ وقيافتهنّ. قررتُ أن أمسك بالمرأة من أذنيها لأنّ كلّ امرأة تخفي أرنباً، فاكتشفت أن عمرها تجاوز الخمسين. هل تدري ماذا فعلتُ؟ ينبغي أن تفعل ذلك مع دليلة، عليك أن تستبدلها بامرأتين، كلتاهما في سن الخامسة والعشرين، على أن تكون محارباً ذكيّاً وداهية، لأن القلاع لا تؤخذ إلا من نقاط ضعفها السرّية... أما إذا كنت تصرّ على مريم، وتسعى إلى إعادة تشكيلها كما تريد، فإنّ عليك أن تبدأ من هنا..."

اللعين! يرقص في كلّ بلد رقصتَه ويأتي ليدمّرني!

بعد أسابيع فتحتُ إحدى الجرائد فشدّني هذا الخبر:" تحقّق الشرطة حاليا في سلسلة من عمليات سطو على المصارف نفّذها أغرب لصّ في التاريخ لا يزيد طوله على ثلاثة أقدام، ويتنكّر في هيئة طفل صغير. وفي كلّ مرّة يسطو فيها هذا اللصّ على أحد البنوك يدخل إلى المبنى وهو يحمل سلاحه علناً، ويمرّ أمام رجال الأمن الواقفين قبالة البنك من دون أن يرتابوا فيه ولو لبرهة، لأنهم يحسبونه طفلاً يلهو. كان هذا اللصّ الجريء يرتدي ملابس راعي بقر، ويعتمر قبّعة عريضة من الطّراز المكسيكي تُخفي وجهه، ويمتطي عصاه مثل حصان... وفي حركة خاطفة يخلع قبّعته ويشهر سلاحه في وجوه الناس، فيدركون أنّ الواقف أمامهم ليس طفلاً بل هو قزم يائس ذو عينين باردتين من القسوة!

أمّا أسلوب الجريمة فقد كان متماثلا في حوادث السّطو الخمسة، حيث يأمر اللصّ الصّغير الصرّافين بوضع الأموال في قبّعته ذات الحواف العريضة ويُولي الأدبار... لكن بعد أن" يوقّع" على جريمته برقصة عجيبة. وذكر شهود عيان أنّ هذا اللصّ الظّريف يقوم بوضع القبّعة المملوءة بالأموال على الأرض، ليغنّي بعض المقاطع من أغنية غريبة وهو يجري حول القبّعة في فرح طفوليّ، ويضحك بصوت عال مردّداً :

يا شمس القراميد، يا عيني ...

يا نور المحرومين ، يا عيني ...

وقال أحد ضبّاط الشرطة إنّ هذا اللصّ يبدو كما لو كان لا يكتفي بسرقة الأموال بل يتحتّم عليه أن يقوم بإذلال مَنْ سرقهم..ويتّفق الاختصاصي النفسي ، الدكتور ج. ك. والذي قام برسم صورة نفسانية لهذا اللصّ، مع رأي قائد الشرطة؛ إذ يقول الدكتور ك. إنّ هذا الرّجل يتملّكه شعور بالمرارة من قصر قامته ويريد أن يسخر من أصحاب القامات الطبيعيّة لشعوره بأنّهم قد سخروا منه طوال حياته. ويستطرد الدكتور ك. في شرح أبعاد نفسيّة اللصّ القزم قائلا بأنّ النّقود لا تشكل إلاّ جزءاً من الرّضا الذي يحقّقه من جرائمه. ولكنّ دافعه الأكبر هو الإثارة عندما يسرق أشخاصاً من ذوي القامة الطبيعيّة. وهذا الأمر يجعله يحسّ بأنه"رجل كبير" . وحتّى موعد إلقاء القبض عليه سوف يواصل سطوه على البنوك والاستمتاع بفعلته...الطّريف في الأمر أنّ سائحة أمريكية التقطت لهذا اللصّ صورةً، قبيْل لحظات من إقدامه على تنفيذ جريمة السّطْو الثالثة... وكانت هذه السائحة تعتقد بأنها تلتقط صورة لطفل ظريف يرتدي زيّ الكاوبوي..."

اِلعبْ بعيداً يا جابر!

أعود ليلاً إلى أمكنتي السرّية. ألمس حافة النّافذة المطلّة على أصابعها متراقصة على الجدار. أقطع الشّارع وأقصد منعطف الزّند العاري. استنشق صدر منتصف الليل، أربّط على منزلق ظهر الواحدة، وورك الثانية ليلا. يلمع في ليلي برقُ النّهد ونَصلْ الفخذ. أحمل ثماري الليليّة إلى أروقتي المظلمة، قناديل طريق.

أسلّم جسمي للصُّور فتفتح فيه ثغرة.أعود. أضع صوىً جديدة وعلامات، لقدميَّ ويديَّ، لأنفي وأذنيَّ. خطاي تتناوب على اللّمس والشمّ. أذناي على أطراف أناملي. عيناي تفترشان حركة جسدي.أهرب سدىً من قولة للقزم، ترنّ في أذني الوسطى: "عش الآن بكلّ حاسة، ولها، كأنك فاقدُها غداً". أسكبُ ماءً لأخرج القزم، بعوضةً، من أذني الوسطى. صرت أسدّ ثقوب الأبواب: فاجأني نصلٌ حارق من ثقب ملتهب، كنتُ أتلصّصُ من خلاله على المرأة ذات البشرة الحليبيّة. آه...عيني!

اكتملت المرأة في بيتي. سرقتُ لها أذناً وسطى. لها جسد متسامح ومتعجرف في آن. روح لا يسبر لها غور. تعطي جسدها لأفتى الشباب وتهيمن على أرواحهم. تحمل الشّهوة في لحمها والحبّ في حقيبة يدها. تتقلّب في الأمكنة والأزمنة: يحوّل وجهتها شخص، أو ينقضّ عليها أعور بقضيب، ويقتلها. لا أصدّق أنها تموت. أُعدُها بحياة أخرى .تنشر الجرائد صورها: "المطربة الكبيرة تسافر إلى الشرق! صعود ابنة القريَة إلى قمّة الأضواء!" أحاول الاقتراب منها. تحرقني "إنْ شئت ابعثْ لي بكلمات أغنية جديدة. وهاهو ذا رقم صندوق البريد فقط" بينما هي تسكن بيتي وتقلب صحوني وتشدّ خطاي ثم تظهر على شاشتي وتقول لي : "ضَعْ يدك على ثديي يصرْ ثدياً. ضع يدك على قلبي يصرْ قلباً. ضع يدك على فخذي..." فأرفع يدي في المرآة ولا أراها.

- افتحْ يا جابر! أعرف أنك هنا وتؤلمني حالتك. افتح!

- لم يعد عندي نقود .

- لا يمكنك أن تسكن إذاً. أريد أُجرتي .

- لقد دفعت أضعاف الأضعاف.

- لمن؟
- لصاحبة البيت .
- لمنْ ؟
- لصاحبة البيت؛ جانيت .
- بسم الله!
- صاحبة البيت الأصليّ التي تسكن في السّقف .
- أعوذ بالله!
- طالبتْ بالأجرة ثم صارتْ تعرف أين أخبّئ ما أوفّره.
- عافانا الله!
- في المرة الأخيرة لم تجدْ مالاً فأخذت عيني .
- لطفك يا ربّ!
- وهدّدتني بأفعال أخرى .
- أفعال أخرى ؟
- لم تَذْكُرها. هدّدتني مطالبة بثمن معاشرتي لها، والانقياد لطلباتها.
- وما هي طلباتها يا ترى ؟
- قالت إن طلباتها تنبع من ملكيّتها المطلقة للبيت؛ من دمها.
- اِلعبْ بعيداً يا جابر، أريد أُجرتي .
- لا أملك مالاً
- نتّفق إذاً ...
- كيف ؟
- فقدتَ عيناً، أنا عينك التي فقدت...
- مازلت أرى. سوف أزيل الضّمادة وأرى.

-ليكنْ! دَعْني أساعدك على الاستحمام؛ هذا واجبي منذ اليوم!

واقعة الخرفان

مع اقتراب عيد الأضحى تفشَّتْ في المدينة ظاهرة محيّرة: امتلأت الأحياء والشوارع بخرفان تثغو ضالةّ، وأخرى تثغو صامتة، بعد أن فقدت ألسنتها وباتت غير صالحة للتّضحية الحلال.

في حيّ القرنفل ذهب الأب لشراء علبة من معجون الطماطم وترك ابنه يلهو بالخروف.

وعندما عاد وجد الخروف قد اختفى. فتحوّل الأب، الخاسر مرّتين، إلى كبش ونطح ابنه. ثم تحوّل إلى بغل فرفسه. وانتهى به التحوّل إلى قاذفة عُلَب، فرمى ابنه بعلبة الطماطم. وما إن أصابت منه الرأس حتى خرّ طفل العيد صريعاً.

في حيّ الروضة سُرقت تسعة خرفان وكُتب على جدران أصحابها: "عيد سعيد، تضحيتكم مقبولة!"

في قرية البساتين ركضت طفلة وراء خروفها تريد استرجاعه فتمسّكت بألْيَتِهِ لكنه قفز فوق البئر ولم تتمكّن الطّفلة من تحقيق قفزة كافية...

أما في صباح العيد فقد شوهد شيخ هرم يقترب من طفل يلهو في ساحة الحيّ بخروف تأخّر ذبحه:

- أيّها الطّفل الذكيّ متى ستذبح صديقك؟

- لم يأتِ والدي من الجامع بعد .

- أنت طفل ذكيّ وطيّب. هلاّ اشتريت لي علبة سجائر بهذا الدينار وسوف أمسك لك بالخروف؟

- لماذا تدخّن وأنت صغير؟

- أنا لست صغيراً، أنا قصير. انظر إلى صدري وشعري.

ركض الطّفل بالقطعة النّقديّة نحو أقرب دكّان. تأخّر وهو يبحث عن دكّان مفتوح صباح العيد. وعندما عاد خائبا لم يجد الشّيخ ولا الخروف.وصل الأب وسأل عن الخروف. صفع ابنه. جرّه من يد واحدة على الأرض. جرّه حتى باب العمارة. صعد به السُّلم. أدخله إلى قاعة الجلوس. أجلسه على المقعد الجلديّ الجديد. جلب عصا وأمسك بيد ابنه اليمنى، ثم اليسرى، ثم اليمنى، ثم اليسرى، والأم تصيح: "سيتمزّق الصّالون الجديد. دفعنا سعره من عرقنا ودمنا." ترك الأب ابنه وذهب إلى غرفة النوم غاضباً فالتحقت به زوجته تهدّئ من غضبه وتندب حظّها صباح العيد.

ظلّ الطفل وحيداً في غرفة الجلوس(سيتمزّق الصالون الجديد!سيتمزّق الصالون الجديد!) أمسك الطفل بالعصا وغرزها في الجلد الفاخر. ذهب إلى الحمّام حتى لا يتبوّل في سرواله. لكنّه أتى بشفرة أبيه. أغلق باب قاعة الجلوس حزّ المقعد الجلديّ بالشّفرة.من هنا.من هناك. من هنا. والأريكة، من هنا، من هناك، من هنا. والمقعد الثاني... سيوراً جلديّة.

صاحت الأمّ من هول المشهد:

- الصّالون! الصّالون!

هجمت على الطفل، على يده اليمنى، على يده اليسرى، على...(ينبغي على الكبير أن لا يضرب الصغير عشوائياً، فقد يفقد عيناً أوسنّاً أو...) التحق بها الأب. رأى المشهد. ملأه ما رأى بقوّة الغضب وقدرة السّلطة. صار المشهد سلطة. صارت السلطة مشهداً . انقضّ على ابنه، على يده اليمنى، على يده اليسرى...

فقدت الأمّ وعيها أمام الصّالون الجلديّ الفاخر الذي تُفاخر به قريباتها وصاحباتها وجاراتها.

عاد الأب إلى المشهد، السلطة. استفاقت الأم: على اليمنى، على اليسرى. ثم هدأ الاثنان.

لكنهما تذكّرا السعر، الخسارة، التوفير، العمل، التوفير...على اليمنى، على اليسرى. على اليمنى من جديد على اليسرى...صارت يدا الطفل جذعين متعفّنين يطوّقهما تمساحان في ماءٍ عكر.

وفي المستشفى لم يكن هناك مفرّ من... بَتْر اليدين.

قال الطفل ، عندما صحا من حالة التخدير، متوسّلاً:

- بابا ، ماما، أعيدا لي يديَّ ولن أمزّق جلد المقاعد مرة أخرى.

ولم تنته الحيرة من هذه الظّاهرة عند هذا الحدّ. إذْ تبينّ أن عدداً من بائعي الخرفان المتنقّلين بين المدينة وضواحيها الشعبيّة، قد خُدّروا ليلاً، فانطلقت قطعانهم تجوب الأزقة والشوارع والحدائق.امتلأ قلب المدينة بالخراف. وبدأت تأكل عشب الحدائق، وتتحلّق حول تمثال ابن خلدون، وتعرقل السّيارات. ولعلّ السّيارات هي التي صارت تعرقل الخراف. كان كلّ سائق يريد أن يحصل على خروف ويرمي به في سيارته، فتوقفّت كلّ السيارات. وبدأ ركض الرّجال والخرفان.

تدفّقت الخرفان نحو الأسواق القديمة صاعدة نحو جامع الزيتونة وسرعان ما دبّ فيها ذعر جديد؛ إذ أُعْلِنَ عن اكتشاف وجود ذئب في المدينة. وقال شهود عيان إنهم رأوا الذئب يقفز فوق الخرفان مُنْشبَاً أنيابه ومخالبه، واثباً فوق السّيارات. ورأوه يبلغ تمثال ابن خلدون، ويقعي على كتابه البرونزيِ، ثم يقفز من جديد على موجات الصّوف والزّعيق.

وطوّقَتْه الشرطة أخيراً.

في تلك اللحظة تحديداً قفز الذّئب ثلاث قفزات وترك جلده يتوسّط الحلقة... فإذا هو: قزم راكض بثلاث وثبات إلى اليمين، وثلاث وثبات إلى اليسار، صائحاً: "احتفظوا بالجلد في متحف باردو كرمزٍ لحدثٍ تاريخي!"

وكان لابدّ من تشديد الحراسة حول المؤسّسات الحساسة حتّى لا يتسلّل إليها القزم... كان لابدّ من توقيفه.

(أسرع المسلّحون إلى ملاحقته. جاؤوا به في شبكة. أدخلوه إلى الغرفة السّوداء. صاح" دانتيلا" . مدّدوه على بطنه. عرّوا مؤخّرته. صاح رئيسهم"إليّ بالإبرة والخيط!" خاطوا مؤخرة القزم. تركوه يغادر غرفة الخياطة ويأكل ما يشاء. كان أوّل من رأيتُ فتبعتُه مثل فرخ إوز فقّس لتوّه... صاح القزم"ناووس!" وهجم يفترس كلَّ ما يتحرّك. ولما امتلأت معدته تكتّل كلّ شيء في المصران الغليظ. صار يركض ويصيح ويمزّق ويبقر... صار شاحباً أدكن. منتن العرق، متساقط الشّعر. بدأتُ أحكّ جلدي. ازداد القزم عصبيّة لم يعد يأكل. يصيح"قنبع! ناووس! دانتيلا! أريد العالم!" ركض المسلّحون نحوه. حملوه. نقلوه إلى الدّاخل . جاء رئيسهم وقال:" لقد تخشّب أخيراً، ضعوه في القفص" لاح القزم هادئا، مستكينا، متصالحاً مع قضبان القفص... خيّم الهدوء والصّمت... وفجأة... دوّى انفجار هائل، تزعزعت له أسوار القلعة... تشظّى القزم أشلاء... أفلتتْ منه أقزام صغيرة، متناهية في الصغر، وركضتْ إلى جيوب العساكر والمعتقلين.)

دَانْتِيلاَّ

أتدفّق مع السّوائل. أتشكّل من جديد. أتحوّل. أملأ الفراغات وسراديب الهواء. أتفحص

الثّقوب. تدقّ جانيت على السقف:

- لماذا خُلِقتُ أنثى؟

- الشّجرة أنثى يا جانيت. أيّ شيء تسمّينه يكون ذلك بكلمة. الكلمة أنثى.الأرض مؤنّثة. يُذَكَّرُ المطر عندنا لأنّه جاحد. جمعه مؤنّث. يؤنّث عندكم لأنه يهطل بسخاء. الصّحراء مؤنّثة الباطن. البحر حارس لموجاته وأشناته وعواصفه المؤنّثة. قضيب الذّكر أداة والأنثيان للأنجاب، يا جانيت.

هدأتْ جانيت. فهدأتُ بدوري. وعندما طلع الصّباح هجمتُ على الجدار. طرقت على جانيت وقلت: "لكنَّ مَنْ يسمعك تشتكين في الليل يقول: من المستحسن أن يكون المرء ذكراً!" لذلك سوف تعود الليلة. "من المستحَسن يا جانيت أن يكون المرء ذكراً ولا يسكن سقفاً. من المستحسن! هل سمعتِ؟" تركْتُها وخرجتُ متسلّلاً. راقبت القطط ثم اجتزت الشارع بوثبات صغيرة حذرة.

في الشّارع، رأيت حلقة نساء. تسلّلت تحت سيقانهنّ. هربن فزعات. لم أُخرج لهنّ شيئاً. أردت أن أرفع رأسي وأشمّ كلمتي تحتهنّ. لكنهنّ فزعن. تسلّلت عبر الجدران والنّفايات. لم تعد الرّائحة تزعجني. هي رائحتي التي أكسبني إياها القزم. ذَهَبَ وترك لي الرّائحة. قصدتُ المدينة العتيقة. تفاديت عمّال البلديّة والعجلات. توغّلت في أزقّة سيدي عبد اللّه قش. الأقدام كثيرة هنا. تتجوّل أمام أبواب النّساء. تسلّلتُ إلى باب تقف أمامه واحدة ترتدي كلمتي. اختبأت وراء الخزانة صاح الجرذ في بطني :

- ها ها...أنت لم تأكلني، أنا الذي أكَلْتُكَ!

- مَنْ منّا الآخر ؟

- ها ها...كلانا يبحث عن الدّانتيلاَّ!

- قنْـ...

- ـبعْ...

دخلت المرأةُ مرتديةً كلمتي. التحق بها زبونها. خلعتْ كلمتي وألقت بها على الكرسي فتدلّت حتى الأرض. تشمّمتُ طرفها. تهيّأ الرّجل وتمدّد فوقها، فتهيّأتُ للهجوم على الدّانتيلا.

- يا أحمق، هذا القميص من النايلون!

- ماذا أفعل ؟

- أُدخل إلى الخزانة. أرأيت؟ أنا لست أنت!

- دانتيلا !

- كلمتي: قنبعْ! أُدخل الخزانة .

- دخلتُ. كلمتي: ناووس .

- لن تجد الدّانتيلا هنا: قنبعْ!

- أين أجدها ؟

- خذني أدلّك. غيّرتُ كلمتي .

- ناووس. اركضْ! اركضْ!

- يركضون ورائي. تعبت .

- توقّف الآن. استرح قليلاً؛ اسمعْ!

- هنا صوت دانتيلا...

- تشمّمْ!

- رائحة دانتيلا .

- انظرْ!

- لست أرى ...

- قنبع! تقدّمْ أدلّك!

- تقدّمت .

ألهث. تفوح الرّائحة. دانتيلا بعيدة تطغى رائحتها على ياسمين الحدائق. أهجم. أختبئ وأترك أنفي.

- دانتيلا!

- كلمتي: ناووس، أنتظر النوم.

- دانتيلا!

- سيرفسونك ، أوقيانوس!

- دانتيلا!

- سيفقأون عينك.

- دانتيلا!

- سيجدعون أنفك.

ظلّ الجرذ يشدّ أمعائي. يمنعني من التقدّم نحو امرأة الدانتيلا. هو يشدّ ودمي يتدفّق نحو رأسي. هو يهصر وعروقي تتدفّق. رأسي يمتلئ. عيناي تتّقدان. أنفي يطول. جفناي معدنيّتان. الرّيش يغزو جسمي. صار لي جناحان. طرتُ إلى شجر الليمون. تركت الجرذ تحتي يحاول اللّحاق بي. فتحت عينيَّ. أفردت جناحيَّ. أدرتُ رأسي دورة كاملة. أخرجتُ مخالبي. انقضضتُ عليه... بدأت برأسه. بلغت بطنه. ابتلعت مؤخرته. اختفى ذنبه.

- لم نعد اثنين! قلت له.

- أكلتَ نفسك! قال لي .

- أكلتُك أنتَ، يا قنبع!

-لن تأكل الدانتيلا؛ كلمتي أوقيانوس!

نهايات مُحتَملة

مفاجآت جابر الثلاث

خَفّت لقاءاتي مع جابر بعد أن روى لي حكاية "شمس القراميد". كنت أنا المسؤول عن التّهاون في الواقع. كان ذلك بسبب الشّفقة. والشّفقة لا تصنع صديقاً كما هو معلوم. لكنني كنت مقصّرا في ما تستدعيه الشّفقة من واجب العون والرّعاية. وازدادت قناعتي بتلك المشاعر عندما لمحتـه ذات يوم تحـت جدار الكارلتون يمرّ برأس مائل قليلا، ووجنتين عاليتين ازداد نتوؤهمـا، وعينين يسكنهما بريق بارد. لكن ما أذهلني، من دون أن يفاجئني، هو شفتاه: أن يتكلّم وحده ووجهه ملتفت إلى الجدار!كنت أقدّر أن ذلك سيحصل من دون أن أعرف متى...

لمحت عنفوانه منكسراً. ولم أكن بمفردي، فتجاهلته. ومع ذلك توقّف انتباهي لمُرافقي، ولكلّ شيء في الشارع، عدا رؤية جابر سائراً برأس مائل، وشفتين توصّلتا إلى إنهاء أثر المفاجأة بعد لمحة واحدة. لقد صار يتحدّث وحده أخيراً، بينما جمهوره، أو ما يُفترض أنه بعض جمهوره، يزدحم في قلب المدينة؛ كان جابر يشيح عنه بوجهه ويحدّث الأشباح على الجدران، فيما عصافير العشيّة تمطر الناس سَلْحاً وتطيرُ سُحُباً داكنة في سماء العاصمة. (رأيتُك يا جابر في ذلك المساء؛ كنت تحدّث نفسك. ولم أجرؤ ؟ لم أرضَ أن أشفق عليك...)

قبل ذلك فاجأني بزيارات ثلاث لم يكن هدفها جلوسنا معاً من أجل "شمس القراميد". وكانت زيارات غير متوقّعة حقّاً. أضفْ إلى ذلك أنها كانت تُخفي لي، في كلّ مرّة، مفاجأة من نوع خاص.

في زيارته الأولى جاءني برفقة رجل قصير القامة ممتلئ الجسم وقال:

- جئتك اليوم بشخص آخر من الماضي!

سألتُه متمعّنا في وجه الرّجل السّمين:

- منْ ؟

وضع جابر يده على كتف الرّجل وأجاب:

- هذا شاويش الجبس عاد من ألمانيا!

- شاويش الجبس ؟

- نعم!

وعندما لاحظ استمرار دهشتي انطلق قائلا :

- شاويش الجبس، بوسطل الذي حدّثتك عنه وكان يدفن النّمل والجعلان. بوسطل المهووس بسدّ الثّغرات وحراسة الثّقوب...هاهوذا! لقد كبر وهاجر، وجاب الشّرق والغرب. رعى الخنازير وكنس الشّوارع. وعاد، على الرّغم من مصائبه، أكثر سمنة وقصراً. لكنّه صار أكثر ثرثرة مع عبارة واحدة يستبدل بها الثرثرة إذا رغب في التزام الصمت: كلّ شيء نسبي.

- كل شيء نسبي فعلاً! قال بوسطل .

- كيف عرفتَ ذلك ؟ سألتُه ممازحاً.

- كلّ شيء نسبي، أجاب، حتى المعرفة!

- ماذا كنتَ تعمل هناك، في البلدان التي زرتها ؟

أسرع جابر إلى الإجابة عنه:

- عمل في كل شيء: البناء، الطّبخ، النّجارة، الطّباعة، بيع الجرائد، قطف العنب...

- والآن ؟

- عاد. لكنّه وقَعَ في فخّ مطلَّقتَه. تلك حكاية أخرى. المهمّ أنه مفلس الآن، وعاطل عن العمل. وهو يبحث عن شغل. قلت آتيك به ليعمل عندك.

- عندي ؟ أين ؟

- يحرس أرضك الجديدة المنزلقة، وربما يساهم في بناء الفيلا...

- لكنّ أعمال البنّائين متوقّفة الآن. وأنا أحتاج إلى الاختلاء بنفسي هناك، للكتابة بعيداً عن الضّجيج والإزعاج.

- صدّقْ انه لن يزعجك حتّى يكتمل البناء؛ وسوف يضمن لك حراسة المبنى. ومن المعروف أنه لا يتدخّل إلا لسدّ بعض الثغرات في هذا الجدار أو ذاك السّياج، مع إصلاح بعض العيوب.

ظلّ بوسطل طفوليَّ الملامح برغم مصائبه وإمعانه في السنّ. وأدركت بمرور الأيّام أنه ظلّ يتميّز بالتّفاني والتفرّغ الجادّ إلى كلّ ما يشغله. غير أنه لا يكفّ عن التّشكيك في كلّ مبادرة يأتيها حتى ليبدوَ عاجزاً عن إنجاز أيّ شيء. رضي بالحدّ الأدنى، كما قال لي، لأنّ كلّ شيء نسبي، حتّى مدَّخراته السّابقة التي تبخّرتْ. ومع ذلك عهدتُ إليه بحراسة قطعة الأرض السّاحليّة، والإشراف المتقطّع على أعمال البنّائين، أيّام حضورهم، على أن يتصرّف معهم في بناء كوخ خشبي يأوي إليه إن شاء.

المفاجأة الثانية التي أعدّها لي جابر حَدَثَت ذات يوم، عندما كنت منشغلا بتفريغ محتوى بعض الأشرطة التي سجّلتها بصوته عن حكاية "شمس القراميد". وكان قد رفض لجوئي إلى التسجيل في البداية، ثم وافق على ذلك. تعبت كثيراً في صياغتها وتخليصها من شوائبها الشّفهية، ومن التّكرار والتّناقض، وما إلى ذلك. كنت في مكتبي عندما جاء ابني قافزاً كعادته:

- بابا.. بابا...رجل بالباب، قال لك "ديوني".

أسرعت إلى الباب وراءه لكنّني لم أجد أحداً. زمّ ابني شفتيه وقَلَبَ كفّيه:

- كان هنا يا بابا!

كنت أتأهّب للدّخول ثانية عندما لمحت قرب عتبة الباب علبتين صغيرتين مقلوبتين، ومجموعة نباتات خضراء، أكّد لي ابني أنه لم يأت بها. تحت العلبة الأولى وجدتُ دودة ميتة. وتحت الثانية وجدت جُعلاً ميتاً بدوره.أما النّباتات فكانت واضحة ومعروفة: ضمّة عشب أخضر، عود جيرانيوم، وغُصَيْنُ ليمون. كيف اقرأ هذه الرسالة الغامضة؟ ماذا تعني هذه الرّموز؟ أكان مازحاً أم ساخطاً؟

أما المفاجأة الثالثة فقد حدثت أثناء غيابنا عن البيت.

كنتُ وأسرتي في ضيافة صديق دعانا إلى قضاء بضعة أيام في جزر قرقنة؛ ولدى عودتنا انتبهتُ إلى قُصاصة مدسوسة تحت الباب. حسبتها فاتورةً، كما هو معتاد. تناولتها فإذا هي ورقة مكتوبة بخطّ رديء. وصدمتني بدايتها أوّلاً: "عزيزي اللّعين..." وعندما أمعنت فيها، أدركت أنني لم أنتبه إلى همزةٍ فوق الألف الأولى :

عزيزي أَللّعَينْ أيضاً يد ُ،

تتسلّل دوماً إلى الخصْرِ والأجَمَه؟
أَلِلْعَينْ أنفٌ، وأُذْنٌ ؟
عجزتُ ، وبي قد كَبَتْ فَرَسُ الكَلِمَهْ.

توصّلت إلى أنّ الأسلوب أسلوبُه؛ ولاسيّما من خلال الكلمات الكثيرة التي يشبع بها الوزن: أيضاً، دوماً، قد...وكذلك حروف العطف. بعد ذلك قرّرت أن أزوره. لكنني مررت لرؤية بوسطل قبله كي أتفقّد أرضي، وأعاين ما توصّل إليه حتّى الآن مع البنّائين الذين لا يطلّون على المبنى الناقص إلاّ مرّة كلّ شهر أو شهرين، عندما أدعوهم إلى ذلك. وجدت بو سطل قد حفر حفرة كبيرة، لم تكن موجودة، ولا أذكر أنني أمرت البنّائين بحفرها. سألته عنها فأجابني :

- بيت بلا بئر ، وأنت على طبقة مياه ؟

- وهل تنقصنا المياه المالحة ؟

- بالعكس، البئر تضمن لك مراقبة الباطن وقياس المنسوب.

وأزعج شاويش الجبس بقيّة البنّائين بطلباته وملاحظاته، حتّى صار بوّاباً حقيقيّاً قبل اكتمال الباب! أحيانا لا يعجبه العجب العجاب فيتخاصم مع الجميع، ويأمرهم بأن يكفّوا عن العمل المغشوش. وعندما أحضرُ يقف منتصباً أمامي، متخلّيا عن سلطته التي استعارها منّي، مردّدا أمام العمّال: "نعم سيدي! حاضر سيدي!"

تركتُه وقصدتُ عنوان جابر، في حلق الوادي. وجدت الفيللا التي يسكنها شبه مهجورة. دفعت باب الحديقة ومشيت على أعشاب يابسة وأشواك صيفية. وكانت هناك عظايات وحشرات كثيرة تهرب من خطواتي. ولم أكد أطرق الباب وأمسك بأكرته من الخارج حتى وجدت جابر يمسك بها من الدّاخل، ويفتح كأنّه كان ينتظرني. حسبت أنه فقد بصره، بسبب تلك النظّارة السوداء التي يضعها، فيما بدت ضمادة بيضاء على عينه اليمنى. سألته عمّا أصابه، فتهرّب قائلاً:

- حسبتُكَ دليلة!

- لاشك أنك تنتظر امرأة. لكنك لم تخبرني ، ماذا أصاب عينك؟

لم يجب فعدت إلى موضوع المرأة :

- ربمّا زرتُك في وقت غير مناسب وأنت تنتظر امرأة ؟

أجاب بهدوء وهو لا يزال واقفاً:

- هي صاحبة البيت. لكنني في الحقيقة أنتظر مجيء عمر.

وما هي إلا لحظات حتّى وضع يده على أكرة الباب ودخل عمر. فقال جابر:

- المشكلة أن دليلة ستأتي أيضاً.

تدخّل عمر غاضباً:

- قلت لك ينبغي أن تتركها وتعود إلى كاف الحجر.

فابتسم جابر بمرارة وقال هامساً :

- هيهات أن أعود إلى ما فات...

عاد عمر إلى غضبه:

- هناك، على الأقلّ، تجد من يستر عيوبك بعيداً عنها!

ثم التفت نحوي وأكمل :

- هو لا يصرّ على البقاء في هذا البيت بسبب دليلة صاحبة البيت، بل من أجل جانيت.

- جانيت ؟

- نعم؛ لست أدري من حشا دماغه بوجود عشيقة فرنسية تسكن في السّقف واسمها جانيت أيضاً! لقد فقد عقله...

أشار جابر إلى السقف وقال بنبرته الساخرة التي لم تعد تفارقه :

- الروح هناك، فوق، واللّحم عند دليلة.

صاح عمر :

- عندك لحم في القرية وعليك أن تختار من هناك.

ردّ جابر :

- اخترتُ فأوصلتني القرية إلى هنا .

خرج عمر ساخطاً وصفق الباب وراءه. وعندما سعيت إلى تهدئة جابر وجدته هادئا لا يحتاج إلى جهدي. قلت له:

- اسمعْ! ابقَ هنا. لا تذهب إلى القرية. وتزوّج دليلة.

- وجانيت ؟

أجبته ممازحاً :

- دع المعركة تتواصل بينهما.

- ومَنْ قال لك إنّ دليلة ستقبل بأن تكون طرفاً في المعركة، وتسكن هنا؟ هذا إذا كانت لي أية رغبة في الزواج منها كما تقترح!

- لم يعد هناك خيار، يا جابر؛ هل تستطيع العودة إلى القرية؟

- لا .

- هل تستطيع التخلّي عن جانيت ؟

- لا.

- ودليلة ؟

- لا.

- وأنا ؟

همهم جابر قليلا ثم أجاب :

- لا .

- وعمر ؟

- لكنّه يريد أن يجبرني على العودة .

- سوف أقنعه .

وبالفعل، ذهبتُ إلى المدجنة وحاولت إقناع عمر؛ لكنّه أصرّ على موقفه:

- ستجده ميتاً، ذات يوم!

- وإذا عاد إلى القرية، ألن يموت في الطريق ؟

- موته هناك أفضل من الفضيحة هنا!

- عن أيّة فضيحة تتكلم ؟

- ألا تعلم كيف فقد إحدى عينيه ؟

- كلا.

- يتلصّص على نساء الخَلْق. لا يوفّر ثقباً مفتوحاً أو فرجة...

- كثيرون غيره يفعلون ذلك... لكن كيف فقد عينه ؟

- وقع في فخّ امرأة يتلصّص عليها. أخبرتْها جارة لها، تعاني من الأرق بسبب تقدّم حَمْلها، أنها تشاهده يتلصّص عليها كلّ ليلة في ساعة محدّدة. فأخبرت الزوجة زوجها. فما كان منهَ إلاّ أن تربّص به وهيّأ إبرة طويلة لحياكة الصّوف من سلّة زوجته. وعندما لمحه يتلصّص بشكل موارب، غرز الإبرة في عينه!

- لا أصدّق! هذه جريمة! ألم تنجرّ عنها مضاعفات قانونية ؟

- ومن الذي كان سيلجأ إلى القانون؟ أين كنتَ كلّ هذه الشهور ؟

- لن يعود إلى مثلها الآن!

- ومن قال لك ذلك ؟ هذا الرّجل تحرّكه عين في الذاكرة...

- لكنه صار يرتاب من الثّقوب. ألم تلاحظ أنه يحشو ثقوب أبوابه بالورق؟ لعلّه كفّ عن مراقبة الآخرين؟

- بل لأنه لم يعد يراقب صار يخاف أن يراقبه الآخرون. وقد يكون لذلك علاقة بتوهّم آخر...

- آخر ؟

- مراقبة جانيت له، مثلا؛ إنه يعيش في جحيم من الوساوس!

- معنى ذلك أنه مازال يدمن اللّعبة نفسها .

- نعم؛ وهل هي لعبة ؟ قلت لك إنّ له عيناً في الذاكرة. ولاشك أنها تعمل الآن حتى شفاء عينه السليمة من صدمة أختها المفقوءة!

- إذاً له عين في الذاكرة...

- ولذلك أيضا أريد مساعدته على العودة إلى كاف الحجر.

- إذا فعلت ذلك قتلْتَه!

- لماذا ؟

- لا تستهنْ بشراسة الذاكرة يا عمر. سوف يعود ولو زحفاً على بطنه!

- أعرف ذلك. أخذته أكثر من مرّة إلى شقّتي لكنه عاد إلى بيته.

- إذاً؛ دَعْه!

- لا أنوي أخْذَه إلى القرية...

- إذاً ؟

- أريد أخذه إلى المستشفى.

- المستشفى ؟

- نعم. لقد جنّ!

- لا أجده مجنوناً. يعاني من بعض الأعراض العُصابية فقط، وهي أعراض موجودة عند الجميع وإنْ بدرجات متفاوتة، ولا تبلغ حدّ الذُهان.

- لكنّ الجميع ، الذين تتحدّث عنهم، لا يشعرون أنهم جرذان أو فئران!

- هو يشعر بأنه كذلك ؟

- نعم! قال لي إنه مجرّد فأر صغير، "فأر بوتميرة " خرج من بطن الجرذ الكبير، والجرذ الكبير كان في بطن القزم، والقزم كان يقف على كتفيه. هاتِ حلّ هذا اللغز؛ اسكنْ معه وسوف ترى وتسمع!

قلت لعمر وأنا أودّعه مُطَمْئِناً :

- اسمعْ يا عمر، أُترُكْه لي ولا تخفْ!

سهرة لاذعة مع شاويش الجبس

حيّرني سكوت بوسطل عن حالة جابر. وخمَّنتُ أنه ربمّا يكون قادراً على مساعدتي في فهم شخصيّة جابر والدّوافع التي تحرّكه،ونتائج ذلك كلّه على مستقبله. وذلك على الرّغم من مراوحة شاويش الجبس الدّائمة بين انتقاد كلّ شيء واعتباره نسبيّاً، نسبيّاً تماماً. سألته عن رؤيته لما يحدث ويصيب جابر، فلزم الصمت في أكثر من مناسبة. والمرّة الوحيدة التي تكلّم فيها، حدث ذلك مثل السّيل.

وجدته محاطاً بقوارير البيرة. يشرب ويغنّي. فوجئ بزيارتي الليليّة وتملّكه ارتباك عارم. هَدَّأتُ من روعه وجالسته كي يطمئن أكثر. وقبل انتصاف الليل سألته سؤالي الملحّ، حول حيرتي المستمرّة إزاء مصير جابر، ومصير هذا المبنى الذي لا يكتمل. فاندفع بوسطل بصوت كأنه يأتي من صمت مقبرة:

- يتّهمونني بأنني النّكد عَيْنُه. أعرقل كلّ شيء. والحال أنّ كلّ شيء نسبي. كلّ شهر يمرّ، كلّ سنة، أقول ستتحسّن أوضاع معلّمي ويتحسّن معها وضعي. لكنك تتركني مرتبكا في الطّين أمام بئر عارية وعمّال كسولين وإمكانات محدودة. توهّمت الأفضل في جابر. لكنّه يتحطّم وراء وَهْمِ اسمه مريم. لقد رآها مرّات قليلة. وطلبتْ منه أن يكتب لها بعض الأغاني. كان يزورها ذليلاً، مرتبكاً، وهي تنظر إليه من عليائها، جالسة بوقار على أريكة الصّالون، فتبدو أمامه وارفة

الكتفين، بل سنديانة توشّحها غيمة خفيفة هي روحُها البعيدة التي لا يُسبر لها غور. تضع ساقاً على ساق فينزاح طرف فستانها الأسود مثل جناح خطاف يلامس سطحاً مائيّاً في الهاجرة. تتكلّم فتبتعد. تسكت فتبتعد أكثر. تبتسم فتتلألأ أسنانها المرصوفة جيداً والمنبثقة عن استدارة الحمرة على شفتيها النّافرتين. عندئذ يحس جابر بأنها له. يهجم عليها كما لو كانت شجرته التي غرسها بيديه وأتتْه بثمارها، أو لُعبته التي وضعها بنفسه هناك، قبل قليل، وعاد لاسترجاعها...

- لكن من أين لك هذه التفاصيل ؟

- أُغْمِضُ عينيَّ فأراها... تتلاشى ظلال اللّوحة أمامه ولا يتبقّى في الإطار سوى شعاع المرأة. يمدّ يَده ثم يلتحق بها مطاوعاً حلمه. يتمدّد وراء يده ويحتضن هواءً وذُرَيْرات كريستالية رطبة، محاولاً تشكيل مريم نَضرة، طريّة، يعجنها بيديه ويعيد تكوينها. لكنها تتشنّج ولا تريد الانسياق مع حركاته، فتستجمع قواها وتدفع بذراعيها ووركيها حتى يصطدم بمائدة خلفه أو كرسي أمامه "ما بك؟ أجننت؟" تقول له. فلا يراها بعد ذلك، إلاّ صورة متعالية تلاحقه أينما حلّ. ولا يدري عندما ينصت إلى صوتها أو يرى صورتها؛ أهو يحيا أم يموت. لماذا لا يكون علاج جابر في دخول السجن؟

- السجن ؟

- نعم، السّجن! لماذا تحاول مساعدته أو إنقاذه وأنت لا ترى بعينيه ولا تحبّ بقلبه؟ قد يكون في السجن مستقبله!

- كيف ؟

- السجن قد يعلّمه الصّراخ فتتمدّد حباله الصّوتية، وتهتزّ خاصرته، ويخرج على الناس في مهرجانات حافلة، ويحقّق شهرة تتجاوز شهرة مريم. وبذلك يتمكّن من سحق أضوائها بأضوائه أو الاكتفاء بتزاوج الأضواء.

- اسمعْ يابوسطل، أنت تهذي. حتى إذا سلّمنا بأن السجن مفجّر مواهب وحاضن ملَكَات، هل يتوفّر جابر على صوت واعد؟ لا أدري أين كنتَ تخفي كلّ هذه القسوة!

- أنا شخصياً أنظر إلى النساء من طرف عيني. أعرف متى أتورّط ومتى أنجو بجلدي...

- ربما لأن كلّ شيء نسبي عندك!

- أستطيع منع أي امرأة من طرق بابي كما أستطيع استقبالها قبل أن تقرّر طرق الباب.

- أنتَ بوّاب حتى على قلبك!

- ويمكنني دفنها أيضا. لقد حفرتً وطليتُ قبوراً كثيرة في أوروبا. ولكلّ قبر قصّة. لا تسألني الآن كيف كان ذلك حتى لا تتورّط في حكاية جديدة!

- (آه...)

- لقد حدّثني جابر عن القزم أيضاً، وعن أفعاله في المدينة. فأكّدت له أنني قادر على قتل الوهم بيديّ هاتين. لكنْ ، أتعرف ماذا حصل؟

- ماذا ؟

- انتهى بي الأمر إلى رؤية القزم في المنام. قادني من عزلتي ممسكاً بيدي مثل صديق قديم. بقيت أمشي تسبقني يدي، في يده، إلى مكان يريده "هناك سأرقص رقصتي الأخيرة!" قال لي. ولم أفهم قصده، حتّى تمكّنت من رؤية مكان غامض أحسست بأنّ فيه جثّة. عندئذ قال

لي القزم قافزاً : "صنعتُ لك رؤيا!" وعندما استيقظت من النوم هلعاً، ظلّ صوت القزم يتردّد في أذني: "أنتَ رأيتَه. أنت قتلتَه، اُركضْ وانشر الخبر في المدينة!" لكنه مجرّد حلم. وهذه أوّل مرّة أرويه. حتّى جابر، فضّلتُ أن أخفيه عنه...

- تحت سطل من الجبس!

- أنت لا تدري ماذا يحدث في قرية كاف الحجر الآن، أو ربمّا تتعمّد تجاهل ذلك. هل يهمّك مصير القرية، والمزرعة، ووالد جابر؟ هل يهمّك دخول الماء والكهرباء والهاتف ؟ ربمّا كنت على حقّ؛ لنترك الآخرين يواجهون مصائرهم بعيداً عن مشاكلنا اليومية.

- هل تخشى الحديث عن أسرار الآخرين ؟

- ليس دائما، لكنني أحافظ على كتم أسرارك.

- لماذا ؟

- لأنني التجأت إليك واستقبلتني بتواضع...

كرع شاويش الجبس جرعة كبيرة من الزجاجة مباشرة. وبعد حازوقتين قال:

- لي علاقة هشّة بالحراس الآخرين في الجوار. آخذ منهم أسرارهم، مادامت معروضة عليَّ، ولا أعطيهم أسراري.

- لستُ أدري، قد يكون من الأفضل لك أن أرسلك إلى بعض الأصدقاء ليتوسّطوا لك في عمل آخر...

- أنا مرتاح معك؛ لكنني لن أرفض عرضك إذا كان يرضيك.

- الحياة صعبة يابوسطل، أنا شخصياً أفكّر في افتتاح مشروع تجاري صغير؛ غير أنّني لا أجد شخصاً ثقة.

- أيّ نوع من المشاريع ؟

- ما رأيك في اختصاص من اختصاصاتك المتعدّدة ؟

- أنا مستعدّ!

- منّي رأس المال، ومنك الجهد.

- موافق .

- ما رأيك في مشروع "صيانة ودهان"؟

- في استطاعتي ممارسة أعمال أخرى كثيرة تحت عنوان "الصّيانة" تماما كما فعلتُ معك حتّى الآن...

- وماذا فعلتَ معي حتى الآن؟ ثقبتَ أكثر مما بنيتَ ، وسَكِرْتَ أكثر مما عملت!

انتفختْ عروق شاويش الجبس. طأطأ رأسه ونظر إليّ من تحت جفنيه :

- أنت تعيّرني الآن بما هو حَسَن فيَّ !

- وما هو الحَسَن فيك ؟ عيوب الآخرين ؟

- تعاملي معك .

- تقصد مع عيوبي ؟

- لم أقصد ذلك .

- اسمعْ يابوسطل: ليس صحيحاً أنك تحرس أرضي وتسدّ الثغرات في عمل البنّائين الآخرين. صرتَ ثغرة مزمنة في هذا المكان. والدّليل على ذلك هو هذه البئر التي حفرتها. رأيتك عاطلاً عن العمل فقلت أساعدك بمقدار ما أستطيع. أتساءل: ماذا استفدتَ من هجراتكَ؟ لقد تعلّمت كلّ شيء، ولم تتعلّم شيئاً، ربما لأن كلّ شيء نسبيّ لديك. لذلك تقلّبت ومازلت تتقلّب معرقلاً نفسك والآخرين. والآن؛ أريد أن أعطيك من رأسمالي، ومن أتعابي وأوقاتي، حتى تفتح ذلك المشروع، فلا تتطاول كثيراً، أرجوك!

- لم أتطاول يا سيّدي. والمشروع مشروعك أوّلا وأخيراً.

- أعتقد أن الهوس بتقويم العيوب وردم الثغرات وطلي اللطخات، إذا بالغت فيه، صار مرضاً. أجمل بيت، في نظري، هو البيت الذي له شخصيته، أي جماليته وعيوبه، بما في ذلك عَنَاكِبُه ونملُه وغباره... فلا تنظّفه كثيراً حتى لا يتحوّل إلى تمثال، أو قبر جندي مجهول، أو حتى بيت عجوز مصابة بهوس تنظيف بيتها في الدّنيا، وعينها على ظلمة بيتها الموشك...

- نعم سيدي، أنا تحت أمرك، لا تؤاخذني. أشرْ إليّ بإصبعك وأنا أنفّذ ما تريد. لي عندك طلب واحد...

- وما هو ؟

- أن تناديني باسمي الحقيقي: عَزُّوز.

-آه! عزّوز! عزّوز المرداسي! لقد أنسيتني إيّاه .

- بل جابر هو الذي أنساك إياه .

- لماذا ؟

- لأنّه قدّمني إليك بأسمائي القديمة .

- أنت متعدّد الأسماء والمنافع. حاول أن تبني بيتاً شخصياً، لك، وسوف تسكنه العيوب. ولن تكون مرئية-صدّقْ!- إلا للآخرين.

- لكنني أنطلق من شعورك بالتقصير... وبالمناسبة هل تسمح لي بنصيحة؟

- ما هي ؟

- صاحبْ ابنَكَ قليلاً، رافقْه إلى أماكن يحبّها، لا تتركه يُدْمِنُ عزلته. أمامك جابر آخر قد تقتله!

- ماذا ؟ ها إنّك تتجرأ على إنهاء السّهرة بالتدخّل في ما لا يعنيك...

- لكنني استأذنتُ منك وسمحتَ لي بذلك. نيّتي ليست سيئة، أرجوك، لا تنس أنك كلّفتني بمشروع الصيّانة والدّهان؛ أنا في انتظار قرارك النهائي.

- الحقيقة، ليست لي ثقة حتى في شخصك! الفلوس تعمي وتصمّ!

- أنت حرّ إذاً...

- وكل شيء نسبي كما تقول!

- سيدي، لا تنس الاعتناء بأوراقك المكدّسة في خزانة المطبخ، قد يستهين بها العمّال أو...

- ألم أوصك بحفظها ؟

- أعتذر لك مرة أخرى...لقد سمحت لنفسي بقراءتها...ومهما حصل، لن أشاركك في المشروع...

- لماذا بدأتَ تغيّر رأيك؟

- الحقيقة، بدأت أخشى التورّط معك أكثر...

- سألتك عن السبب...

- السبب هو خوفي من أن تفعل بي ما فعلته بجابر...

- أنا ؟

- نعم .

- كيف ؟

- ألم تتخلّ عنه حتى الآن، والحال أنه هو الذي عرّفني عليك؟ بتّ أتحسّب لما حدث وما قد يحدث...

- وهل أنا السبب في كلّ ذلك ؟

- أو هو، لا فرق، كلّ شيء نسبي، أليس كذلك؟

- ولماذا تلبسني المسؤولية في ذلك ؟

- تريد الصّراحة ؟

- لِمَ لا ؟

- أنت الوحيد الذي لم يبادر إلى رؤية مريم حتى الآن. كلّهم رأوها، وحاولوا المستحيل من أجل جابر. فلماذا لا تحاول بدورك؟

- ولِمَ أفعل ذلك ؟

- قد تتحوّل الأحداث، بفضل تدخّلك، إلى صالح جابر...

- لست مقتنعا بجدوى هذه المبادرة حتى الآن .

- لكنّك تعرفها منذ الطّفولة. ثم لا تنسَ أنها أقامت فترة في بيت أهلك، وشاركتْ في تربيتك أيضا!

- نعم. لا أنكر ذلك .

- إذاً...

- أنا متزوّج كما تعلم؛ وأخشى ما أخشاه أن ينهار البيت...

- تخشى زوجتك؟ وهل لك ميول تخفيها تجاه مريم ؟

- اسمعْ يابوسطل! لا علاقة لي بعالم المغنّين والمغنيات، ولا تعجبني موجة الأغاني الجديدة.

- كلامك لم يقنعني؛ ما دخل الغناء هنا؟ هل تعترف بجابر فاشل، ولا تعترف بمريم ناجحة؟

- لست أدري كيف ستتطور الأحداث إذا قابلتُها، قد ترفض ذلك، وأنا لي كبريائي كما تعرف.

- لماذا ترفض مقابلتك؟

- لأنني قد أذكّرها بماضيها!

- ماضيها ؟

- عندما كانت عندنا، كانت أقلّ من مربّية وأفضل من خادمة.

- لقد تغيّرت ظروفها الآن.

- ولأنّها تغيّرت تحديداً؛ قد تتقبّلني بازدراء وتعالٍ، كما فعلتْ مع جابر بالضّبط، لأننا نذكّرها بذلك الماضي! ثم عمَّ سأحدّثها ؟ عن ماضيها، أم عن نجاحها، أم عن احتمال فشلها؟

- حدّثها عن جابر.

- عن جابر، مباشرة ؟

- لِمَ لا ؟

- أستطيع توقّع ردّها: اِنصحْ جابر بأن ينسى كلّ شيء.

- لماذا تعتقد ذلك ؟

- هل تتذكّر مريم قريتَها، كاف الحجر، حتى تتذكّر جابر، أو تتذكّرني؟

- وما أدراك ؟

- النّجاح، السلطة، الشهرة... كلّها أسباب تخلق من الشخص شخصاً آخر، يابوسطل!

- هكذا ؟

- الأهمّ من كلّ ذلك أنني لا أرى مريم، الآن، إلاّ من زاوية كونها متبلورة عشقاً في ذهن جابر. وهذه الصّورة الخلاّبة من الخارج، تستطيع من الداخل - بل استطاعت - إتلاف دماغه.

- عليك أن...

- إذا قابلتُها الآن وهي لا تزال تعيش بعض تألّقها ونجاحها، سأجدها كومة عواطف ناجحة، أي باردة تجاه من يزعجها بحبّه - الشخصي - القديم !

- لاشكّ أن كلَّ مَنْ قد تحكي له قصة جابر أولاً، ثم يرى مريم لاحقاً، سوف يقول: إذًا، هذه هي مريم التي سلبت دماغه؟ إنها امرأة عادية من لحم ودم...

- لكنها نجمة! لا تنسَ أنها نجمة! والكائن الأرضي لا يستطيع التعلّق بنجمة إلا إذا ظلّ يعبدها من تحت، مكتفياً بنورها الموزّع على الجميع...

- ما الحلّ إذًا ؟ هل ستترك جابر يفقد عقله، وربما يموت؟

- اسمعْ! إذا نجحتْ مريم وصارت مطربة كبيرة كما تطمح؛ انتهى جابر. أمّا إذا فشلتْ فإنّ هناكَ أملاً في عودتها - ككلّ من يُفلس! - إلى أوراقها القديمة؛ وفي أوراقها القديمة يوجد

شخص مستعدّ لاحتضان فشلها؛ إنه جابر!

- يا لها من معادلة!

- لذلك لا يمكنني التدخّل إيجابياً إلا بعد مراقبة مسيرة مريم الفنّية!

- أنت تنتظر فشلها إذاً ؟

- كلّ مطربة تظهر على الشّاشة، أو تسافر إلى الشّرق موقّتا، لا تحقّق نجاحاً بالضّرورة، قد تعود فاشلة مقهورة!

- أهذا هو الحلّ ؟

- هل ترى غيره، يابوسطل؟

- لست أدري. لا يهمّني نجاحها أو فشلها، كلّ ما يهمّني الآن هو جابر.

- إذاً، يهمّك فشلها!

- يا لها من معادلة! لكن، في النّهاية، كلّ شيء نسبي!

-كلّ شيء نسبي، اتّفقنا، بما في ذلك النّجاح!

يا جابر! أنت في الدّاخل، أعرفُ ذلك!

غابت أصوات عائلتي الصّغيرة، لتدوّي في أفراح ابنة أختي، وبين تقاطع الكتابة والصمت، قلتُ : أذهب لزيارة جابر، وربمّا للإقامة معه بضعة أيام إذا تسنّى لي ذلك. عندما وصلت أمسكت بأكرة الباب من الخارج من دون أن أطرق أو أفتح، إدراكاً منّي أن جابر يمسك بالأكرة من الدّاخل. فتح الباب بسرعة وكان شبه عارٍ؛ حثّ الخطى نحو غرفته معتذراً :

- أرجوك، أنا الآن معها، وهي عارية؛ انتظرْني قليلا في الصالون.

جلستُ متأملاً. طال بي الانتظار ولم يخرج جابر. شعرت بالحرج وفكّرت في المغادرة. لكنه قد يؤوّل ذلك ويغضب. كيف أعتذر له ؟ حاولت التنصّت. كان الصّمت يغمر الغرفة، ولا يمزّق هدوءه سوى الهمس "دانتيلا" ثم يعود الصمت " دانتيلا بيضاء" همس "دانتيلا سوداء" يطبق الصمت من جديد فتتوالى ألوان الدانتيلا: حمراء ، وردية، بنفسجيّة...

شكَكْتُ في وجود دليلة معه. لكنَّ ثقب الباب مسدود بالورق. ولا يمكن الاستجابة لإغراء التلصّص على ما يحدث داخل الغرفة من خلال الثّقب. صار جابر يخشى أن يُراقب فيحتاط للأمر. من يدري كيف يرى الأمور هذه الأيام؟ ران الصمت قرابة الساعة. عيل صبري وقرّرت طرق الباب والاعتذار. فتح جابر باب غرفته؛ دهشتُ :

- لكنني لا أرى امرأة معك!

أشار إلى الفراش، بملاءاته ووسائده المبعثرة؛ وقال :

- جانيت كانت هنا...

- كانت نائمة معك؟

- كنتُ أدغدغها فتضحك.

- وهل تجيد الضحك ؟

- أيّ شيء تدغدغ جلده يضحك.

- وهل لجانيت جلد ؟

- جانيت لها قصة. وعندما تدغدغ جلد القصة تضحك الكلمات.

لاحظت طيلة الأيام الثلاثة التي أمضيتها معه، أنّ كلّ جديد يدخل عالمه، يتأمّله ثم ينشئه من جديد بطريقته الخاصة، فيخضعه إلى معالم ناتئة في عالمه الشّخصي. هكذا يتعرّف على الناس والأمكنة والمدن. حدّثني عن رائحة كلّ مكان يعرفه، ونبرة كلّ إنسان، وطريقة حضوره عبر الرّائحة والصّوت...والظلّ أيضاً .

لايشعر دائما أنه تحوّل. تنتابه الحالة بتقطّع. فيتناوبه الصّفاء والسّلوك الجديد باعتباره "كذلك"، أي فأراً. يغتسل ويحلق فيبقى إحساسه بوجود ما غسله وما حلقه. كأنما يغسل رائحة الفأر ويحلق وَبَرَه. يغسل كيانه الداخلي ويحكّه بحركات عصبيّة لا تكلّ. ومع ذلك لا يمكن لمن يراه أن يدرك بأنه يعيش مثل تلك الحال، إلا إذا عايشه عن قرب. بل يمكن القول إنه يعيش فأراً من الداخل، وإنساناً منعزلاً في الخارج. وأحيانا يبدو مسيطراً على تدفّق دواخله مع صفاء واضح، وقدرة على الحوار، ونسيان بعض الأحداث والشخصيات مقابل تذكّر غيرها.

انتهزت فرصةً بدا فيها رائقاً وحاولتُ إقناعه:

- أنت يا جابر تشغل دماغك بصورة متكرّرة للمرأة ولا تضيف جديداً إلى سجلّ العاشقين عبر العصور. قصّة حبّك معتادة؛ لقد هربتْ منك إلى غيرك، فهربتَ من ذاتك إلى غيرها، باحثاً عنها. إنها قصة حبّ متبلورة في كيانك مع أنها عادية، بل خاوية، من الخارج. عليك أن تخرج من جبل البلور الذي يتكلّس ببطء في أحشائك . وأنا هنا لمساعدتك.

- وهل ستساعدني على طريقة القزم؟

- القزم ؟ أيّ قزم ؟ وكيف ساعدك ؟

- رفس الأرض بقدمه اليمنى، والهواء بقبضة يده اليسرى، وقال: أنا أساعدك وآتيك بها!

- وهل أتاك بها فعلاً ؟

- ليته ما فعل!

- وماذا تراه فعل ؟

- قادني إلى خربة طينية، تنبت فيها عساليج وأشواك ، وشجرة تين ذكريّة. سرت منقاداً إلى الفسحة التي انقادت إليها مريم بعد غيبة أعوام، متعثّرة في دموعها وخيبتها. كانت كمن يسير في الحلم، بل كانت تسير في الحلم. لم أشعر أنها تمشي أو تتكلّم. اتّكأتْ على أقصر جدار متداع في الخربة مستجيبة لأوامر خفيّة. لم أكن لأصدّق أنها تعود إليّ منهوبة النّبض، تحلم بين يدي، بينما القزم اللّعين يختار أعلى جدار في الخربة ويشرع في الرّقص بساقين مفتولتين فوقنا، فيسقط التّراب والحصى في عيوننا، وكأنه يهيل تراب قبر. شهقتْ مريم تحتي وقالت: "أنا التي اخترت دائماً، فهلاّ اخترتَ أنتَ الآن؟" لكنها اختارت لي مرّة أخرى أن أحتضن أحلامها القادمة عبر ثقب أو مرآة، أو من خلال زوايا الرؤية التي تسمح بها هندسة المدن الحديثة، كما علّمني القزم اللّعين.

- لكن مريم مازالت تعيش ويمكنك أن تراها، على أن تكون قويّاً أمامها، غير نادم على شيء.

- القزم حذّرني وأكّد لي أن اللقاء الدائم محرّم، لأنّه حلم. لا تطلبها ثانية، قال لي، لأنّ ماضيها سوف يهشم مرآتك، لأنه الغرفة السرّية ذات المفتاح الأزرق في الحكايات، الغرفة التي تناديك موضوعاً لرؤيتها، فتنقضّ عليك العيون وتراقبك، لأنك لم تعدْ عيناً ترى فقط، بل صرت العين التي ترى أنها ترى، فتتمرأى فيك، وتتحوّل بدورها إلى عين ترى أنها ترى نفسها فيك... تتقدّم بقدميك، وتبكي بدمعتك، وتعيش من فضائحك متستّرة على فضائحها، لأنها قدَّمَتْكَ موضوعاً على مذبح نفاقها ومُراءاتِها: العين تاريخ للسّحق. وكلّ راءٍ يسقط ضحية عيون أخرى ترانا كما نحن، أو كما لسنا...

- أهذا كلامك أم كلام القزم ؟

- كلّ ذلك يدفع بي إلى ما أكره، إلى جاذبيّة المياه المالحة، حيث لاشكّ أنّ أنهاراً كثيرة قد أوصلتْ شيئاً من جدّتي إلى الأوقيانوس الذي كرّر القزم اسمه حتّى كرهتُه.

- كيف صدّقته ؟

- قلت له سأقتلك في داخلي. سأبدأ بنفسي لتموت تحت إمرتي. لكنّه دوّى بضحكته الأخيرة، إذن أتركك! إذن أساعدك على اللقاء؛ اللقاء الأخير، اللقاء الدائم، بعد فشلكما في مضاهاتي، إذن أقرر التلاشي من طريقكما إلى مستقبل آخر، لأنني لا أعايش إلا العظماء، وأنت لست سوى فأر. لكنني أدلّك على خير ما تفعل...

- وهل دلّك ؟

- سيفعل قريباً.

- لكنك قلت بأنك ستقتله...

- إذا لم يف بوعده...

- أيّ وعد ؟

- اللقاء الأخير؛ اللقاء الدّائم بمريم .

حدثت جابر عن نفسه بضمير الغائب آملاً أن يستبطن الطرفة المعروفة :

- كان لي صديق اسمه جابر...

- ها...

- سأروي له نكتة.

- هاها...

- صار جابر فأراً بسبب توهّمه أنه خرج من بطن جرذ مقتول، والجرذ المقتول هرب قبل موته من بطن قزم، والقزم خرج من بطن صديقي جابر...

- ها ها ها...

- ولأنه تحوّل إلى فأر يحبّ الدانتيلا، فقد بات يخشى القطط. لكن الطّبيب أقنعه بأنه إنسان؛ والقطط لا تلاحق الإنسان وتفترسه.

- ها ...

- كلام الطّبيب صحيح يا جابر. أنت تسكن في أشهر ضاحية تونسية معروفة بكثرة القطط. والقطط لم تلاحقك وتفترسك حتى الآن.

- ها ها... أعرف تلك النكتة .

- نكتة ؟

- ألم يقل المريض للطّبيب: أنا أعرف أنّ القطط لا تلاحق الإنسان، لكن القطط لا تعرف ذلك!

وخلال إقامتي معه اكتشفتُ شخصيات أخرى كثيرة، من جنسيات مختلفة: البهبهاني، الشيخ التّاجوري القادم من أغاديس، الأثيوبي صاحب الوَدَع، المستر هامّت... كما تعرفت على سلسلة نساء كلّهن "زَرْوَانات" ، أو ربما هي امرأة واحدة ينظر إليها في مرآة روحه من زوايا متعدّدة، فتتكاثر، وتضيء "الزروانات" كما تضيء الشمس الأقمار. يستيقظ في الصّباح ويبدأ بتفلية جلده من كلّ ما علق به في الليل. اكتشفتُ أنه يستخدم فرشاة أسناني خفْيَةً. كان ينهض قبلي فأجدها مبلولة. اشتريت اثنتين، واحدة لي والثانية له. في اليوم الثالث، بدأت أشعر بأنه يستخدمني ويتوصّل إلى تحريكي كما يشاء، مع الامتنان الدائم، مستغلاً فيَّ، ما ليس فيه.

- ساعدْني كي أتوصل إلى نهاية ما بدأت!
- ها أنذا أساعدك يا جابر وأكتب عن "شمس القراميد".
- كلّ ذلك لا يكفي...
- ماذا تريد أيضا ؟
- أريد المشاركة في عرض كبير، بالصّوت والصّورة.
- عرض ؟
- نعم. عرض مسرحي أو سينمائي عن الفداوي.

صُعقتُ لهذا الطّلب المفاجئ لي، والمهين له. وجاءت دليلة فعارضت الفكرة بقوّة. وعندما أدركتْ أنني قد أكون الوسيط في تنفيذها، كما يأمل جابر، هاجمتْني بعنف، بل وسألتني أيضاً ، عن إقامتي الموقّتة في البيت، وكيف أسكن مجاناً في بيت أجَّرتْه لشخص واحد.

خرجتُ لاقتناء بعض ما نحتاجه للأكل. وعندما عدت وجدت أغراضي وما أتيت به من ثياب، في كيس نايلون أسود، علّقه جابر على أكرة الباب الخارجيّة. طرقتُ وناديتُ "جابر! أنت في الداخل، أعرف ذلك!" لكنه لم يرد. حاولت مرّات عديدة مكابراً أمام عملية الطّرد السافرة "سأقول لك كلمة واحدة يا جابر، افتحْ!" فلم يردّ...

هل أساعده في عرض فرجوي فعلاً؟ من يدري؟ قد يكون في ذلك شفاؤه...

هذا هو الحلّ لأحقّق حلماً أريده

كما الموجة تليها موجة، بدأتْ صورة مريم تختفي بالتّدريج من واجهة الإعلام. انتبهتُ للأمر وحاولتُ تسقّط أخبارها عبر الاقتراب من أوساط الصّحافة الفنّية. فعلمت أنها تعاني من إحباطات وأزمات نفسية. في البداية اعتبرتُ وضعها الجديد عاملاً مساعداً لإنقاذ جابر. لكن، عندما زرته مرّة أخرى، أكّد لي أنه رأى مريم تموت في الخربة، "لم أرها فقط، بعينيَّ، بل كانت

تلفظ أنفاسها الأخيرة بين يديّ..." وعاد ليلحّ على فكرة العرض الفرجوي. فأخبرته بما بذلتُ من جهد في هذا المجال:

- اسمعْ يا جابر، لنكن صريحين؛ العرض الوحيد الممكن، توصّلت إليه من خلال مخرج مسرحيّ يهتم بالفولكلور والعادات والتقاليد، انطلاقا من رؤية شخصية، وإنتاج فرجوي ضخم تدعمه الدولة .

- ممتاز! هذا ممتاز!

- لكنّه يوافق على مشاركتك بشرط مهين...

- وما هو هذا الشرط ؟

- أن توافق على دورك كما عشته...

- طبعاً...

- لكنْ...

- أنا موافق! أنا موافق!

- لكن الشرط... لم تفهم الشرط...

- هناك شرط آخر ؟ ما هو ؟

- يريد العرض...

- نعم...

- تحت عنوان: حكاية الفداوي الذي صار فأراً.

- تمام!

- قال إنّه سيوفّر كل الشخصيات التي تتحدّث عنها، من مريم إلى جانيت، ومن العينوس إلى البهبهاني، لأنه مخرج مغرم بالمفارقات. وسوف يكثر من الرّقص والبخور والبنادير طبعاً. لكنّني رفضت المسخرة!

- هذا واقع وليس مسخرة .

- لا تقل لي أنك ستوافق ؟

- بلى، أوافق، لمَ لا أوافق، هذا هو الحلّ لأحقّق حلماً أريده، ساعدني، أرجوك!

عَينْ كاسِرَة... حَارِسَة

بعد تحضيرات وتمارين دامت بضعة أشهر، خرج علينا المخرج بعرض ساحر لا تنقصه الأضواء والألوان والأغاني والرّقصات، وزادت في قوّة الإبهار تلك السُّحب العارمة من دخان البخور وصخب البنادير والطبول، مع مواقف مأسويّة ذات مسافة تغريبيّة مُنقذة من الدّراما، وشخصيات ساخرة، أو فالتة نحو رحابة فنون العالم.

اختلف النقّاد حول قيمة العرض ومراميه ونواياه. لكن الصّحافة بادرت بكتابات متحمسة عن "حكاية الفداوي الذي صار فأرا ً". وتعدّدت ردود فعل القرّاء والمتفرّجين، فانتقد بعضهم

تلك الاحتفالية المعلنة والصّريحة بأفول رمز من رموز تراثنا، ورأى بعضهم أنه كان من الأفضل توظيف حكايات الفداوي، وليس استغلال أكذوبة رمزيّة عن حياته. وفي خضمّ هذه الأصداء، بادرت قناة تلفزيّة، غنيّة الأهداف والإمكانات، إلى شراء حقوق العرض من المخرج. وظلّت تعلن عن بثّه القريب مدّة أسبوع.

كيف خرج جابر من هذه التجربة ؟

لقد بَدَا عليه بعض الاتّزان، ثم ازداد بريق عينيه مع نظرة غائمة، وارتباك في كلّ شيء: حركاته، كلماته، ذكرياته...

ويبدو أنه لم يتضرّر كثيرا من العرض المسرحي، لأنه شغل كيانه، وربمّا صفّاه وطهّره، من الدّاخل. أمّا من الخارج، فقد استُقبل جابر، وبالتّالي دوره، باعتباره دوراً تمثيليّاً وكفى، أي أن الجمهور تسلّى بأقنعة الحكواتي، ولم يفترس جابر .

ثم حصلت الصدمة الكبرى...

حدث ذلك عندما انتهزت مذيعة تلفزيونية معروفة، ذلك النّجاح، واستدعت الفداوي جابر الطرودي إلى برنامجها المثير "كلّ شيء بصراحة " وتَعْمدُ فيه إلى إحراج الشخصيات اللامعة والنجوم الخابية. حاولتُ إقناع جابر بالعدول عن هذه الفكرة، وعدم تلبية هذه الدعوة. وبذلت كل ما أوتيت من قدرة على الإقناع :

- اسمعْ يا جابر: في المسرح، ظهرتَ ممثلاً، أي مجرّد مؤدٍّ لدور ليس أنت. أما التلفزة فهي لا تستقبلك الآن كممثل، بل كشخص اسمه جابر الطرودي.

- وما العيب في ذلك ؟

- الشاشة عين كبيرة، تمتصّ ملايين العيون، وتقذف بك إليها عظاماً بلا لحم أو ريش. هناك أمران لا يمكن السّماح بهما للتلفزة: أن تعرّي لها قلبك، أو بيتك. إنها عين كاسرة. عين كبيرة لا تعرف الخجل. تقتحم بيتك لتوزّعه على آلاف البيوت وتعرّي قلبك لتقذف به في ملايين العيون. والأفظع، أن كلّ ذلك يجري من دون استئذان أو طرق أبواب، أو ترصّد عبر الثّغرات.

- ألم تقل لي بأنه عصر الصّورة ؟

- لكنها، في حالتك، صورة قاتلة!

- لماذا ؟

- ربما لأنّك ذاهب إلى سرقة ما، إلى سرقة النّور لا النّار، غير أن طائراً كاسراً، له ملايين العيون، سوف يمزّق عينك وينهش قلبك...

- هربتُ من السّماع إلى الصّورة...

- بالعكس، يا جابر، أنت الآن في وضع خاص، عليك أن تسوّر روحك بمزيد من الأقنعة حتى تتوصّل إلى تجليس ذاتك في كيانك. إنها تغادرك. ألم تنتبه إلى ذلك؟ أنا شخصياً تفاديتُ هذا الفخّ في مناسبة أولى فانطبق عليّ في مناسبة ثانية.

- وكيف كان ذلك ؟

- مرة، جاؤوا يريدون استخدام بيتي للتّصوير. هل تعرف ماذا كانوا يريدون؟ مواصفات تنطبق على بيتي: شقّة في الطابق الرابع، فيها صالون وشرفة، وفيها مكتب، وغرفة طفل أيضا. ولم تكن تهمّهم بقية المرافق أو غرفة النوم. مع أنّهم سوف يحتاجون إلى المطبخ ولو كَرَماً منّا،

وإلى مكتبي وغرفة ابني...أليس هذا تعدّياً على حميمياتنا؟ تصوّر أن يعبث غريب، وراءه كاميرات ومصوّرون، بأوراقك وكتبك وهواء غرفتك! اعتذرتُ بلباقة: " مكتبي فوضى" قالوا: "بالعكس، هذا أفضل!" الكاميرا تريد صورة نمطيّة عن المثقّف الفوضوي، الهائم، المجنون... (مع أنهم يسكنون جميعهم في داخلي ولا يخرجون!) كلّ ذلك مقابل مائة وخمسين ديناراً. جيّد أن يكون هناك أجرة، لأنني أدفع أجرة البيت بدوري، لكن تصوّرْ أن يخرج ذلك المثقّف من غرفتي نموذجاً لا أرتضيه، هائماً ، بليداً، يبكي حبيبته أو يمزّق شعر امرأته. ويكون من إنتاج فضائي وأنفاسي!

- والمرّة الثانية ؟

- المرة الثانية كانت دعوة من برنامج تلفزيوني يريد تصوير المثقف، أو الكاتب، أو الفنّان، في مكتبه وفي بيته.

- وما العيب في ذلك ؟

- الفرجة! انظر مثلاً، أنت تعوّدت رؤية مكتبي، تعرف كيف أضع الكتب والصّناديق والكراتين والمطارق والمسامير...هذا للضّرورة، كما تعرف، وليس تبجّحاً بصورة المثقّف الفوضوي أو العبقري. أما العيون الأخرى، ملايين العيون التي حدّثتُكَ عنها، فسوف تنظر هكذا: "يا للفوضى!مسكين! ليس له كذا وكذا... هذا كاتب نتفرّج عليه وبيته هكذا...انظروا ماذا تلبس زوجته! ما أفقر صالون بيته!" ينبغي على المرء أن يكبر أكثر ويجمع ثروة ويبني بيتاً من أجل إبهار الصورة وتقديم طُعم مناسب لها، يكون بحجم أنيابها، حتى لا تلتهمه هو...

- أنت تبالغ في ذكر ما تجده سلبيّاً فقط ...

- اسمعْ! ها أنذا أعترف لك: ذات مرّة فعلتُ ذلك. تركت عين الكاميرا، بل عيونها، تدخل بيتي. تعرف ماذا كانت النتيجة ؟

- ماذا كانت ؟

- بعد انتهاء التّصوير، خرجتُ عارياً، مرتبكاً من ارتباك أسراري البيتيّة، هي ليست أسراراً بالمعنى الدقيق، بل حميميات دافئة، ينبغي أن تظلّ كذلك، ولا تتعرّض إلى العيون الباردة. قد تتوصّل الجارة إلى معرفة جزء منها، لكن ذلك أهون من اطلاع ملايين العيون عليها.

- وهل هذه هي النتيجة التي تتألم منها؟

- ليس هذا فقط . أنا تكلّمت وهم قطعوا من كلامي ما لم يعجبهم. يعني أنك لست حرّاً أمام سطوة هذه العين الكاسرة والحارسة في آن. أما ابني فقد عضّته الكاميرا من لسانه، وأجهزت على تلقائيته، فصار يعترف بالإيجاب دائماً " نعم... نعم ..." خوفاً من العين التي قد تلتهمه كاملاً إذا قال: "لا" . هل يكفيك هذا ، أم أضيف بأن الذين يصوّرون، ينتجون ويقبضون. أما أنت فتعمل وتتعرّى وتشغل دماغك مجاناً. ليس مجانا فقط. بل مع دفع مقابل آخر أيضاً!

- وما هو هذا المقابل ؟

- فاتورة الكهرباء! في ذلك الشهر، ارتفعت إلى رقم قياسي لأنهم جاؤوا إلى بيتي ومعهم بروجكتورات جهنّمية ملأت البيت نهاراً وشموساً، لكنْ، من زرّ فاتورتي! أرأيت كيف تأخذ منك هذه العين الجهنّمية ما تريد، من دون أن تعطيك ما تريد، أو تسمح لك بقول ما تريد!

- ولماذا لم تطلب ؟

- جوابهم جاهز: "لنا المال ولكم الشهرة!" والحال أن ما ينقصني هو المال وليس الشرف! الشهرة قاتلة، يا جابر، عندما تكون من صنع الإعلام وحده...العمل هو القيمة الوحيدة للشّهرة... لأنّ الشهرة الإعلامية، وفي مقدّمتها تلك المتأتّية من الصّورة، تسرق منك حميميّتك في الداخل، فتكشف لاحقاً أنك خسرتها حتى في الخارج!

- كيف تخسرها في الخارج أيضاً ؟

- تحرمك من نزقك، وحرية تحرّكك في الشارع وفي الأمكنة العامة. وتفقدك نعمة الفرز بين أكوام الثياب المستعملة من دون حرج، كما تفقدك رحمة الوقوع في خطأ علني أو حفرة مكشوفة!

- هذه أمور بسيطة وأنت تعقّدها...

- هذه الأمور البسيطة يمكن أن تتطوّر إلى ما هو أسوأ، ولا سيما في حالتك أنت!

- لماذا ؟

- تريد أن أحكي لك ما حصل لرجل تعلّق ببطولة الوهم مثلك ؟

- كيف كان ذلك ؟ ومتى ؟

- كان ذلك قبل أعوام عديدة، قبل مجيئك إلى العاصمة ، عندما بدأتْ حملة تنظيم النّسل: وكان هناك مواطن أول، ابتسم لنا، قبل بضعة عقود، من شاشة التلفزة، كما قد تفعل أنت قريباً من دون حسبان العواقب.

- وبعد ذلك ؟

- كانت الفرجة آنذاك تتعلّق بمبادرة أوّل رجل تطوّع لعمليّة منع الإنجاب عند الرجال، وليس عند النساء وحدهنّ كما جرت العادة. فكان مصيره، بعد خروجه من مكيدة الشّاشة الدعائيّة، أنْ لاحَقَتْه العيون والأصابع والألسنة "ها هو، ها هو ذا، المخصي، اللّي ما يحشمش على روحه...ويضحك زادة! ويخرج للشارع زادة!..." فما كان منه إلا أن قتل نفسه. لم تقتله عمليّة تحديد النّسل في حدّ ذاتها، بل قتلته الصّورة التي عرّت دواخله ومخاصيه.

- هذه حكاية...

- تماماً مثل حكايتك! إذا كنتَ قد أمضيت نصف عمرك أو أكثر، مدفوعاً بعين بشريّة متربّصة بالآخرين، فعليك اليوم ألا تسمح لعين أخرى، كاسرة حارسة، بأن تعريك وتفترسك. والأخطر أن المستهدف حاليا في وضعك، ليس صورتك، أو جسدك، بل قلبك وبطنك وشغافك المتمزّقة نحو تمزّق أسوأ. انتبهْ يا جابر! لا تتعرَّ لها، لا تفتح لها قلبك، إنها الصّورة التي تحطّم كلّ الصّور. هل تتذكّر امرأة المستنقعات في حكاية شمس القراميد ؟

- نعم ...

- التلفزة أقسى وأمرّ !

- وأين وجه المقارنة ؟

- سترسم لك صورة أخرى عن ذاتك، وتتبنّاها أنتَ، بدورك، لتكفّ عن كونك أنت. وعندما تبحث عن ذاتك ولا تجدها، لأنّها توزّعت على الآخرين، قد يؤدي بك ذلك إلى...ما لست أدري... لا تنسَ أنك كنت تسرق وجوه الآخرين فكدت تفقد وجهك، بل بدأت تفقده...الآن سيلتهمك الآخرون، وتفقد وجهك القديم والجديد، أنبّهك يا جابر!

- أفكارك حربيّة...

- حماستي تأتي من وضعك الخاص يا جابر .

- أنا لا أرى الأمور هكذا...

- يبدو أنني لم أقنعك حتى الآن، ولن أتوصّل إلى ذلك...على أيّة حال، لي كلمة أخيرة...

- ما هي ؟ قُلْها واسترحْ !

- الجثة التي تدنو من قبرها هي الوحيدة التي تستطيع أن تتعرّى، ولا حرج عليها... ولا عليك!

- وهل أنا جثة ؟

- لا أدّعي أنني قلت ذلك!

- إذاً، ماذا تقصد ؟

- أردت القول إنّ أفضل مَنْ يتقدّم للصورة حتى تلتهمه؛ شخص هرم، يفتح أسراره، وهو على شفا عالم الصّمت الأخير، يفتح أسراره لتمتصّها الصور، ثم تثوي في الأرشيف!

- إذاً ، ها أنذا أنتظر موعد التّصوير...

ملايين من الحشرات اللّزجة

لم يقتنع جابر بكلامي. وحكى كلّ شيء بعينين برّاقتين تطلاّن من الشاشة. تعرّفت الجمهورية كلّها، أو نصفها في أسوإ الأحوال، على "جابر الفار" وانتشرت شهرته لتغطّيَ جمهوريّة الأعماق ومناطق الظلّ التي وصلتها الكهرباء حديثاً.

كُتبتْ عنه القصائد، وأطلّت القصص، وتهيّأت الروايات.

أمّا المذيعة فقد ابتسمت لنا جميعاً، إثر انتهاء ذلك اللقاء الوحشي. وعندما فوجئت بعدم انقطاع البثّ وظهور شارة البرنامج، حاولتْ وضع قلمها في جيبها فاكتشفت أن قميصها بلا جَيب. وعادت إلى أوراقها توزّعها ثم تجمعها مرتبكة، حتى غادرتنا صورتها التي طبعتْ صورة جابر الطرودي فأراً في جمهوريّتنا.

المفاجأة الوحيدة التي توجّست من حدوثها، خلال تلك المقابلة، هي أن يتحرّك القزم، داخل جابر، بوسائله الخاصة، ويقنعه بفتنة الموت المباشر على الشاشة.لذلك مكثت أتفرّج مضطرباً. في البداية لم يفاجئني جابر بجديد، في ما رواه خلال اللّقاء التلفزي، مع أنه عرّى دواخله بأسلوب قاتل. لكنّ مقطعاً من حديثه شدّ انتباهي وزعزع شيئاً ما، في داخلي. كان ذلك عندما سألتْه المذيعة عن سبب انتقاله إلى المدينة وخيبته فيها، فأجاب: هناك شخص ناداني. وبعد أن تحرّكت المياه بيننا، وضع لي فخاخاً كثيرة، كعادته. فتجاوزتُ العقبات المتتالية: كلاب المقبرة، مرايا مريم، بركة السنهوري، العشيقة الفرنسية، القزم سهلون... ولمّا لم تنفع كل الفخاخ ، نصب لي الفخّ الأوسع؛ الفخّ الأشرس الذي تهيّبته طوال حياتي: أقصد المياه المالحة...

ابتسمت المذيعة وهي تقاطعه:

- ولكن، من هو هذا الشخص يا ترى؟ أم أنّه سرّ...

- كنت فيه هادئاً وكان فيَّ هارباً. لكنه صار يختبئ في جيبي فأختبئ في جيبه...

- يا له من جواب طريف، قالت المذيعة، لاشك أنّ كلّ ما ذكرته قصص وحكايات لا تنضب... لكن ألا تحبّ البحر ؟

رفع جابر إصبعه نحو المتفرّجين وكأنه يُشهدهم على ما سيقول:

- المياه المالحة هي مقبرتي البحريّة بعد أن أفلتُّ من ميتاتي الأخرى... حتّى في الصّحراء لم يهدّدني العطش بل أنقذني منه الرّجل الأمريكي القادم في سيارة لاندروفر من مالي والنّيجر، مع أنه ترك القزم يسخر مني ويقول لي "قملة منك وقملة مني" ليسهل على صاحبه إقناعي بإجراء مقابلة حول مهنة الفداوي التي دفنتها مع أبي، وسيَر العرب التي نسيتها مع أمي..."

هكذا انتهى العرض من دون أن تحصل كارثة الموت المباشر على الشاشة. ولم يكن جابر يعرف أن شهرته الجديدة التي تحقّقت بفضل الشاشة، تعني بأن آلاف العيون، بل ملايينها، سوف تظلّ تلاحقه، وتبحث عن مواصفات الفأر فيه: لاَحَقَتْه العيون. لاَحَقَتْه الأصابع.رَشَقَهُ الأطفال.هربتْ منه النساء. صار يضحك عندما يقصد البكاء. ويبكي إذا كان ينوي الضّحك. صاروا يشيرون إليه، ينادونه، يلاحقونه، يمَسُّونه، يصفّرون له، من السّقف، من الأبواب، من النّوافذ. يزيدون في سيولة روحه، وفي انسياب الحشرات اللّزجة بالملايين على جسمه :

"يا فار الدَّانتيلاَّ!"

" يا قنبع! "

" أين مريم ؟ "

" أين البهبهاني ؟"

" أين تختبئ جانيت ؟"

" هيّا يا جابر ..."

"هيَّا يا جابر؛ تقدّمْ إلى فم العالم. تحرَّرْ من كتلتك . خضْ في الماء، مستجيباً لندائه الأول عندما كانت الروح ترفّ؛ ماء واحد للمرأة والرجل. ثم تأتي الكلمة فتفرّق. عدْ إلى المركز، إلى وحدة العناصر. تسوقك طاقة خفيّة وأنتَ لم تعد أنتَ، لأنك تتقدّم ولا تصيح "أمسكوني".

" هيّا يا جابر ؛

"توغَّلْ في المياه المالحة. الرّيح تناديك إلى ممرّات سائلة. تقدّمْ حتّى تستجمع إيقاع أنفاسها ونبضات قلبها على نول المياه المالحة... تلألُؤَ الندى على تكوّرات جسدها، على مفاصل الشدّ ومواضع الانزلاق، حتى يكتمل حضورك في غيابها. في البؤرة المترجرجة الدافئة...في جاذبيّتها المالحة، في دوائرها الضوئية زرقاء، خضراء، بنفسجية...

" هيّا يا جابر ؛

" واصل مناوراتك الشيطانيّة من أجل التخفّي عن العيون. سرْ نحو اليمين، سرْ نحو اليسار. قفْ! العيون تفترسك برخاوة... تقدّمْ! ها هي ذي مريم تأتي إلى ظلال الماء، شعاعاً في

زاويـة اللّوحـة. أَلْبسـها أنواع الأشنَات والطّحالب البحريّـة. هـا هـي ذي تطفـو ثـم تترك فسـاتينها البحريّة متوغّلة فيَ الماء. تترك دوائر مائية تعقب دوائر ، وأنت في مركز الدائرة...

" هيّا يا جابر ؛

" ها هي ذي تطلّ عليك من داخل فقّاعة؛ تغمزك وتناديك...

- في بطني هواء!

- ريح تناديني...

- هل جئتَ لتفصلني عن بحري ؟

- أريد أن أسيل...

- أنا فقاعة في بطني حكاية.

- أنا الحكاية.

- احْكِ حكايتك حتى يخرج الهواء من بطني .

- أنا هواء

-أنا ماء ..."

مَكمن الجبن في شجاعة المنتحرين

لقد رآه شهود عيان عندما قصد شاطئ حلق الوادي وخلع صَنْدَلَه فقط، كأنه يدخل مكان عبادة.

أَأَدرَكَ جابر، بعد الفرجة، أن حياته الخاصة لم تعد له، بل صارت ملك شخص يصوّرها له، فكفّ عن الإحساس بأنه مقيم في جسده، وتوزّع على كلّ زاوية وكلّ عين؟ أم أنّ الرّائحة هي التي سكنت جسده؛ رائحة القزم التي نقَلَتْه إلى رائحة الجرذ فأكثر من الاغتسال والاستحمام، وبات يغازل المياه المالحة عن كثب، ويتحدّث عن الغمر العظيم الذي يذوب فيه الكائن ويتلاشى في ما لا يُحدّ ؟

لقد بدأ هذا الإحساس يراوده بعد "رؤيا الخربة" التي هجس بها شاويش الجبس، ثم تبنّاها جابر، مؤكّداً أن مريم اجتازت نفق الظّلمة والتحقت بأبديّة النّور، لأنه ناداها النّداء المحظور، عندما وقع في لَسْرِ قزم، أغراه بوجود غرفة زرقاء، ذات مفتاح أزرق، محظورة في الحكايات، ونهاه عنها حتى يزداد فضوله، ويلتفت عائداً إليها، من أجل لقاء آخر محظور، لكنه يمكّنه من فرصة لتحقيق اللقاء الأخير؛ لقاء الرّوح في أبدية النّور، وهو الذي يدّعي أنه رآها ...

وهكذا توغّل في الموج ...

انتبه بعض السّابحين وضحكت بعض السابحات: رجل ينوي السّباحة بكامل ثيابه! كانت خطواته الثقيلة واثقة. تقدّم نحو العمق المتموّج، بعينين تواجهان الشّمس. كان ظلّه ينكسر على سطح الماء وراءه، وما بعد الوراء هاجس يدفعه نحو السّيولة، إلى ما بعد المرئي واللامرئي، حيث نور الأبدية، ودهاليزه ذات الصُّور السوداء.

"لم يبق سوى صندله على الشاطىء..." هكذا نُقل إليّ الحدث في البداية. ولقد أثَرْتُ استياء الآخرين واستنكارهم عندما أمرتهم بتنفيذ ما سمّيته "الوصيّة" :

- كفّنوه بالدانتيلا قبل إعادته إلى قريته!

ولم أكن أسخر. كنت في حاجة إلى فكاهة سوداء تغطي محاولة انتحاره البيضاء. لا لشيء إلا لكوني لم أعد أحتار باحثا عن مكمن الجبن في شجاعة المنتحرين الذين يتخلّون عنّا، هكذا، بسهولة، ويفلتون ...

ثبات ونبات

في أوّل زيارة إلى المستشفى الذي يقيم فيه جابر، بعد محاولته الانتحار غرقاً، وجدت في غرفته شخصاً أجنبيّاً يجلس قرب سريره. لم أكد أدخل حتّى صاح جابر:

-لا، لا، يا مستر هامِّتْ، لا تتركهم! لا أريد رؤيتهم! أخرجهم!

بادلني المستر هامت ارتباكاً بارتباك والتفت مخاطبا جابر:

- لكنه وحده! انظرْ إنه وحده!

عاد جابر إلى الصياح :

- لا، لا، لا، فليخرجوا؛ يريدون قتلي مرة أخرى!

وضع المستر هامّت يديه على كتفي جابر محاولاً تهدئته:

- ولكن، عمّن تتحدث؟

- هؤلاء...لا أريدهم! قلْ لهم إنني مازلت أنوي العيش، أخبرهم يا مستر هامّت!

كان جابر يشير إليَّ ساخطاً بأصابعه العشر:

- هو، القزم، العينوس، الجرذ، عمر، شمس، العريفة ، دليلة، البهبهاني، بوسطل... كلهم... كلهم!

ترجّاني المستر هامّت أن أنسحب حتى يهدأ جابر. وبعد حوار سريع خارج الغرفة، قرّرت الإنسحاب، غير أنّ المستر هامّت ألحّ وهو يودّعني:

- يسرّني التعرّف عليك مادامتْ لك علاقة، أنت أيضاً، بشمس القراميد والعينوس، هو ذا عنواني ورقم هاتفي .

وفي أوّل اتّصال سألني عن حكاية دَفْعي بجابر إلى الموت في أكثر من مناسبة، كما يدّعي جابر نفسه. فأكّدتُ له بأنه مسكون بهاجس السّيرة الشعبيّة، وكان يختلق ميتات متكررة من أجل توالد الحكاية وتوتّرها، بنَفس تشويقي شهرزادي، مع كآبة أكثر ونجاح أقل؛ هذا كلّ ما في الأمر!

وعندما طمأنني المستر هامّت على حالة جابر، قلت له قبل إنهاء المكالمة :

-من الواضح أن نهايته الحقيقية هي في "الثبات والنّبات حتّى مجئ هادم اللذّات..." تماماً كما تقول خواتم الحكايات!

وجئتَ تزورني في وقت مناسب للشّماتة ؟

لمَ كلّ هذا العنف ؟ هل اُبتُكِرَت فكرةُ "الكاميرا الخفيّة " من أجل استغلال ضعف الكائن وخوفه من الصّراع الدائم بين السلَطة والرغبات؟

سافرتْ مريم إلى الشرق، مرّة أولى، ولم تنجح. والكاميرا تعرف ذلك. والذين وراءها يعرفون ذلك؛ لقد فتّشوا ونقّبوا في تفاصيل مساعيها ومحاولاتها...يجيء وكيل مصري، وسيط صلُْح وخير. وهو مطّلع تمام الإطلاع على تفاصيل قصّتها وفشلها هناك. يغريها بعرض جديد: فلان أرسلني إليك...ألحان جديدة...كلمات...أوبرا...عليك بتجهيز أغراضك إذا كنت موافقة. السّفر يوم الجمعة، السّاعة الرّابعة بعد الظّهر...تقرّر مريم تأجير شقّتها َأجرة طويلَة المدى. المستأجر جاهز. التأشيرة جاهزة. حقيبتها، نظّاراتها، ابتسامتها، ارتباكها. الكاميرا دائماً وراءها. إلى المطار. الرّحلة مصريّة فعلاً. الكاميرا وراءها، تسلّط عل لوحة مواعيد الإقلاع. الكاميرا لا تتوقّف. مريم لا تتوقّف. تصعد إلى الطّائرة... تصل إلى القاهرة... لا أحد.

لا أحد يستقبلها. تسأل. لا أحد يريدها. الكاميرا وراءها. الوكيل المصري يتبخّر في الزّحام...

تعود إلى بلادها؛ متألّقة، منهارة ، باكية...

الكاميرا وراءها ، تُسلّط على سلّم الطائرة...

الكاميرا لا تتوقّف. وراءها. في الطّريق. في معركة من أجل استرداد شقّتها. والمستأجر يرفض الخروج. معركة. وساطات. أموال ترضية... مريم تفقد صوتها. الكاميرا تُسلّط عليها، مريضة، نائمة في المستشفى...

وبعيداً عن الكاميرا، ملأ الحدث وسائل الإعلام الأخرى: "المطربة مريم حسن تفقد صوتها...المطربة مريم حسن، بعد ثاني محاولة فاشلة، تعود إلى البلاد." تكتب عنها الصّحف . تقرر اعتزال الغناء. تكتب عنها الصّحف. تبثّ الإذاعة والتلفزة أغانيها القديمة والجديدة بتواتر يخفّ كلّ يوم، كلّ يوم، كلّ يوم... حتى ينام صوتها في الأرشيف.

زرتها في المستشفى. عرّفتُها بنفسي. هجمت عليّ. أنشبت أظافرها في وجهي وفي يديّ. بكت: " لماذا تركتني كلّ هذا الوقت وجئت تزورني في وقت مناسب للشماتة؟ لماذا ؟" جاء الممرضون وأخرجوني. خرجتُ إلى شوارع المدينة. الجدران عالية، عالية، البنايات، الأشجار. وفي كلّ يوم اقرأ إشاعة جديدة "ماتت بأزمة قلبيّة " عدت إلى الاتصال بها هاتفيّاً في المستشفى. أخبروني أنها تعافت وعادت إلى بيتها. أخيراً، وبعد تردّد ، حزمت أمري، وقرّرت زيارتها في البيت.استقبلتني هادئة، هذه المرّة . سألتها ممازحاً لكن بخبث:

- ألا يمكنني التفرّج على بيتك؟

- تفضّل!

(إذاً هكذا...الصّالون، المطبخ، الحمّام، غرفة الضّيوف، غرفة النوم بتفاصيلها...هي غرفة الشموع! كل ذلك الألم! أين الخزانة ؟ ها هي ذي! كيف حشرت جابر فيها؟ الشّرفة! ليس هناك لحاف أبيض. الأسد لا يزأر.أجلس على...الأريكة!)

- شقّتك جميلة! تطلّ على حديقة البلفدير...

- نعم...سأعدّ القهوة .

(كان جابر هنا ذات يوم. وهذه هي الأريكة)

شربنا القهوة. بابتسامة مرّة قالت لي :

- تريد أن أقرأ لك فنجانك ؟ تعلّمت ذلك من أمّي!

- أين أمّك الآن ؟

- توفيت، يرحمها الله !

- لا بأس. يمكنك قراءة الفنجان .

عادت إلى ابتسامة ذاوية سرعان ما غطست في الفنجان :

- فنجانك مشوّش. لكن، فيه طريق طويل وكثرة عراقيل، في آخره كلب، والكلب صديق يمدّ لك يده بالخير. عندك لمَّة، واللمَّة فرح بعد أن تسمع بمريض وفرشه على بياض. أنت شخص يبحث عن نفسه في الآخرين. ومع ذلك يؤلم الذين يحبّهم، عادة. يرفض وجهه المتكرّر ويبحث عمّا يميّزه ويعزله عنهم. تبدو متسامحاً مع أي تنوّع إذا انساق وراء هواجسه...

سألتها مقاطعاً :

- حتى الجنون ؟

- حتى الجنون .

- أتقرأين فنجاناً أم تريدين تحليل الشخصية؟

- لابدّ أن أسألك عن برجك أيضاً!

انتهزتُ فرصة مرحها الظّاهر، وقرّرت الانتقال إلى الأسئلة التي جئتُ من أجلها :

- لستِ متزوّجة الآن ؟

- انتهى الأمر.

- وماذا عن رحلتك ؟

- لا تُذَكّرني بها .

- كانت مؤلمة، أليس كذلك ؟

- نعم.

- لكن غيرك نجح...

- مضاربات...سمسرة...جسد...فلوس...

- هل القضية هكذا فقط ؟

- وماذا تظنّ ؟

(لم أجرؤ على مصارحتها: أهذا هو الواقع فعلاً، أم أن إمكانياتك، يا مريم، محدودة، وأنّ صوتك، أداءك ، موهبتك، متواضعة الخ... قررت الانتقال إلى موضوع جابر مباشرة)

- جابر...المسكين...لقد...

- ماذا حدث له ؟

- هو في المستشفى...كاد يموت...حاول الانتحار...

- الانتحار ؟ لماذا ؟

- من أجلك طبعاً!

- مازال يحبّني ؟

- أكثر مما كان! وأنت ؟

- لست أدري... ما رأيك ؟

- لا تنتظري رأيي...إنه في حاجة إليك!

- لكن...

- فكّري! أنت أيضاً في حاجة إليه يا مريم...

- كيف عرفت ؟

-ليس من الفنجان طبعاً!

وتركتُ لها عنوان المستشفى...

حكاية لاحقة عن طفل صانع للصُّوَر

انتظرتُ شفاءه قرابة أسبوع حتى أعلمني المستر هامّت بتحسّن حالته، وذلك بعد نقله الضّروري إلى المستشفى المخصّص للأمراض العصبية. اتّصلتُ بمريم، مرة ثانية، لأُعْلِمَها بالعنوان الجديد، فأبدت رغبة في زيارته. وعندما زرته بدوري بَدا لي أكثر هدوءاً، واستقَراراً نفسيّاً. كان احتفاؤه بوجود المستر هامّت، وامتنانه له، واضحينْ. لكنه لاح مسيطراً على مشاعره وهو يخبرني دفعة واحدة :

- مريم كانت هنا، سنتزوّج قريباً .

انتهزت الفرصة وقلت له مداعباً :

- أرأيتَ أنّ لي دوراً في فرحك!

- بالعكس، كلّ الفضل يعود إلى المستر هامّت. لقد أقنعني بأنّ تحقيقي لذاتي لن يتمّ إلا بالعمل وإنهاء حالة العطالة؛ هو الذي أنقذني في السّابق وسيساعدني في المستقبل...

- كيف ؟

- بدأت الفكرة بالمزاح وانتهت بنا إلى الجدّ.

تدخّل المستر هامّت قائلاً :

- حدّثني جابر عن مشروع فتح دكّان لبيع الثّياب المستعملة، فشجّعته وأبديت استعدادي لمساعدته...

سألتُ المستر هامّت محاولاً استكشاف خلفيّة الصّفقة :

- وماذا عن تلك السِّيَر الشعبية؟ لقد أخبرني جابر بأنّك تودّ تسجيلها بروايته...

- آه، تنهّد المستر هامّت، من سوء حظّي أن مرضه لم يأت في ذاكرته إلا على تلك السِّيَر الشعبيّة، هل تحالفْتَ مع مرضك ضدّي، يا مستر جابر ؟

- أبداً يا مستر هامّت؛ هل تذكر البدْلَة السَّفاري التي ستَرْتَني بها ذات يوم، وأنا أقصد العاصمة ؟

- أوه! يَسْ! أنت تذكّرني بتلك الرحلة العجيبة! كنتُ أعجب وقتها لرؤيتك شخصين في واحد!

- ماذا ؟

- نعم! كنتَ وقتها تصرّ على إقناعي بوجود قزم معنا في السيارة، لايكفّ عن استفزازك، فما كان منّي إلا أن جاريْتُكَ في كلّ شيء!

- في كلّ شيء ؟

- يَسْ ، مايْ ديرْ جابر!

- حتّى في وجود العينوس ؟

- بالنسبة لوجود العينوس، نُو برُوبْلَمْ! كنّا نختلف في التوقيت فقط!

- التوقيت ؟

- يَسْ ، مستر جابر! أنا كنت أتحدّث عنه كظاهرة انقرضتْ في بلادكم، أمّا أنتَ فكنتَ تبدو معايشاً له في الماضي! لكنّك مازلت تذكر تلك البدلة السّفاري كما قلتَ. إنها بدلة سافرتْ أكثر منك؛ لقد جبتَ بها قسماً كبيراً من إفريقيا!

- مازلتُ أحتفظ بها حتى الآن، ومع أني أضعت عنوانك سهواً، فقد كنتَ كريماً في الاتّصال بي مرّة أخرى؛ كيف توصّلت إلى ذلك ؟

- لكنك شَغَلْتَ وسائل الإعلام في المدّة الأخيرة يا مستر جابر!

- آه!

- نعم!

بدا على جابر أنه يلحّ على موضوع تلك البدلة على الرغم من تشعّب الحوار في كلّ اتجّاه له علاقة بالماضي. وسرعان ما عاد إلى الحديث عن البدلة:

- قررتُ أن أعلّق بدلتك في دكّاني لكي تكون هي القطعة الأولى. لكنني لن أبيعها؛ سوف أجعلها شعار المحلّ وتميمة الحظّ!

ضحك المستر هامّت عالياً وعلّق قائلاً :

- هذا لطف منك يا مستر جابر! يُو آرْ فيري جَنْتِل!

أحسست بأنني خارج الصّفقة ومستبعد من الحوار. اضطررت إلى الصّمت بين إحباط وسخط. وعندما استأذن المستر هامّت للخروج التفتَ نحوي قائلاً :

- لم نجلس حتى الآن للحديث، هذا مؤسف! أنا أهتمّ بالآداب العربية أيضاً! ألم تُترجم

أعمالك إلى الإنجليزية بعد ؟

فتدخّل جابر ساخراً :

- لم ينته من ترجمتها إلى اللغة العربية بعد!

تساءل المستر هامّت مندهشاً :

- العربية ؟ كيف ؟

- لقد انتهى من حكاية "شمس القراميد" ويريد حكايتي الآن!

- أوه! إكْسِلَنْتْ! لابدّ أن نلتقي إذاً...

خرج المستر هامّت وتركني وجها لوجه مع جابر، أخيراً. قلت له ممتعضاً :

- أراك تبالغ في إنكار دوري، وتسخر من أعمالي أيضاً!

- أيّ دور؟ هل هو إهمالك لي، واستخفافك بموتي ؟

- لكنني الوحيد الذي عملتُ على إنقاذك!

- بل دفعتني إلى الموت، ببرودك، مراراً!

- دُنُوُّك من الحافات هو الذي فعل بك ذلك، يا جابر، ألم تخبرني بأنك أصبت برُهاب السّقوط من النّوافذ، وخاصة عندما تكون على عتبة النّعاس؟

- نعم أخبرتك بذلك ؛ لكنني كنت أراك في كلّ نفق مظلم .

- هذا لا يناقض كلامي؛ ففي آخر كل نفق مظلم هناك نور الأمل.

- وهل تسمّي ما وصلتُ إليه أملاً ؟

- كيف تنكر ذلك؟ ألم تزفّ لي، من قليل، نبأً سارّاً؟

- تقصد مريم ؟

- طبعاً! أليست النّور كلّه، بعد رحلة الأَنفاق المظلمة ؟

- آه...

- اسمعْ! حتى إذا كانت عودتك، بل عوداتك، من الأقاصي المظلمة، فاشلة كما تدّعي؛ لا تنكر أنها كانت دليلك أيضاً إلى استعادة الرّوح والتّصالح مع المكان؟ صدّقْ أن مجرّد مواجهتك وقمعك كانا سيُوديان بك...

- تبدو متأكّداً من ذلك...

- أما زلت تتذكّر كيف أصرّ عمر على إعادتك إلى كاف الحجر؟

- نعم .

-ماذا كان سيحصل لك لو تمكّن من إكراهك على العودة ؟

-لا أدري.

-ليس أكثر من الصورة التقليدية لمجنون القرية الرّائي.

- شكراً!

- السّبب أنك كنت تستبطن البطولة...

- من دون أن أكون بطلاً...

- هذا صحيح. تصوَّرْ لو أنني انسقت وراءك باسم الماضي وباسم تعليمك لي ذات يوم، ماذا كان سيحدث...

- ماذا ؟

- لقد ادّعيت أنك علّمتني، وتبنَّيتني أيضاً، والحال أنني، أنا الذي تبنّيتك منذ قدومك إلى العاصمة- برغم أنني لا أحبّ كلمة التبنّي هذه- لنقُلْ إنني تفاديت تبنّيك لي- وهو الوجه الآخر للصورة!- لأبرهن لك بأنك لن تعود إلى ذاتك متصالحاً معها، وبالتّالي مع زمانك ومكانك، ومع صورتك المتبدّلة فيهما، إلاّ إذا أحسستَ بأنّ ذاتك مهدّدة، وسعيت إلى قتل حكاية الخطر التي نسجَتْ خيوطها مخيّلتُك، من أجل تبرير القتل...أو الانتحار.

- ماذا؟ ماذا تقول؟ لم أفهم شيئا! هل تعدّ لي فخّاً آخر؟ لا تقل لي إنك صالحتني مع مريم أيضاً!

- لا أدّعي ذلك، لكنني قرّبتك منها فعلاً!

- كيف ؟

- أوّلاً؛ يا جابر، لم يكن عذابك بسبب مريم، بل كان متأتّياً من صورة نجاحها، في ذهنك. وكان نجاحها- وبالتالي ابتعادها عنك أكثر- يزيدان في انتفاء التّواصل. ثانيا؛ كان لابدّ من أن تَخْبُوَ تلك الصّورة -أي صورة مريم منتفجة- ليخفّ البريق: بريقها، ثم بريقك أنت، المقتبسُ من نورها إلى فَتيله. وهكذا تلتقيان في نقطة، سمّيتها أنتَ "الفشل" لكنّني أسميها منطقيّاً (انتبهْ!) "مبدأ الثالث المَرفوع"...أو انتفاء الشرط المانع!

- لا أكاد أفهم. ولا أريد الفهم أيضاً. أريد العمل والكفّ عن الكلام. لقد حطّمني الكلام. ألَمْ أهرب من قريتي بسبب الكلام؟ أنت تستخدمني مبرّراً لعطالتك الشخصية.

- وهل شكوتُ إليك العطالة ؟

- سمِّها ما شئت...عطالة أو كتابة... كِلْتاهُما بيع كلام!

- استمعْ إليّ يا جابر؛ سأوضّح لك فقط معنى انتفاء الشّرط المانع.

- عدنا إلى الكلام...

- هو ذا: أنتَ، ببساطة، لم تكن تحبّ مريم بل كنت تحبّ صورتها. وأرجو، هنا، أن تفهم كلمة "صورة " بمعنى انعكاس الآخر في الذات، ليس كما هو، بل كما نريده، أي كما نتصوره لنا، وعندما تحطّمت صورة مريم عدتَ إلى ماضيها كي تمتلكها انطلاقا من البداية. أما هي فكانت ترتاح إليك ولا ترتاح إلى صورتك. غير أن رفضها لصورتك، ومقاومتها لها، جعلاها تسعى إلى تحقيق صورتها الشخصية؛ أي أن صورتك دفعتْها إلى صورتها. وعندما تهشّمت صورتها على محكّ التّجربة، عادت إليك في اللحظة المناسبة؛ أي في لحظة تحطّم أوهام صورتك على فراش هذا المستشفى! صدّقني أن ابْناً تُنْجِبانه من شأنه أن يكون صانع صُوَر!

انتفخت عروق جابر، واحمرّت عيناه، ولاح متردّدا بين الانفجار والانهيار، صائحا:

- أرجوك! هل تهيّئ لي فخاً آخر ؟ هل تدفع بي إلى موت آخر؟ وبالكلام هذه المرّة! أرجوك، أريد أن أرتاح، أريد أن أنام، أرجوك، أرجوك، أرجوك... حتى المستر هامّت لا يتكلّم هكذا، إنه مريح...مريح...مريح...

أدركتُ، متأخّرا، أنني جَانَبْتُ آداب الزّيارة ومراعاة حالة جابر، فانسحبت مهدّئا خاطره، ومرتبكاً بدوري...

مخاطر العين

تملّكتني حكاية جابر وسُرِرْتُ لاقترابه من تحقيق التّوازن والاستقرار على الرغم من علاقتي الشّائكة به، وما يشوبها من تَفاهم في العمق واختلاف في الظاهر. وهو الأمر الذي تسبّب، ومازال يتسبّب، في الكثير من التّصادم بيننا.

ومع بداية انجلاء التّواتر العاصف للأحداث، باتت تحرّكني دوافع أخرى للتأمّل؛ تجعلني أسترجع كلّ ما مرّ به من أحداث من أجل فهم مدى الترابط بينها، وكأنّ في عودته إلى مريم، برغم الغيرة من ماضيها القريب، نوعاً من الاستبطان لماضيه، وتشبثاً به، انطلاقاً من لحظته الأولى.

لقد ظلّ جابر يبحث عنها، حتى وهي بعيدة، من خلال بحثه عن امرأة أخرى يستطيع، أو يتوهّم، حبَّها. فكان كلّما اقترب من واحدة، وجدها امرأة للحواس فقط، ولا تكاد ترضي "الشيء" الذي في داخله. لكن ذلك "الشيء" الغامض، الذي لم يتوصّل إلى التعبير عنه إلا تلميحاً، جعله يصدّق أنه منذور لأمر عظيم، لا يمكن أن تحرّكه سوى امرأة، تكون منذورة، ومرصودة أيضاً، لذلك "الأمر العظيم". إنه لغز أشبه ما يكون بسعْيٍ نصف واعٍ إلى تحقيق سيرة حديثة، تدّعي التخلّص من الماضي وعبوديته، غير أنها تظلّ مسكونة بالغبار وقرع الطّبول- ولو داخل الدّماغ وحده!- مع استحضار الموتى والأسلاف .

تحرّك جابر معتقداً أنه يستجيب لنداء يأكل عظامه ويهيج أعصابه، من أجل استكمال حلقة مفقودة في سلسلة الأسلاف، من دون الخضوع لنواميسهم والاستسلام لتكرار مآثرهم. ولعلّه بذلك كان أقرب إلى استبطان السّيَر، وتمثّل حيوات أبطالها ، منه إلى تكرار روايتها.

أما المرأة فقد شاء أن تكون محرِّكة للأبطال، متدخّلةً في سيرورة الأحداث، إلى درجة جعلتْه يترك لها المبادرة دائماً، مهما كانت الخسارة، علَّ تلك الأحداث تتّخذ مساراً قدرياً لا يكون له ضلع في وجهته. وكأنّ المرأة التي تنتخبها الحياة لأيّام البطولة واشتعال القلوب، لا يمكن لها التجلّي في صورتها المكتملة إلاّ تحت التراب أو في بطون الكُتب .

غير أنّ مريم خشيتْ أن تظلّ مجرّد قصيدة أو أغنية، تكتنز بلحظتها وتتلاشى مع تلاشي توهّجها. فسعت إلى مثالٍ ، بحث عنه جابر ولم يجده، لتلتقي به في نقطة الفشل تماماً.

عودة جابر إلى الماضي، ازدادت كثافة وتجلّياً فيما بعد لحظة فشله واستقراره، أي بعد زواجه من مريم وإصراره على دعوة أمّه من كاف الحجر لتقيم معه، وتَشهدَ ميلاد حفيدتها الأولى "آسرة "، ثم تنطفئ في لحظة مخاض مريم تحديداً، وإطلالة الحفيد المبكِّر "آسر"... آسر الذي ربّته جدّته ثمانية شهور فقط، وهو في بطن أمه، وجاء خروجه المستعجل من بوّابة الإمبراطور وليس من بوّابة الخصب، إلى العالم، متزامناً مع انعطاف جدّته إلى عالم، يفترض جابر، أنه كان فيه (وتلك... تلك حكاية أخرى، على أية حال!)

لقد تدفّقت مياه كثيرة الآن...وأحداث أكثر. لكنْ، لو عدنا إلى الوراء قليلاً، هل يمكن القول، على لسان بوسطل، شاويش الجبس (آه منك يابوسطل!) إنّ القزم لم يكن إلاّ تجلّياً للصّنو الشرّير الذي تملّك جابر ولم يفارقه؟ أعتقد أن القزم، في بعض وجوهه، كان يعبّر عن "لا هويّة" جابر، عن "غفليّته" ،عن عدم انتمائه للواقع. وهو الأمر الذي أدّى به إلى التّفشي، والتكاثر، في الآخرين، مع محاصرتهم، وملاحقتهم، ومحاولة امتلاكهم بأرقام. وفيما هو يصير كلّ الوجوه - وهماً - كان يتوغّل في فقدان وجهه ، لصالح بروز شخصيّة القزم وفخاخه المتحوّلة .

كانت عينه، هي صندوقه الأسود الذي يسجّل كلّ حادث يصيب الجسم ويدوّي في الدّماغ، بما في ذلك سعيُه إلى ذروة الفرجة، أي ولوج صندوق الصّورة، لدخول كلّ البيوت، والتكاثر في الآخرين.

وإذا كان قد خسر عيناً، فمن المعروف أن العينين تتساعدان، وتستطيع عين واحدة أن تقوم بمهمّة الثانية - مع فقدان الاحتياط في هذه الحال، وكذلك: ضمن حقل رؤية أضيق.

لكن، هل يمكن الحديث عن عين ثالثة، متأتية من تأثير شخصية قابعة في القاع من طفولة جابر، هي شخصية العينوس؟ ولعلّها العين الثالثة التي تستطيع، في حالة جابر، أن تسكن فراغ العين المفقوءة؛ عين مسافرة، ذاهبة، آيبة ، جوّابة آفاق ؟

هنا يغدو السؤال متعلّقا بمصير تلك العين...

لماذا استكان جابر في النهاية؟ أَمَعْنَى ذلك أنه، بكل بساطة، كان يعاني من مرض نفساني ثم شفي، أم أنه تراجع أمام مخاطر العين، وأمام الأهوال الناجمة عن ملاحقة نزواتها ؟

أعترف بأنني استفدتُ شخصيّاً، من معايشتي لجابر، ليس باعتباره مَعيناً لا ينضب من الحكايات فحسب، بل من خلال معاشرتي لضفاف أخرى أيضا، كانت تأتي متزامنة وتكاد تختفي تحت طبقة أخرى، بعيداً عن سطح الأحداث، غير أنّ كلّ ذلك أرهقني؛ فكان الإرهاق واليأس يتناوبان عليَّ، ويدفعان بي، أحياناً، إلى عدم الاكتراث لحياته أو لموته، وربمّا إلى استباقه، من أجل وهم آخر، اسمه: راحتي الشخصيّة!

حديث المفاجآت

مرّ زمن كاف لأتصالح نهائيّاً مع جابر، ربمّا باسم الماضي مرة أخرى! غير أنه صارحني، في إحدى زياراتي، بأنني أستفيد حتّى من تحوّله إلى بائع روبافيكيا. قال ذلك وهو يمدّني بأفضل قطع الثياب التي كان يخبئها لي، بعناية لا تفوقها سوى عنايته ببدلة مستر هامّت الكاكية، متدليّة من السّقف، في أحلى علاّقة ثياب خشبيّة. ولم يكن ليتعب أو يملّ من الردّ الدائم على زبائنه الذين يطلبون معاينتها عن قرب أو قياسها، بجملته التي باتت أثيرة لديه:

- لا،لا، ليست للبيع، هذه كسوة البخت!

ولم تعد تلك جملته الوحيدة التي لا يسأم تكرارها. إذْ بات من اختصاصه أيضا تكرار الحديث عن القطع النادرة، الغلاء، كثرة الوسطاء في هذه المهنة، سياسة العرض والطلب، انتقاء القطع الممتازة لزبائنها الممتازين إلخ...

قال لي ساخراً :

- تصوّرْ! حتّى صديقنا عمر القاسمي يذكّرني دائماً بأفضاله عليَّ!

- كيف ؟

- يعتبر أن شغلي هذا، نَبَع من الفكرة الأولى التي اقترحها عليَّ منذ وصولي إلى العاصمة قبل سنوات...

- أعتقد، يا جابر، أنه مارس مثل هذا العمل، واقترحه عليك؟

- قال لي: لو بدأتَ هكذا، من الأوّل ، لوفَّرْتُ على نفسك عذاباً طويلا.

- هذه مشكلة عمر دائما، إنه يخلط بين النّتائج والأسباب، وأحيانا بين الوسائل والغايات...

- أحياناً ؟ لكنّه شخص طيّب القلب إجمالاً .

- على أيّة حال، هو أيضاً يستفيد من هذا المشروع، كما يبدو...

- لنقُلْ إنه مشروع خيريّ للأصدقاء!

وطفق جابر يضحك ثم عاد ليخبرني :

- هل تتصوّر ماذا اقترحتْ عليَّ مريم ؟

- ماذا ؟

- قالت لي، لماذا لا نفتح مشروعاً آخر، يدرّ ربحاً وفيراً ؟ بما أنك تجيد التّعزيم، وأنا أجيد قراءة الفنجان كما تعلّمتُها من أمي، نفتح دكان عرافة!

- وأنت، ماذا كان رأيك، ألم توافق ؟

- أنا ؟ مازلت أفضّل ستْر النّاس بفلوسهم على تعريتهم بفلوسهم!

لكنّ الطرافة في حديث جابر مازالت تطلّ أحيانا من هواجس محتشمة بات يخشى الانطلاق معها كثيراً، أي إلى حافات أخرى. فيروي لي أطرف المفاجآت المتعلّقة بعالم الثياب المستعملة، وبأصحابها الأوّلين، والبعيدين وراء البحار. وكذلك المفاجآت المتأتّية من زبائنه، ولا سيما من النساء!

صار يتحفّظ تجاه أيّة كلمة من شأنها أن تذكّره بماضي حكاياته؛ ذلك الماضي الذي بات ينغلق عليه مثل صدَفَة .

ولقد حدث ذلك ذات مرّة عندما قال لي مازحاً :

- تصورْ لو أن مفاجأة ما، تحدث، وتنسحب كلّ قطع الثّياب المستعملة طائرةً نحو أصحابها الأوائل، هكذا...فجأة! تتطاير من دكاكين "االروبافيكيا" ومن أجسام لابسيها وهم في الشّوارع والمكاتب والمصانع والحقول... فيبقى هذا، نصف عارٍ، وذاك، بلا حذاء فقط، وتلك، من دون ورقة توت!

- أسأل عن مصيرك أنت وقتها!

- أنا شخصياً أقف عارياً تماماً، في دكّان خالٍ، متوسّطاً رفوفاً وعلاّقاتٍ فارغة، لأبيع بضاعة الوهم!

ضحكتُ لطرافة الفكرة ولم أستطع مقاومة تحريك الصَّدَفة :

- إنها لحكاية جديرة بخيال قزم!

رمقني جابر بعينه الوحيدة، في حين لاحت عينه المفقوءة مثل ماضٍ تتحرّك فيه الأشباح. بانَ عليه انفعال مكتوم لكنه لزم الصمت ثم حاول تغيير الموضوع...

وعلى الرّغم من سعيي الدّائم إلى محاولة نسيان ماضي الصّدَفَة، بمراقبة كلامي وعدم تكرار مثل تلك الملاحظة، فقد حدث، مرّة أخرى، أنْ أشار جابر إلى حقيبة يد جلديّة، نسيتْها إحدى زبوناته في الدكان. وأخبرني بأنه اضطرّ إلى فتح الحقيبة لمعرفة هُويّة صاحبتها، ومحاولة إعادتها إليها، أو تسليمها، في أسوإ الأحوال، إلى مركز الشرطة .

- هل تتصوَّر ماذا وجدت فيها ؟

- ماذا وجدتَ يا جابر ؟

- لم أجد هوية، ولا بقية أموال، ولا أيّ شيء من هذا القبيل؛ فعلّقتها في الدّكّان، علَّ صاحبتها تعود ذات يوم، وتتعرّف عليها.

- إذاً، فهي حقيبة يد، فارغة...

- بل فيها سبع صور، لسبع صبايا متفاوتات الجمال...

- معنى ذلك أنّ الثامنة هي صاحبة الحقيبة!

أدرك جابر طبعاً أنني ألمّح إلى قمر والصبايا السبع، فغيَّر مجرى الحديث موضّحاً بنبرة جدّية مبالغ فيها :

- يبدو أنّ صاحبتها مسؤولة في إحدى الجمعيات النسائية، لأنني وجدت أيضاً إيصالات تتعلق بتسديد اشتراكات، لكنها إيصالات مهملة، ولا ذكر فيها إلاّ للمبالغ المدفوعة.

وعاد ليخبرني بأن مشروعه ناجح حتى الآن، وأنّ هناك طلباً متزايداً على الثياب المستعملة بسبب غلاء الألبسة الجديدة، خصوصاً وأنّه يعمد إلى بيع القطع المنتقاة بعد فرزها وغسلها وكيّها؛ لقد أصبح ذلك من اختصاص مريم قبيل زواجهما وبعده.

- يكفي أن يزدهر رأسمالي لتحدث معجزة أخرى!

- كيف ؟

- أحتاج إلى بضعة ملايين كي أتجاوز عقبة الوسطاء، وأقتني البالات من الشركات الكبيرة مباشرة.

- أعتقد أنك، بذلك، قد تنعم بمفاجآت أخرى يا جابر!

- أستطيع عندئذ أن أحصل على أجمل القطع وأجودها قبل عمليات الفرز.

- بل أقصد أن البالات البكر، قد تخبّئ لك مفاجآت من نوع آخر...

- مثلاً ؟

- هناك صورة لا تزال ترافقني منذ طفولتي: إحدى قريباتي عثرت على مبلغ خمسمائة دولار في جيب معطف أميركي!

بَدَا الاهتمام على وجه جابر وما لبث أن علّق مبتسماً :

- تكفي مثل هذه الإشاعة حتّى تندسّ أيدي كلّ الوسطاء في جيوب كلّ الشعوب المصدّرة لهذه الثياب...

سكتَ قليلا واضاف :

- لكنْ، ما يعثرون عليه هذه الأيام لا يتجاوز بعض المحارم أو الأزرار.

أقصى درجات التساؤل والحيرة، تملّكتني عقب آخر زيارة إلى دكّانه منذ أيام قليلة، عندما أعجبني سروال فدخلت لأجرّبه في غرفة القياس. وبعد خروجي لم أتمالك نفسي دون أن ألاحظ له وأنا أغادر الدّكان:

- اِنتبهْ يا جابر! ثمة ثقب موارب في باب الحجرة المخصّصة للقياس!

خاتمة

هكذا استكان جابر، في النهاية، إلى الهامش، بعد أن تبنَّتْه الفرجة، فصار أشهر من قدراته، لكن من خلال الفشل. حاول ممارسة سلطته على الآخرين لكنّه عاد لينغلق على ذاته مثل تلك الصَّدَفَة التي يمكن أن تنفتح، بمفاجأة، على كفّ غوّاص، أو على عين عابرة...

أما أنا فأتابع طريقي المزدحم بتناوب الأعراس والمآتم والمهرجانات والكُرة، وبأبديّة زائلة في التسوّق ودفع الفواتير واستخراج الأوراق الرّسمية، وقهقهة العين الصّامتة...

ومع ذلك أكتب، من أجل قارئ نادر، أو غير موجود، ينتظر حتى يوجد أن تأتيه هذه الحكايات من خلال فرجة أخرى .

أليست عين الصّمت أنسب للاحتفاء بمن غابت ذكراهم ؟

وهاهوذا الصّيف مرة أخرى: عرق، حرارة، لزوجة، رطوبة، بحر، أعراس، مهرجانات، حروب واتفاقيات؛ والحياة تمضي...

مررتُ بأرضي المائيّة المنزلقة لألقي على زوايا بنائها آخر نظرة، بعد أن قرّرت بيعها بأبخس الأثمان، كما جرت بي العادة في صفقاتي.

ذهبت لأعاين وأقدّر ما توصّلتْ إليه الأعمال النهائية للبنّائين الكسالى، قبل صَرْفهم. قلت: أرى شاويش الجبس أيضاً، لعلّه حفر بئراً أخرى، أو خلع باباً لم يعجبه، أو اكتفى بعزق أرض الحديقة الخلفيّة في الفيللا...

لكنني لم أجده.

كان كوخه الخشبي خاوياً، إلاّ من بقيّة أوراق وزجاجات فارغة، وأعقاب سجائر، بل الكثير، الكثير من أعقاب السجائر الرخيصة. وعلى الألواح الخشبية التي بُني بها الكوخ، من الداخل، لفَتَ انتباهي وجود خربشات كثيرة، بأكثر من لغة مستوردة عبر العالم الذي جاب بوسطل بعض بلدانه طلباً للحكمة النسبيّة!

قرأت: " لابدّ أن أذهب كي أعود، كلّ ذهاب هو غياب نسبيّ " وتمكّنت من تمييز أسماء نساء أجنبيّات خربش بوسطل أسماءهنّ في ليالي وحشته بين ألواح الخشب. لكنّ الأكثر إثارة كان ذلك الرَّصف التنازلي لما يشبه صلاةً شخصيّة، بخطّ بوسطل، على الخشب:

جئتُ يا الهي ولم أقابلْ براهميّاً واحداً في الهند.

جئت يا الهي ولم أدخّن غليوناً واحداً في أمستردام.

جئت يا الهي ولم أركض وراء كنغر واحد في أستراليا .

جئت يا الهي ولم أشرب الساكي في اليابان .

جئت يا الهي ولم أحتفل بعذراء واحدة في البرازيل.

جئت يا الهي ولم أشهد حرب عصابات واحدة في الهندوراس.

جئت يا الهي ولم أشاهد جبلاً جليديّاً واحداً في القطب.

جئت يا الهي ولم أستكمل رقصة الموت في افريقيا .

جئت ...

جئت ...

جئت ...

فهل أعود إلى كوخ، في أرضي، ولم أشاهد ثلاثة أرباع العالم؟

غادرتُ المكان مشياً، وشعرت بحاجة متزايدة للمشي. فمشيت حتى خيّم الظلام.

للذكرى؛ للذكرى فقط؛ قلتُ أمرّ بشُبّاك المنعطف الثالث، بعد المتجر الكبير. كانت السّاعة الليليّة هي ذاتها، بحرارتها ورطوبتها، وصمتها المميّز لتلك الأحياء. ضوء خافت وستائر مُسْدَلَة. لا شك أن امرأة المنعطف الثالث، صاحبة البشرة الحليبيّة، فضّلت السّباحة في عرقها على الوقوع في شبكيّة عين متربّصة في الظّلام.

وحده الصّمت جعلني أعود إلى بيتي لأكمل حكاية "مملكة الأخيضر"، برغم الحرارة الخانقة... الكلام ثرثرة في الرّيح.

تمّت في تونس 29 - 12 - 1992 / 02 - 11 – 1995

من أوراق المؤلّف

شاويش الجبس

قبل اختفاء شاويش الجبس المفاجئ، لاحظت أن اليأس بدأ يتملّكه، مع أنه كان يحاول إخفاءه تحت وشاح من السّخرية. قال لي، في لقاء آخر بعد تلك السّهرة اللاّذعة، العتيدة، إنه يفكّر في العودة، من حيث أتى؛ أي إلى بلاد الغربة. وهنا أسجّل أبرز ما جرى بيننا في ذلك الحوار. قال بوسطل :

- منذ عودتي، استقبلني صرصور في صحن الأكل الجاهز. وأتت لي مضيفة الطّائرة بسندويتش؛ فاشترتْ صمتي. كنتُ مشتاقاً وخائفاً؛ لن أُفلحَ في هذه البلاد. أعرف أنني مدين لوليّ قريتنا بأربعين ديكاً أصيلاً. هي الأضاحي التي لم أقدّمها له طيلة سنوات انقطاعي عن القرية ثم هِجْرَتي من البلاد. هل تتخيّلني مستأجراً شاحنة تحمل أربعين ديكاً ؟ أعتقد...

قاطعتُه ملتقطاً تلك الصّورة المدهشة :

- هذه حكاية جميلة عن "بوسطل بَابَا، والأربعين ديكاً أصيلاً!"

ابتسم وأكمل :

- أعتقد أن ذلك الوليّ هو الذي يرفض مباركة عودتي، ويعرقل خطاي في هذه البلاد... سأعود من حيث أتيت!

وتواصل الحوار بيننا على هذا النسق، (بعد الاختزال هنا) :

- الحنين، يا عزيزي بوسطل، يشتدّ مع الخوف من المستقبل. غير أن الغربة تنفي التّراكم في مكان واحد. إنها بنيان هشّ كثيراً ما يؤوي علاقات زائلة، وفيها تعاملُ فوقيّ مع الأمكنة، وحتى ما يمكن تسميته بتراكم التّجربة والخبرة، ليس في حقيقته سوى تراكم روحي يزيد في تناقضك مع المكان الجديد بسبب حنينك إلى الأمكنة القديمة...

- حتّى زوجتي تخلّت عني! أنا الذي كنت أحلم ببيت ريفيّ فيه قرميد ودجاجات وبغل. لكن العالم رحب. وكلما أدرت مؤشّر الراديو زعزعتني نداءاته وأغانيه... أتخيّل أصدقائي في المترو، وفرانسواز الآن تقلي البطاطا وتحرق أصابعها فتقول "ميرْدْ!" وأنا هنا، في جنوب الدّنيا... ويقولون إنّ العالم صار قرية!

- يبدو أنه صار كذلك يابوسطل.

- إذاً، تعال شاركني في مشروع قرية...

- ماذا ؟

- بما أنّ العالم صار قرية، نستطيع افتتاح قرية العالم!

- وما هي مواصفات هذه القرية؟

- دكّان يبيع أعاجيب العالم. نبدأ بالأشياء الصغيرة؛ قلم يبكي، كأس يعزف، ساعة تتكلّم... وعندما يتحسّن وضعنا ننتقل إلى الوزن الثقيل: آلات جبّارة ، شاشات كونيّة وعيّنات من الكواكب الأخرى..."

***

أدوّن هنا أيضاً ما قاله لي إبّان الفيضانات التي عمّت أوروبا :

"سوف تتواصل الأمطار، وتغمر اليابسة، وتنتهي أوروبا ماءاً في الماء، فيحطّ سكّانها دفعات، على جبال أرارات الجنوبية. يقيمون مستوطنات ومعسكرات وقواعد عندنا، بينما يتساءل أطفالهم : ها قد وَصلَنا أخيراً! لكنْ أين هم سُكّان المرّيخ ؟"

***

وأخيراً هذه الأسطر القليلة التي دوّنها على ظهر بطاقة بريديّة، بعث بها إليَّ من ألمانيا :

برلين في 15 أكتوبر 1995

أنا، هنا، أخيراً! الحياة أصعب مما في السّابق... لكنها واسعة، في عالم واسع. بما أنني ابتعدتُ عنك، أستطيع الاعتذار الآن: لقد قرأت كلَّ تلك الأوراق التي كنتَ تتركها في الفيللا، وفهمتُك جيّداً... ما هي آخر أخبار البناء ؟ سلامي إلى عائلتك (ولا تنسَ ابنك، صَاحبْهُ، كما قلتُ لك...)

دمتَ لصديقك عزّوز المرداسي.

ملاحظة : لم أذكر لك عنواني لأنّي لم أستقرَّ بعد.

جابر

بعد تردّد وافق جابر أن يروي لي حكاية "شمس القراميد" على أن أتصرّف في صياغتها وفي التّخفيف، ما أمكن، من كثرة الكلمات المنقرضة التي قد تحتاج إلى قاموس آخر، وربما إلى شروح وتعاليق تثقل الحكاية. اقترحت عليه تثبيت اسمه على غلاف الكتاب باعتباره صاحب الحكاية، وراويها. لكنه رفض ذلك. وجاءت تطوّرات لاحقة، ولا سيّما حادثة الفرجة: لتزيد في ترسيخ يقينه: " يا أخي، أريد أن أبقى نكرة منذ اليوم، أريد راحتي!"

وهناك مشكلة أخرى ...

إذا كان جابر راوي الحكاية فهو بطلها أيضاً، أو لنقُلْ هو الشخصيّة الرئيسيّة فيها، مادامت بطولته في منتهى السلبيّة، كما أحسب. وهكذا بدأت الحكاية بمشادّة بيننا: أنا المؤلف الكسول الذي يرهقه العيش اليومي، فيعطي أولويّة لمتطلبات الَحياة ويضيع في تفاصيلها مؤجّلاً الكتابة إلى ما لا نهاية، أو بالأحرى إلى نهاية إكراهيّة، فيُقحم مشاغله اليوميّة في النصّ بحماسة متفاوتة... وجابر الذي يرفض أن يكون جُزْءاً ، بَلْ كُلاً، في ما يرويه :

- لا أريد أن يعرفوني كمواطن، وهذه أهمّ صفة لي. لستُ مسؤولاً، وهذا ما يطمئنني ويشفع لي.

حاولت إقناعه بهدوء، ثم قرّرت أن أكون أكثر حزماً :

-اسمعْ يا جابر! أرجوك لا تُضعِْ وقتي، لابدّ لك من هُويّة!

غير أنّه واصل الرفض والاستنكار :

- أيّة هُويّة تريد لي؟ قبل ذلك أيّ صنف من مواطنيَّ تريدني؟ "تونسي اَباببْ! اَبابَبْ!" وإلا "مغسي مسيو، جُو سوِي فيبْل في العغبيّة" ؟ فكرة! أنا أيضاً جُو سوي ضعيف لُونْ فغانْسي بغشة! بغشة! ولن أعمل معك!

قلت له مُطَمْئناً :

- لن تعمل كاتبا ، طبعاً، لكنّك تستطيع أن تروي ...

- ولِمَ لا أروي للمستر هامت ؟ ما هي إغراءاتك أنت ؟

قرّرت أن أثنيه عن ذلك التهرّب، وأُخرجَه من ذلك الغموض خصوصاً وأنه يروي بشكل أحادي ولا يسلّط الضّوء، إلاّ لماماً، على سلوك شخصيّاته ووجهات نظرها وكأنها تابعة لكلامه ولنظرته الأولى. كان لابدّ من جعله كائناً حيوياً بطموحاته وتناقضاته ورغباته. وقبل ذلك، كان لابدّ من تسميته لأنّ التّسمية امتلاك، مع تحميله مسؤوليّة ما، حتى لا أتحمّل أنا، المسؤوليّة كلّها. ولا سيّما إذا كان جابر ينوي الخوض في حكاية تتحرّك فيها سبع صبايا (ينبغي طبعاً أن يكنَّ) كالأقمار، وشيخ أعور يسترجع الكينونة من بداياتها محاولاً شقّ الظّلمات ببريق الصّبايا.

عرفتُ جابر منذ طفولتي... أذكر كيف كان يعلّمني في بستان أبي، ويفتح عينيَّ على أسرار الأرض والدّنيا. لكنّ لقائي به بعد عقود من الزمن كشف لي أمراً مزعجاً: إنه يستمرّ في التعامل معي انطلاقاً من الماضي، أي بوصاية مَنْ علّمني وتَبَنّاني ذات يوم.

أردتُ أن أكون واضحاً في هذه المسألة :

- مرَّ زمنٌ يا جابر! صحيح أنني لا أتوصّل إلى مصارحتك بكلّ ما في داخلي، لكن، أرجوك، لماذا لا تعتبر الماضي مجرّد ذكريات جميلة ؟

- ذكريات ؟ نعم ...

- أقصد من دون المبالغة في محاولة امتلاك أحدنا للآخر باسم الماضي!

- ومَنِ الذي قال ذلك ؟

- المشكلة أنّ هذا الأمر لا يندرج ضمن القول بل ضمن السّلوك.

- لا أفهم ...

- هل تظنّ أنك تركْتَني ذات يوم من تلقاء نفسك، لأعود إليك؟

- الأقدار وحدها تفعل ذلك!

- اسمعْ! أنا عدت من غربتي، من هاويتي، من قدرٍ حاولتُ صياغته على شفا الهاوية. لكنّني بقيت ألفّ وأدور حولها. دعنا الآن من هذا الموضوع. ولنعدْ إلى الحكاية. اسمعْ! سأجعلك مواطناً. سأصفك بأنك كهل، لكن على عتبة شيخوخة مبكّرة أو قسريّة، مع أنّ فارق العمر الذي كان واضحاً بيننا، تلاشى الآن بسبب التقائنا على الدرجات الوسطى في سلّم العمر. إذاً، سأجعلك أشعث مغبرّاً، كذّاباً بما فيه الكفاية، تحليةً للحكي واقتصاداً في الجهد، فَرحاً بما تنعم، ومزوِّراً، وقت الحاجة، لما تملك. كلّ همّي هو أن أُخرجك من عالم النّكرات والمتلصّصين، وأسمّيك فتصير. انْسَ ما رواه مجهول، وما قالته العرب. انْسَ المدّاح أو الفداوي أو الحكواتي. انسَ الكراكوز وبيبدبا. ولا تدَّعِ لنفسك دهاءَ شهرزاد. أمّاَ أنا فسوف أثبت اسمي ورسمي وأتحَمّل مسؤولية ما أكتب. وعليك أن تتحمّل مسؤوليّة ما تروي.

ردّ جابر غاضباً ومستعيناً بإشارات يديه :

- أنتَ تقيّد خطاي وتلجم لساني! دعني أبدأ من البداية وحوّلني في نهايتها، إن شئت، جرذاً أو ضفدعاً، سمّني فأر الحكاية وأطلقْ ورائي عين البومة، مادامت البومة تسكن ليلي. سمّني صقراً ولا تنسَ أن البومة ليلي. لكنْ قبل ذلك دعني مجهولاً. سمّني ما شئت، مَنْ شئت؛ على أن أتراءى نكرة.

***

كثيراً ما يرتبك حوارنا بسبب طفلة ممتلئة بالوقت "تيك، تاك، تيك، تاك" أبحث لها عن اسم، من خارج الحكاية ومن داخلها، فتَتدخّل ، بغير إرادتها، في إرباك الشخوص، وأحيانا في أدوارهم. وقد تكتفي بـ "كغ!" استحساناً، أو "آءْ" استنكاراً .

وهناك أخوها الذي يكبرها الآن بثمانٍ، ويبحث لها عن اسم حتىّ تكفَّ عن تحريك الآخرين، وتنصرف إلى شؤونها؛ شؤون النُسْغ في عُودِهِ ، والعُصارة في ثمرتها، والطّيْر في فضاء الزَّغب .

وفيما هي تخترق الصَّمت بما قبل اللغة، يحدّثني جابر عن طفل آخر، بل عن قزم اسمه سهلون، يتوعّد بفعل كلّ كبيرة، حتّى ليكاد يُحرق دماغَ كلٍّ من حوله. ويأتيني جابر أيضاً، برجلٍ ، نَضُجَ على أرض طفولتنا، أيّام كنّا نناديه "شاويش الجبس" أو "بوسطل" لأنّه أمضى أوقاته بيننا في خلط الجبس بأنواع كثيرة من الحشرات من أجل سدّ الثُّقَب والثّغرات. كان قصير القامة، ممتلئ الجسم، واسع العينين، يعضّ كثيراً، ويرى تفاصيل الأرض جيّداً بسبب تعلّقه بصيد أنواع الحشرات وتسميتها كما يروق له.

وإلى جانب شخصيات أخرى كثيرة، ذكّرني بها جابر؛ مثل العينوس الذي كان شيخ طريقة معروفة ثم مقطّر عنب وتحوّل إلى تقطير بريق الصبايا، هناك المكان؛ والمكان عند جابر هو دائماً مكانان: يذهب إلى أحدهما متسائلاً عمّا كان سيحدث له في المكان الثاني. وهكذا يعيش قلق المراوحة بين الأوّل والثاني. وثمّة، طبعاً، السّبع الصّبايا! ولا أدري لماذا كان ينبغي أن تُكَمِّلَهُنَّ، في حكاية جابر، تلك الثّامنة، الهاربة من فخاخ دائمة، مع أنّ قدرها هو الخروج من تلك الفخاخ سالمة. وهناك أيضاً ما لا أتوصّل إلى تصديقه؛ وهو وجود أسلاف لنا، يتحرّكون في ثنايا جهاتنا، وقد يحرّكون ستارة، أو يكسرون مزهريّة. وكنّا نحسبهم مجرّد شكل من أشكال الغياب.

حاولتُ إغراء جابر بأهمية أن يسجّل المرء حكاياته خصوصاً وأنها تعدّد حياته، فوافق في النهاية، مستدركاً:

- أعتقد أنّ حركاتنا وسكناتنا تخاطب محيطنا بطريقتين؛ إحداهما واعية تخاطب البشر والحواس والكائنات المرئيّة، والثّانية تتفاعل، بهذه الدّرجة أو تلك، مع كائنات قريبة، كثيراً ما تكون غير مرئيّة. وكذلك هو الشأن بالنسبة للموتى.

سَكَتَ قليلاً وهو يتأمّلني، ثم أضاف يسألني :

- هل يصعب عليك افتراض موتك عندما تكتب؟

استغربْتُ سؤاله. هل يمكن لمثل هذا السؤال أن يأتي من فم رجل فاشل؟ من فم رجل، مصيره اللاّحق أن يبيع الثياب المستعملة ؟ قلت:

- كيف أفترض موتي وأنا أكتب؟ من الذي عساه يكتب حينئذ ؟

أجاب ببساطة :

- الحياة ؛ النّور، الظلّ، الأزهار ...

- لكنْ، لا بدّ من الإيهام بوجود مصادر تتحدّث عن ذلك علمياً! مع أنّ ثمة من يذهب إلى حدّ القول بأنّ اللغة هي التي تختار وُكَلاءَها، فتُعِدّهم وتصقلهم ثم تتجلّى، مرئيّة، عبرهم.

لم يتوقّف جابر عند ملاحظاتي وتابع :

- العجيب أنّ النّساء، في حكايتي، يظهرنَ كما يشأْنَ؛ فأستقبلهنّ كما يُردْنَ؛ أي أنّهن "هُنّ هُنّ" ويمكن، لذلك، أن نسمّيَهنّ "هُنَّ هُنَّ" على الرغم من تحوّلهنّ في المكان وفيَ اللحظة.

رنّ جرس الهاتف فاستأذنت لأردّ على المكالمة. وعندما عدتُ إليه أبديت تبرّمي من ضغوط الحياة اليوميّة على الكتابة، فعلق:

- أظنّ أن قارئك لا يهمّه وضعَك الخاص، ولا حياتك...

- قد يُلقي ذلك بعض الأضواء على عمل يقرأه؛ فكلّ قارئ متلصّص مثلك، داخل الكتاب وخارجه!

- أنا لم أقصد سيرة حياتك، خاصة وأنها ذات علاقة بسيرة حياتي أيضاً .

- كانتْ! وفي جزء ضئيل منها فقط...

- عنيتُ الضغوط اليوميّة المختلفة.

تقدّمتْ ابنتي الصغيرة تحبو "اَءَءْ... اَءَءْ" حملتُها وشرعت ألقي بها في الهواء وأتلقّفها : فوق، تحت، فوق، تحت... حتّى تطير، ابتسم جابر وقال معقّباً :

- ليتك تكتب مثلما تلاعب ابنتك: اضحكْ! العبْ! اكسرْ لعبةً لتكتشف متعة التّخريب! تخلّص من الإستدراكات والشكاوى المتعلّقة بالحياة اليومية! تحدَّثْ عن المتعة لتبني الحكاية وأنت تلعب! أظنّ أن قارئك ينتظر منك شيئاً من هذا القبيل...

- يبقى القارئ شخصاً افتراضياً، وهو متعدّد الوجوه على أيّة حال.

- لكنّ خلق العالم بدأ بحركة حنون، مثل حركتك وأنت تلاعب ابنتك؛ انبثاق من السديم إلى حضن دافئ. أليست حياة الإنسان حكاية يبتكرها كلّ يوم ؟

***

كان لابدّ من جلسات متعدّدة لإنهاء عملنا المشترك. كنتُ أقاطعه مبرّرا ذلك بالكسل، أو بالضّغوط اليومية، أو باليأس من الكتابة. وذات يوم انتبهتُ إلى أن ابنتي تكبر والحكاية لا تتقدّم؛ هي اقتربت من عامها الثالث وأنا لا أزال أحاول التخلّص من جراب الحكايات التي أتى بها جابر متزامنةً مع مولدها تماماً. لقد صار طول قامتها النّسبيّ - كما كان بوسطل يردّد - يتيح لها فرحة الرّكض لفتح الباب. وهكذا تترصّد الخطى خلفه، لتسرع إلى فتحه قبل طَرْقه، أو حتّى مجرّد إدخال المفتاح في ثقب القفل. عدتُ من التسوّق ففتحتْ لي صائحةً ، قافزةً في الَهواء :

- بابا! بابا آخر!

لم أتوصّل إلى فهم قصدها، فجرَّتني من يدي إلى غرفة مكتبي التي كان بابها موصداً. نظرتْ من ثقب الباب وطلبتْ منّي أن أفعل مثلها. قالت وهي تلثغ بحروف كلماتها الأولى :

- ثُوف، بابا آخر، أَكْرَأ ...

(ربمّا لهذا السبّب صاحت كثيراً من الكوابيس ليلاً)

كان جابر في مكتبي يتصفّح أوراقي، معتبراً أنّ ذلك من حقّه، ما دامت الحكاية حكايته. سألتُه :

- ماذا فعلت في غيابي ؟ هل تمتّعت بالظلّ ؟ انظرْ إلى عَرَقي! ساعة وربع من أجل دفع فاتورة الكهرباء، ساعة للسّوق، أرأيت ؟ كيف تريد أن أكتب ؟

لكنّه تجاهل تذمُّري :

-مـا أطرف بُنَيَتَـكَ! اسـتقبلتني ورافقتنـي مـن الباب إلى المكتـب وهـي تلثغ: "أنت عمّي بابا آخر اكتب أكرأ ثكّر باب." هيّا نواصل!

-كلا؛ فسد النهار بالنسبة إليَّ؛ نترك ذلك إلى يوم آخر.

- اسمعْ! المشكلة أنّك عندما تقاطعني بمشاكلك ومشاغلك، تحسب نفسك المتضرّر الوحيد، وحتّى باللّجوء إلى المقارنة تنسى دائماً أنّ هناك من هو مستعدّ لأنْ يقول لك: "مشكلتك لا شيء، مقارنة بمشكلتي!" كلّ ما هنالك أنّك ذهبت لدفع فاتورة، وانتظرتَ دورك، ثم ذهبت إلى السّوق، وعدتَ... سليماً!

- لم أعدْ كاتباً.

- مشكلتك ليست مشكلة؛ وإنمّا تفتعلها لأنك لا تستطيع العيش بلا مشكلة.

- متى تخرج من دوّامة شاويش الجبس ؟

هجم جابر على ذبابة محاولاً اصطيادها :

- ها أنذا أصطاد ذبابة لأغيّر مجرى الحديث؛ وأنا مستعدّ لابتلاعها أيضاً، إن شئت!

- الذّبابة دخلت المشكلة .

- الذّبابة دخلتني أنا .

- أنت المشكلة .

- بل أنت!

- ليتني أستطيع ابتلاعك كما فعلتَ بالذبابة! ألا تخاف الجراثيم ؟

- كلا! بل أخشى آكلي لحوم البشر!

بَدَا الملل على جابر :

- لماذا نبقى هكذا، ونلعب بالكلام ؟

- الوحش هو الذي يلعب بنا!

- منْ ؟

- اللغة تريد أن تستريح؛ وهي الشخصيّة الوحيدة التي تُخفي بطولتها عنك...لك الأحداث، وللعينْ الصّورة، ولي اللّغة.

- لكن، ألم يسبق لك القول بأن اللغة ليست لك، بل أنتَ لها ؟

- لم أبرهن على ذلك!

- على كلّ حال لابدّ أن يكون الحكي حركة في كلّ اتجاه...

- ماذا تعني ؟

- هناك دائماً فـي الحكايات أماكـن سـرّيّة، ومناطـق خفيّـة وكائنات غيـر مرئيّـة، ومرتفعات تستطيع تسلّقها بحثاً عن هواء نقيّ، فتكتشف أن مشكلتك صغيرة جدّاً، بل ضئيلة وتافهة. فتعود إلى مرآتك، وتكشّر أمامها، لمشكلتك. عندئذ تراها مقلوبة، فتتمكن من العودة إلى هوائك...

- تعود متعباً. تعود إلى ذاتك مرهقاً. وبدل المشكلة تصير عندك مشكلتان؛ إحداهما هي الأصلية، والثانية هي ذاتك المقلوبة في المرآة...

- جئتُ لأعلّمك كيف تتجاوز فخاخاً وتعود منها مقلوباً، منعكساً، كما تريد لنا العين في الماء، أو في المرآة...

- وأنا استقبلتك فوجدتك مثل طفل يلقي بلعبته في الموضع الذي يريد بلوغه!

- أراك كالخائف من كلّ شيء. أنت تقتل الحكاية بعد أن تصنع منها مشكلة أو خطراً، وتجعلهما مبرّراً للوأد أو للقتل. فلا أستغرب منك السّعي إلى تحوير بعض الأحداث كي تتوصّل إلى قتلي!

- وما الجديد في الأمر، بالنسبة إليك ؟ مادمتَ لا تُصوّر الأحياء إلاّ كما تراهم عيون الموتى... الفارغة!

- الفارغة ؟ مسكينة هي الحكايات التي لا تحُكى!

- من الأفضل في هذا الوضع أن يروي المرء حكاياته ومعاناته ليتخلّص منها ولا يتكبّد مشقّة إلهاء الآخرين بحكاية وهميّة! اسمعْ يا جابر! كلاّ! لا تسمعْ! بل خذْ هذه القصاصة نموذجاً واقرأْ!

تناول جابر القُصاصة وبدأ يقرأ بصوت عال :

- " يوم 1993/4/18 صباحاً، قال لي ابني: الحياة لا تحبّني لأنّني لم أجد حلاً لهذه المسألة الحسابيّة - وتلك حيلة منه لأحلّ ،أنا، المسألة!- قبل النّوم بكتْ زوجتي: أنا خائفة من المستقبل الذي جئناه ولم نجده - حيلة أخرى...لأنّ المستقبل لا يوجد في المكان!- ومع الفجر اختلطت ثلاثة أصوات لتخرج من حلقي دفعة واحدة - أعصيموء!- ولم أخلص من تلك الحال إلا عندما استيقظتْ زوجتي وقالت : "السّبب في كلّ ما حدث هو أنني نسيت البارحة تهوئة الغرفة." أمّا أنا فقد أصابني الأرق. والأرق لا يصنع كتابة، ومع ذلك سيأتي جابر اليوم ويبدأ باللّوم."

انتهى جابر من قراءة القُصاصة وعلّق مبتسماً بخبث :

- مَرَّ على هذا الكلام أكثر من عامين وأنت مازلت هناك! هل لكلّ ذلك علاقة بي ؟

- بل له علاقة بجدّتي .

- كيف ؟

- كنّا نطلب منها خرافة فتتنهّد وتجُيبنا: " ماعندي ما نخرّفكم إلا خرافتي يا ولياتي" لكنّنا نرفض أن تحدّثنا عن حياتها الشّخصية. ولا يمكن، بالنسبة إلينا، أن تكون الجدّة أكثر من أداة للحكاية ووسيلة لها، تماماً كما ترفض أنت الآن حكايتي وتسخر منها، وكما قد يفعل قارئ مفترض! المهمّ أنّ استدراكات جدّتي تنتهي بها إلى حكاية جديدة، أو مستعادة، لكي نشارك في فحصها وتقليبها وتقويمها.

- دعني أبدأ إذاً...

- اِبدأْ!

الدّالية والحِرْباء

كان يا ماكان ،

كان في هذا الزّمان بنيّة بلا اسم، أتى بها كاتب كسول، يكره الكتابة، ويقول إنه يمارسها مع ذلك، لنقصٍ في الوجود .

وكان لكلّ الناس أسماء... حتى للحِرْباء .

لكنّه نسي أن يسمّي ابنته . وأراد أن يحكيَ حكايتها. فظلّ يناديها :" اَءَءْ ... اَءَءْ! " وهو أوّل صوت أتت به إلى الوجود ، بعد البكاء. قال الجدّ لابنه " تستاهلْ!" عندما غضبت البلديّة وأحالت الاسم المتأخّر إلى المحكمة.

ومن المعروف أن الجاهل لا يُعذر بجهله، قانونياً. والحال أن الأب كان يجهل بأن هناك مهلة عشرة أيام فقط، في المدينة، وخمسة عشر يوما، في القرية، لتسجيل أيّ مولود جديد.

أمّا الاسم فقد ركض به أخوها في الإبّان من دالية، أغصانها "دانية" غير أن حِرْباء ، بين أغصان الدّالية، عرقَلَته. كانت لها عينان متربّصتان، تماماً كما تكون حرباء في فصل شَتاء. قالت له الحرباء :

- تسلّق الدّالية لترى من أعلى، تسلّق الدّالية لتصير عينك أوسع، وترى الحكاية كلها من فوق!

- ما علاقة هذه البداية بالحكاية ؟

-كلّ شيء له علاقة بكلّ شيء ؛ يكفي أن يأتي الخيط ...

ما كان أجملَها وهي ترفع حاجبها وتقول: كُواكْ!

قالت البطّة :

- دخلت بطّة وخرجتُ دجاجة!

قال البطّ الذّكر :

- ربمّا كنتَ بطَّة أنا أيضاً؛ ولا يأتي البطُّ إلا جمعاً يطير، وها نحن أُولاءِ نصعد السّلالم الآن.

وتهادت أسراب البطّ حتى تحوّلتْ إلى بِطاط وبُطُوط من كثرة ما اجتمعت وجُمِّعَتْ. كانت تتدفّق، نازلة صاعدة، ومؤخّراتها الدّهنيّة تلامس أطراف الدّرجات. وها هي ذي بطّة تجوب الأروقة :

- أروقة لا تفضي إلاّ إلى أروقة. كأنها هي نفسها. درج من الجهة اليمنى. طابق أوّل. كُوَاك! لكنْ أين الدّرج ؟

- اذهبي إلى الجهة اليسرى باتجاه الطابق الأوّل، وإلا اختلف الأمر... كُوَاكْ !

-بقايا سجائر. دوار. درج. درج. طابق أوّل. ثان؟ كُوَاكْ!هذا هو المكان عينه! عدتُ إليه! هي ذي البطّة الحزينة مقعية تحت الجدار. المكان نفسه كُوَاكْ! من يدلّني ؟

أقبل حارس البطّ دافعاً بمنقاره وجناحيه جموع البطّ كي يحشرها في المطبخ. صاحت بطّة " كُوَاكْ!" ووقعت "برمْ!" على بُطيْطة "وا...وا...وا...وا..." فقدت البطّة الكبيرة حسّ الاتجّاه في الأروقة من شدّة الدّوار.

ظلَّ الحارس مشغولاً بآخر قادم جريء، تحدثْنا عنه في البداية، ظلّ يرفض أن يُحشر في غرفة ضيّقة يبدو أنها كانت مطبخاً قبل تحويل المبنى إلى محكمة. قال ذَكَر البطّ العصبيّ الجريء:

- أنا بطّة ولست سردينة!

عندئذ انقطع صوتُ شيخٍ هَرِمٍ من البطّ، كان يحكي عن الكاكاويّة ويقول "عندما حوّمتُ في سموات أخرى سمعت بُطوطاً تسمّي الكاكاوية باسم آخر هو "الفستق السوداني!" وعادت البطّة أمُّ الفرخة الباكية. وتعقّد الموقف بسبب ذكر البطّ العصبيّ:

- لا أريد التّراجع عن المنجزات الحيويّة التي تعلّمتُها في بلاد البِطاط البعيدة!

هدأ قليلاً،عبّ الهواء بمنقاره وأضاف :

- إنّ بطّة واحدة هناك تساوي مطبخ بطّ هنا! كُواكْ!

ردّ عليه حارس البطّ :

- أنت الآن هنا، ولست هناك. وإذا لم يعجبك الوضع هنا، عليك بالذّهاب إلى هناك! وإلى هنالك أيضا!

احتجّ ذكر البطّ العصبيّ :

- عندما أكون هنا أكون هناك، وعندما أكون هناك أكون هنا، كلّ سماء البطّ موطني! كواك!

قال شيخ الكاكاويّة :

- هذا طائرُ بطٍّ مهاجر؛ واضح من سلوكه ومن طريقته في قول: كُواكْ!

بعد مرور ربع ساعة على المعركة؛ أو بالأحرى، على المشادّة التي تطايرت فيها ريشات قليلة، وساعتين على الموعد، بدأت المناداة على البط ّ. ومع أن الملفّات كانت مرقّمة، وعليها ريشة من كلّ بطة، فقد كان يُنَادى على ملفّ البطّة رقم 4720، ثم ينادى على ملفّ البطّة رقم 4701 فقط! فاكتشفت جموع البطّ أنّ المناداة غير متسلسلة، وتتمّ بشكل عشوائي: إذاً، لابدّ من التّدافع قرب الباب، وعدم التّغيب لحظة واحدة حتى لا يُؤجَّل الملفّ إلى جلسة يوم الثلاثاء القادم.

قالت حاكمة البطّ بعد أن شاهدت ريشة ذكر البطّ العصبيّ في ملفّه وتمعّنت في بصمات قدميه على الأوراق:

- تريد الإثبات بأن ابنتك هي ابنتك ؟
- كُوَاكْ!

- أين الشهود ؟
تقدّمتْ بطّة أنثى وبطة ذكر :
- كُواكْ! ثم كُواكْ!
عادت حاكمة البطّ لتسأل البطّة - الأبَ :
- ما الاسمُ الذي اخترْتهُ؟
أجاب :
- وزّة!
اعترضت حاكمة البطّ :
- كُواكْ! وألف كُواكْ! هذا ليس اسم بطّ !
قال الأب :

- هو اسم بطّ قديم كان يطير ثمّ فقدَ القدرة على ذلك، كواك!

وختمت قاضية البط بتتثبيت الاسم من خلال حكم، بعد أن رفعت حاجبها الأيسر. كانت بطة لطيفة جداً. لا تريد مَنْ يتدخّل في شؤونها القانونيّة ؛ قالت :

- لقد تساهلتُ معكم ؛ جئتم بشاهدةٍ أُنثى وشاهدٍ ذَكَر، والحال أنّ شهادة الأنثى (كواك!) مطعون فيها (كواك!)

قال ذكر البطّ العصبيّ الذي هدأت أعصابه الآن :

- لقد سألتُ بطّة صديقة تعمل محامية... ثم إنني استندت إلى مجلّة الأحوال الشخصيّة في بلاد البطّ.

- كواك! ربّتْ حاكمة البط ّ، أرأيتَ أنك من البطّ المهاجر! نحن نستند إلى النص الذي أتت به نواميس البطّ، وليس إلى مجلّة أحوالها الشخصيّة هنا؛ لقد تسامحتُ معكم!

ما كان أجملها وهي ترفع حاجبها وتقول كواك!

وهكذا خرج الأب وبطّته، وأنا، الشاهد الأوّل والرّاوي، والبطّة التي تشكو من السكّريّ، وهي الشاهدة الثانية، تسأل عن "المبروك" . ومرّ وراء ذَكَر البطّ المهاجر محامٍ من البطّ. فصاح ذكر البطّ وراءه بصيحة وافدة:

- إنّه اغتراب كامل في بلاد البطّ، كواك وألف كواك!

ثم حكّ مؤخّرته بدرجات السلّم متسائلاً :

- والآن ؟ أأنا من فصيلة البطّ أم من فصيلة الإوزّ ؟

طمْأنْتُه ، أنا الشّاهد الأوّل والراوي، قائلاً :

- كواكْ! انتظرْ قليلا حتى تعتاد المكان، كواك! سوف تكبر ابنتك وتحدّد فصيلتك!

فتنفّس الصّعداء كما تتنفّسها بطّة جديرة بهذا الاسم وقال:

- آه! كُواكْ وألف كُواكْ! كواك وألف كواك!

وبدأت صيحاته تخفت قليلا قليلا:

- كواك...واااااك...

وما لبث أن استكان ؛ كغيره من مخلوقات البطّ.

استدراج المؤلّف

سـألني جابر عمّـا إذا كنتُ أجـد نوعاً مـن التّطهيـر فـي الحكايات التـي تجري على ألسـنة الحيوانات والطّيور، كمـا فـي كتاب كليلة ودمنـة، أم أننـي أفضّـل ذلك الأسـلوب الرمزي هروباً مـن الرّقابة. قلت :

- لكنّك جئتني بطيور لا تطير، وذلك مع خفّة دم تحاول ذلك. ما ألعنك من راوية بطّ أيضاً! ينبغـي أن تظلّ تحـت سـلطة العينـ وأنـت تروي. هذا أسـلوب التقاط ممتاز. ولا تنـسَ الاحتماء بالسخرية إذا دخلت حلبة المحال.

- وإذا دخلتُ الجنس ؟

- عليك أن توشّحه بحرير اللغة.

- وهل اللغة بُرنس أو وشاح ؟

- وهل الجنس عندك مدماك وترباس ؟

- ما معنى مدماك وترباس ؟

- لست أدري. جاءتني بهما اللّغة! ربمّا كانا من مرآبها الميكانيكي!

سكت جابر محدّقا في وجهي كعادته عندما يريد تذكّر شيء ، وقال:

- الآن، أريد الاستماع إلى حكايتك كما استمعتَ إلى حكايتي. أنت عدتَ من هجرة؛ بل من هجرات طويلة. ماذا فعلت؟ كيف وجدت المكان بعد عودتك؟

- لماذا تطلب ذلك الآن ؟

- لكي أُمَوْضِعِ حكايتي!

- ماذا ؟

- لأُجلسها طبعاً! كيف أزرع خبايا، في خبايا لا أعرفها ؟

- هذا موضوع معقّد، وقد يصيبك بالدّوار أو النّوم!

- احْكِ... لابدّ أن تحكي وإلا تبخّرتِ الحكاية!

- هذا ابتزاز!

- احكِ وإلا امتنعتُ بدوري.

- هذا استدراج...

- احكِ...

- اسمعْ إذاً ؛ وليكن صَحْوُك في عَوْنِك!

- نعم...

- هناك رائحة هي أوّل ما يصدمك في أيّ مكان جديد. تلك الرّائحة هي التي سوف تشكّل

فيك،لاحقاً، ماضي ذلك المكان. وهي الرّائحة التي سوف تبحث عنها إذا عدتَ إليه؛ لكنّك لن تجدها!هي الذكرى الأهمّ في مديح المدن؛ ثم تأتي التفاصيل...

- أنت تتحدّث عن الماضي، عن الأمكنة التي يغادرها المرء؛ ماذا عن الأمكنة التي يعود إليها؟

- لعلّ تغيير المكان هو أفضل وسيلة لإدراك الزمن في قسوة تجزيئه، وبالتالي في قصَره الذي يعني أيضاً قصَر العمر، عندما يُنظر إليه موزّعاً قطَعاً في أمكنة. لكنّ تغيير المكان لَايعني مجرّد الارتحال عنهَ، من أجل عودة أخرى إليه، بل مغاَدرته نهائياً حتى تتمكّن من النّظر إلى الوراء، فتدرك أنّ قسماً منك ولّى، وجزءاً من حياتك مضى.من هذا المنطلق تنزع الروح باحثةً عن اندمالها من مكان سابق، إلى اعتبار ذلك المكان وما فيه، وكلّ من فيه، جزءاً من الماضي. وهو، من زاوية أخرى، فعْل الزّمن في الرّوح. فتستريح، وربمّا تصارع بحثا عن مثل تلك الرّاحة. وتؤكّد،في الأثناء، أَن كلَّ الوجوه التي مرّت (هي التي مرّت، وليست الذات!) كانت جزءاً من الماضي، من التّاريخ الشخصي. أمازلت تسمعني ؟

- طبعاً!

- كان هناك أصدقاء، وكان هناك أعداء ، وكان ثمّة من هم بين بين، وهؤلاء، كحال كلّ ما هو بين بين، سرعان ما يُقصيهم البينْ. لكنّ حسابات الرّوح، والروح لا تحسب بل تخال، تراهن دائما على الزّمن؛ فعْل الزّمن فيها. فكلّ مكان تغادره، يجعلك المكان الذي يليه، تعود إليه. ونادراً ما يستطيع المكان اَلجديد استيعابك كلّياً، ودفعةً. ولا سيما إذا لم يكن مكاناً جديداً تماماً، إذا كان قديماً أو معهوداً، إذا كان يشكّل مآباً أو مآلاً؛ وكثيراً ما نخشى سوء المآب وخيبة المآل. لابدّ أن تكون هناك صدمة متأتّية من حقائق ملموسة، تعود في الدّرجة الأولى، إلى الانتماء. فالذي لا ينتمي هو الوحيد الذي يستطيع الاستهانة بالامتلاك. وهذه ليست شجاعة منه بل هي ردٌّ على قهر. بعيداً عن المكان الأصلي، عن المآب، عن المآل، أو ما يمكن أن ندعوه تجاوزاً بـ"الأوطان" لاتغدو هناك أهمّية دراماتيكية للامتلاك الأبدي. ولنسمِّه امتلاك الاستقرار ("الفقر في الوطن غربة، والغنى في الغربة وطن" يقول علي بن أبي طالب، كرّم الله وجهه) ومادامتْ هناك عودة إلى مكان آخر، فمعنى ذلك أنّ هناك مستقبلاً في مكان آخر. غير أن أبشع أنواع المستقبل هو ذلك الذي يفاجئك فيه الماضي مقرفصاً (وأذكر أنني عندما حزمت حقائبي وعائلتي وخوفي، قلت لهم: "تعالوا بنا إلى المستقبل الذي طالما انتظرناه - العودة - تعالوا بنا إلى...النكهة!" فوجدت المستقبل وراء الأمس؛ وعندي براهين لن أذكرها الآن تحديداً. عندئذ أدركت أن العمر بدأ يمرّ كما لم يمرّ سابقاً في أراضٍ أخرى.كأنما الانتماء مباراة في الامتلاك. فكيف تعود إلى "إيثاكا" وليس لك فيها بيت، أنت الذي انتظرتَ المستقبل ولم تؤثث له إلا بالتجربة ؟

- إيثاكا ؟

- لذلك جازف رجال الجمارك، من غير المحترفين، بتمليكي أرض جاري وبيت أخي. وأكثر من ذلك، حدث خلاف في رصد الثروة التي عُنْتُ بها من مرافئ فينيقيّة، وسفن عاثرة بحمولاتها من العنبر والمرجان والخيبة.ذلك بعض ما يحدث إذا كان المكان قديماً، وكنتَ العائد إليه؛ إلى رأسك الذي سقط فيه! أما إذا كان جديداً فإن أعمال الاستكشاف تعوّض خيبة الامتلاك، حتى وإنْ كان كلّ ما تكتشفه هو تلك الرّائحة التي تسكنك كلّما حلَلْتَ، لأول مرّة، في بلد جديد. هي رائحة، ربما تُدرك بالحواس كلها. وعبثا تحاول استرجاعها بالأنف وحده، لاحقاً؛ رائحة تذكّرك، فيما بعد، بقطعة من العمر سلخْتَها ، أو سلخها المكان، هناك. فتحكّها كما حكّ الجنديّ يده التي فقدها في الحرب.والمكان الأوّل، المتعالي في القِدَم، قد يكون الدّافع الأول للهجرات، مع تنوّع في

الأسباب. والأسوأ؛ أن يظلّ دافعاً للهجرات. عندئذ ما من حاجة إلى التّباكي على الأرض. فالتفكيك يغدو سيّداً. ولابدّ، والحال هذه، من اتّباع مبدأ تفكيك المطلق الذي أحدق بنا مذ كنّا صغاراً. لقد كبرنا الآن، وعدنا إلى الخارطة الأولى، ببهارات مريبة، وبواقيت أغلبها تركيبيّ، ناسين أو متناسين القيمة المطلقة للذّهب. فلُذْنا، نمنّي الروح، ببضائع أخرى مثل الصَّدَف والمرجان، والعنبر والآبنوس.المكان الأوّل يمثّل رغبة ملحّة في تمثّل هذين البيتين، لقائل مجهول ، وقد وردَا في قصة علي الزّيبق - انظر في ألف ليلة وليلة "حكاية أحمد الدّنف وحسن شومان مع الدّليلة المحتالة وبنتها زينب النصابة " والبيتان هما :

إقاماتُ الغريبِ بكلّ أرضٍ
كبنْيَانِ القصورِ على الرّياحِ
يهبّ الرّيحُ تنهدمُ المباني
لقد عَزَمَ الغريبُ على الرَّواحِ

ولم يكن الرّواح عزماً فقط؛ كان أحقاداً أيضاً، وحروباً. وأذكر أنَّ أشدَّ الأذى كان متأتّيا من أولئك الذين حصّنوا إقاماتهم في الأماكن الجديدة. إذْ في إمكانك، كمستكشف رائد، أن تسبقنا إلى بحيرة صيد، وتقول لنا: "هذا مائي!" ، أو تقف على سفح مشرف على أراضٍ واطئة، فترفع يدك اليمنى،أو اليسرى إذا كنتَ أعسر، في حركة دائريّة ترسم الأفق، وتقول: "هذه مواقعي!" مخلّداً بذلك غريزة الذئب الذي يبول على امتداد أراضيه، محدّداً تُخومَها.

- لكن...

- لا تقاطعني الآن ، بدأتُ أصل إليك!

- إليَّ ؟

- قد تكون تلك المواقع مادّية وملموسة، لكنّها يمكن أن تكون رمزيّة أيضاً. عندئذ تصيح كما صاح جَوْدَر ابن التاجر: " أمّا المغربيّ فليذهب إلى الماء!" وملخّص ذلك في الحكايات نفسها؛ أن جودر أراد أن يطرح الشّبكة في بحيرة قارون. فلم يشعر إلاّ وقد اقبل عليه رجلٌ مغربيٌ راكبٌ على بغلة وهو لابسٌ حلّة عظيمة. وعلى ظهر البغلة خُرج مزركش. وكل ما على البغلة مزركش... وبعد التّعارف والسّلام، أخرج المغربيُّ قيطاناً من حرير، وقال: كتّفْني وشدّ كتافي شدّاً قويّاً. وارْمني في البِرْكة واصبرْ عليَّ قليلاً، فإنْ رأيتَني أخرجتُ يديّ...

وجاء مغربي ثان، هو شقيق الأول، فكتّفه جابر ...

- تقصد جودر...

- ودفعه فوق البركة فغطس. فانتظره ساعة. فطلعتْ، دون يديه كما هو متّفق، رجلاه. فقال: "مات في داهية إن شاء الله تعالى كل يوم يجيئني المغاربة وأنا أكتّفهم ويموتون ويكفيني من كلّ ميت مائة دينار". وفي اليوم الثالث، جئتُ، أنا المغربي الثالث، شقيقهما الأصغر. فأخرجت يديَّ، لا رجليَّ. وكنتُ قابضاً بيديَّ على سمكتين لونهما في حمرة المرجان... وهما السمكتان اللّتان سوف أفتح بهما الأرصاد حول كنز فاس ومكناس العجيب ...

- كأنك تتحدّث عنّي!

- عدتُ بسمكتين. أما الأعداء الصّغار فأحسبهم الآن ملح حكاياتي.

- هل كنتَ القزم المغربي الثالث أيضا؟

- شماتة في الشامتين وأعدائي الصّغار، بحجم خنجر، عدت كأبطال الحكايات فعلاً.

- يبدو هذا صحيحاً ؛ وماذا تقصد بالسَّمَكَتينْ ؟

- احترت في استثمار رؤوس الأموال التي غَنمْتُها من السّواحل الفينيقيّة والإغريقيّة. لم أشترِ الطّابق الذي أسكن فيه، ولا الطّابق الذي بناهَ أخي فوق أبي. قلت في نفسي: "الطّابق الأرضَي على الأرض، يرمز إلى محاولة الانتماء" كما قال أحدهم، وأظنّه باشلار.

- مَنْ ؟

- ابتعدتُ عن المدينة، واشتريتُ قطعةَ أرضٍ واسعة وقريبة من البحر، حتى أرتاح من دفع الأجرة في الطّابق الأخير، فهو معلّق بين الأرضِ والسماء، ولا يوحي بالانتماء. وضعْنا خطّة للأرض: هنا البيت، هنا الحديقة، الأراجيح الصيفيّة، المسبح، النّافورة، بيت الكلب... ثم وسّعنا المكان بأحلام أخرى أسرعتْ إلينا. لكنّنا نسينا أنّ أيّة عودة تتضمّن تغييراً في الذات كما في الآخرين. وقد يكتسب العائد، وهذا ليس مَدْحاً، بعضَ أخلاق الأجانب الذين درجنا على تسميتهم بالكفّار، إذا كانوا من الغرب. وعندما نقتنع ببعض صنيعهم، أو حسن أخلاقهم، وإنْ جزئيّاً ، نقول عنهم إنهم سرقوا أخلاقنا وتعاليم ديننا، كما سرقوا، ويسرقون ثرواتنا .

لذا وقعتُ في أكثر من مأزق. وبدأتُ أفقد بوصلة الاتجاه. ومع مرور الزّمن، لم تعد كلّ الأخطاء تأتي من الآخرين. لكنني لم أصل إلى الحدّ الذي أطالب فيه بأن تغيّر الحافلة خطَّ سيرها لأنّ الوقت تأخّر وأنا على موعد عاجل، كما فعل ذلك شاويش الجبس القادم لتوّه من مغتربه، ليجد...

- هو الذي حكى لك ذلك؟

- ليجد بينيلوب لم تعد تنسج ، بل هربت بالصّوف.

- من التي هربتْ بالصّوف ؟

- ذلك أن زوجته...

- آ...زوجته!

-... تواطأت عاطفيّاً مع رجل قانون، دلّها على ثغرات ، فنَفَذا منها إلى ثروة عمره. فعاد الزّوج، منذ أن وطئت قدماه غبار الأرض في مطار الوطن، إلى السجن، لأنّه اغترب طويلا ولم يرسل بالنفقة إلى زوجته.

- هذا ما حصل ...

- تلك... تلك حكاية أخرى. أما أخطائي فأبرزها الانفعال من قسوة الاستقبال، حتّى صار ابني يترجّاني أن أرمي بكلّ المشاكل عرض الحائط كما فعل "بيتر بان" الكبير. فأرمي به عرض الباب والكراسي.

- تذكَّرْ نصائح شاويش الجبس!

- والانفعال جعلني أكتشف أن مواطني، المشهور بأكل الهريسة الحارة، ليس غضوباً وانفعالياً دائما، ولا سيما إذا كان قد "فعل فعلته"، بل هو قادر على اصطياد الحجلة بسَبيبَةٍ من ذيل حصان، كما يقول، أو كان يقول، جدّي الأول في هذه البلاد. وبلغة العصر، فهو قادرٌ على التصرّف وفق المبدأ الاقتصادي الدّولي، القائل بأنّ الدّيون متى ما بلغتْ سقفاً معيّناً، صار

المستدين هو المتحكّم في رقبة الدّائن.

- سألتُك عن السمكتينْ!

- لم أحدّثك بعد عن خسارتي الأكبر...

- أيضاً ؟

- إلى الآن، لا أعلم إلى أين أخذوهما منّي. دخلت البلاد ممسكاً بسمكتيَّ المرجانيّتين. لم أخشَ ورطة. ولم أخش امرأة تُوقِع بي في شراك النّفقة. كنت أمسك بالسمكتين بين يديَّ. أنظر إلى السمكتين المرجانيتين فأشعر بالكوكب يسير تحتي. وأقول: يا سمكتيَّ! فيشرق الكوكب الأرضي. وأقول: يا سمكتيَّ! فيبرق الكوكب. لكنْ، ليت ذلك الحادث لم يحصل...

- أيّ حادث ؟ أي حادث ؟

- لا تقاطعني أرجوك!

- لكنك لا تربط شيئاً بشيء؟

- يكفي أن يأتي الخيط!

- آ...أنا!

- كانت السّيارة أمامي. تسير ببطء. وخلفها شاحنة زرقاء كبيرة، ذات صندوق خشبيّ فارغ. فجأة، في لحظة، أسرعتْ. دفعت بالسّيارة أمامها، في الخندق العميق؛ الخندق المغمور بماء آسن تحت الجسر. هناك سقطت (عربة خيول كانت تمتطيها) سبع صبايا كالأقمار. رأيتُ السّيارة تهوي، والشّاحنة صعداً تهرب عن قصد. أأشهد أم أهرب ؟ أأتابع طريقي إلى السوق أم أعود إلى البيت؟ هل أذهب وأشهد؟ سوف يستعبدونني، ذهاباً، وإياباً، واستجواباً، ولا تتقدّم الحكاية. لكن، أأنا هنا، أم هناك ؟

- إذاً ، أنت تحلم!

- قلت: أذهبُ. الجريمة خلفي. الجريمة طيّ أضلعي. ذهبتُ. وقفت عند الباب. أمسك بي مبتسماً، إلى اليوم وهو يمسك بي. أخذني إلى أبواب وسلالم. أخذني إلى حجرات ودهاليز. أخذني إلى انتظارات وشموس. أريد أن أعرف ؛ أين الكوكبان النّيران اللّذان كانا بين يديّ؟

- تقصد السمكتين...

- مازال يسألني غامزاً ، وبتواطؤ مدروس "مَن الذي موّل العمليّة كلّها؟" قلت: " ها هو ذا بدأ يلمّح إلى ارتباطاتي ويسأل عنها." قلت: "أنقذوهم أوّلاً، من تحت الماء، وسوف نجد وقتاً للحديث فيما بعد." قلت : " أين كوكبي الوحيد ، والماء الآسن يلتهم الغرقى؟"

- وأين الكوكب الثاني ؟

- ما أقسى وطنك حينَ تأتيه من تحت. لكنه كان يضحك كما تضحك أنت الآن.

- لستُ أضحك ...

- لن نتركك حتى تعترف. الركّاب يغرقون. ربمّا لم يكونوا نساء فقط. بدأ يتخلّى عنّي في الأروقة، ويهمس لرجال غامضين. يمكن أن يلوحوا موظفين محترمين في الزّحام... لكنهم الآن، هنا، يتميّزون بتزاوجهم مع الأروقة، مع الصّمت، مع خوفي الدّائم من قسوة بلادي كلّما جئتها من تحت... والماء بغرقاه، والأروقة، الأروقة، الأروقة... أين كوكبي؟

- صارت السمكتان كوكبين ولم يبق منهما سوى كوكب واحد...

- لا تسألني مثله! إلى الآن لم تعرف خسارتي الأكبر.

- هكذا ؟

- الأرض التي اشتريتها، تبينّ أنها أرض منزلقة. نعم. تنزلق كلّ ثانية، وكلّ يوم. تزداد انخفاضاً مع الزمن ليأكلها البحر بعد بضع سنوات؛ لذلك ما إن حفرنا الشِّبر الأوّل حتى تدفّقت المياه المالحة. وهي الآن برَكٌ ومستنقعات وبعوض ونازحون غريبو الأطوار يجمع بينهم التخلّف والهيمنة به،عليه. تأتي قوّة بعضهم من مواهبهم المكتسبة كقوّادين ومرافقين ومفرغي حانات وكباريهات. تجاوزاتُهم: اغتصاب وجريمة، سرقة مواشٍ وسيارات وبيوت؛ استكاناتهم: عواصف معلّبة بين جدران الإصلاحيات والسجون. والحقيقة، قال ابني، إن انزلاق الأرض متأتٍ من محاولات عالم آخر، بدأ بالدّفاع عن نفسه، وبناء مداميك جديدة للأرض التي امتلكناها. وقد فشل مهندسو التحتيّين في اختيار مواضعها. فثقبوا الأرض تحت أقدامنا. وهكذا كشفونا وتعرّوا لنا: بابا! بابا! لماذا لا ترمي بكلّ شيء عرض الحائط لتلعب مثل بيتر بان الكبير؟

- فعلاً! لماذا لا ترمي...

- لم أرْمِ بشيء عرض الحائط باستثناء صحن أو كأسين... لكنني أحاول معك هذا الكتاب حتّى وإنْ دفع الذين حولي فاتورة الحساب. فهل هناك، بمنطق حضاري، مَنْ يتقدّم، من دون أن يدعس؟ وهل هناك تطوّر للفكرة من دون ضحايا في الطّريق؟ وها إنّ الآباء يتسرّبون مختبئين في أطفالهم؛ يعلّمونهم، لأنهم لم يتعلّموا في السابق، أو تعلّموا، ويعنّفونهم لأنهم فشلوا اليوم في ما فشل فيه آباؤهم بالأمس. كما فعل ذلك الأب الشاب الذي أضاع ابنه مُوَقَّتاً على شاطئ. فلما وجده، حَمَدَ الله، رافعاً ابنه إلى الأعلى...وخبطه خبطاً على الرمل المبلول، فسوّاه به. ولمّا نهره الناس عن العنف والرّمل والبلل المتطاير من أعضاء ابنه، أجابهم : " هاه! هه! هاه!" بأصوات من أصوات ما قبل اللغة. وعندما قال ذلك الأب الشاب، بعضلاته المفتولة، "هاه! هه! هاه!" ثلاثاً، كان ابنه قد ارتطم بالأرض الرّملية ثلاثاً؛ لا أحد سأل عن كسور محتملة. اعتقدنا أن ذلك الطّفل معتاد، كالقطّ، على السّقوط من الميازيب. لكننا عدنا أقلّ اعتداداً بأنفسنا،وبعاطفة الأبوّة فينا. وصدّقنا أننا قابلون للعطب، وقابلون للموت، حتّى في أبنائنا.

- هل تشعر بالرّاحة بعد هذا الكلام ؟

- (...)

- هل جعلَتْك اللّغة وكيلاً للكتابة وجعلتْني وكيلاً للسّماع؟

- (...)

- والآن...هيّا...

- إلى أين ؟

- إليَّ !

- لماذا ؟

- لكي تبدأ بوضعي في إطاري كما وضعتُك في إطارك!

- وكلّ ما حكيت سابقاً، ألم يكنْ إطاراً لك؟

- بل...لك أنت! ولذلك أُصِرُّ: لستُ مواطناً، ولا اسم لي. لقد عرفْنا مَنْ أنتَ،ولن تُلبسني ما

كنتَ!

-اسمعْ يا جابر! هذا تخييل...تخييل.

توريط المؤلِّف

فرك جابر عينيه وقال :

- أرى أنك كلّما تحدّثت عن نفسك أغرقت في الرّمز، مع أنك لا تكفّ عن الغمز باتجاهي، ولَمْ تخبرني بحكاية واضحة: أين كنت؟ ماذا فعلت ؟

- وهل هذا تحقيق ؟

- أسألك عن أخبارك فترميني بالتّحقيق ؟ لماذا تخشى حكايتك ؟

- هذا لا يجوز...

- وما هذا الذي لا يجوز عندك ؟

- لا يجوز لأيّ مؤلّف روايات أن يتحدّث صراحة عن حياته، ينبغي أن يموّهها على الأقل.

- أأَنت تؤلّف الآن ؟

- أنا الآن في طور التّحمية ...

- لكنّني أسمعك وحدي .

- لم تعد وحدك الآن .

- كيف ؟

- لأنّك تطلب حكاية واضحة .

- لابدّ لي من حكاية واضحة.

- لماذا ؟

- لأنني سأعطيك بدوري حكاية غامضة، وأخرى واضحة .

- هذا لم يعد ابتزازاً، ولا استدراجاً... صار توريطاً!

- ألم تورّطني بدورك ؟

- في الحكاية الغامضة، أم في الحكاية الواضحة ؟

- في الحكاية الثانية، الحكاية الواضحة .

- وهل تنتقم الآن ؟

- أنا ؟ كلا .

- إذاً ؟

- أريد فقط أن أُمَوْضِعِ الحكاية .

- مرّة أخرى ؟

- نعم أريد أن أُجلسها، هل أجلسها في فراغ ؟

- إذاً، خذْ! اِقرأْ هذه الأوراق...

بَيَات شتوي

هذه ابنتي دانية تحبو، مثل حكايتي التي لا تتقدّم إلا متعثّرة في الأرض، وتنتظر مَنْ يرفعها حاضناً حركاتها. لن أتفرّغ لكتابة الحكاية. مازالت هناك ألف وثيقة ينبغي استخراجها لِنَتَمَوْضع في هذه البلاد.

ثرتُ مدافعاً عن شخوص الرواية: إنهم أشباح يهربون فزعين من سكّان البيت.

قالت زوجتي :

- نحن شخوص الرواية!

قلت :

- ليتكم ثلاث سلاحف في حالة بيات شتوي موقّت!

لكنني أغلقت القمقم الذي تنبثق منه أشباح الحكاية وانتبهت قليلاً إلى سكان البيت. ولكي أتخلّص من عراقيلهم ومطالبهم اليوميّة، فتحت باب مكتبي ونادیتهم واحداً واحداً :

- ماري! أُنْسي! دانية! أنتم شخوص الحكاية!

وبدأتُ :

" اليوم 13 سبتمبر 1993:

خرجتْ دانية من غرفة أنسي تحبو على ثلاث وفي يدها بطاقة. ولما اقتربتْ منّي أدركتُ أنَّ على ظَهْر البطاقة روزنامة العام 1992، وعلى وجهها ؛ صورة ياسر عرفات .

- اَءَءْ ... اَءَءْ ...

تَرْفَع المصوّرة ثم تعود لترتكز عليها ثم تتقدّم خطوة أخرى نحوي، أي نحو 1993 (هي وُلدتْ يوم 29 ديسمبر 1992)

- اَءَءْ ... اَءَءْ ...

- أنتم شخوص الحكاية .

- وأنتَ عمّي جابر! قال أنسي مازحاً.

تلفزات العالم تنقل الحدث نفسه "أريحا غزة أولاً "

- إذاً، لن أعود إلى طبريّة! قالت ماري .

ثم تذكّرت بطاقات الأونروا (وكالة الأمم المتحدة لإغاثة وتشغيل اللاجئين) التي وزّعها أبو خليل على أبنائه وبناته، قبل وفاته. فركضتْ تبحث عنها في الأدراج. ثم تذكّرت أمّها التي توفيت في الذكرى السنوية الأولى لمقتل ابنها كميل، بعد أن صدمته سيّارة عسكريةعلى طريق اللاذقية-دمشق. ما إن اقتربتْ تلك الذّكرى حتى ودّعت الجميع بمن فيهم نحن(وكنا في جزيرة قبرص، قبل أن تقذف حرب الخليج بالجميع إلى سواحل المتوسّط، وأوروبا وأمريكا...) فإليك الحكاية.

أمّ خليل الطّبرانيّة في 9 أُوذُوسْ ريغَاس فِرِيُوسْ

كانت تردّد: "ستأتي أيام لا يترك فيها حجر على حجر لا ينقض... فإذا سمعتم بحروب وقلائل فلا تجزعوا، لأنــه لابدّ أن يكون هذا أوّلاً. ولكــنْ لا يكون المنتهــى ســريعاً... وتكون زلازل عظيمة في أماكن، ومجاعات وأوبئة ..."

تقول: "اِحذر الكاذب والسارق والحسود."

وتزرع الثّوم في مربّع ترابيّ صغير في آيوس ذوميتيوس، يحيط به إسمنت الحديقة من كلّ الجهات.

تنحنـي بحركـة بطيئة، ثقيلة، مضنيـة. هـي كلّ مـا تسـمح بـه حركـة سـاقها المؤلمـة، فيتحوّل المربّع الترابيّ الصّغير إلى فلسطين مربّعة في الذاكرة:

- هنـا سـمخ، هنـا طبريّـة، هنـا عيلبون: هنـا أوقفوا خالك زكـي الذي يشبـه أخـاك كميـل... بعينـيَّ هاتين! هنـا أوقفوهـم... صـفّا واحداً... بعينـيَّ هاتين... وأطلقوا عليهـم الرّصـاص، أمام أمّهاتهم.

عندئذ تندغم الذّكرى.

تقفز إلى مجال الرّؤية المشوَّشة، لغصّة في القلب، جثّة كميل الممزّقة في الطّريق الرابطة بين الشّام واللاّذقيّة... مازالت السّيارة العسكريّة المجنونة تمعن كلَّ ليلة، بل كلّ دقيقة، في الطّريق القاتلة؛ الطّريق التي تشقّ ضجيج الكبد... في الذاكرة.

هنا طبريّة،

وكان شاب وسيم مستعدّاً للقفز في الماء من أعلى صخرة في البحيرة، لكي يصير أباك. ثم من طبريّة، إلى الحمَّة السّوريّة في الجولان، إلى الدّامور في لبنان، إلى بيروت، إلى حيّ الأكراد فـــي دمشـــق الشاَم (قال الكـــرديُّ مخاطباً رأس حماره: "حـــا!رأســـك أيبـــس مـــن رأس اللاّجـــئ").الكـرديّ هــو الذي قال ذلك!وهناك وَجَدَتْ خمـس ليرات؛ نصـفها إلى معلّم الدّروس الخصوصية: العِلْمُ أوّلاً ! ونصفها... للأكل.

استدار العِلْم تفّاحاً وأعناباً (وأشياء أخرى) في مطابخ أبنائها، فأَقْدَمتْ على محو أمّيتها وقد تجاوزت الخمسـين: فاء، فتحـة. لام، فتحـة. سـين، سـكون. طاء، كسـرة. ياء، سـكون. نون... فلسطين .

مربّع ترابيّ صغير في آيوس ذوميتيوس:

- هلْ نمَا الثّوم ؟

- وُلِدَ ميتاً، انتهى موسمه.

وأمام واجهـــة "9 أوذوس ريغاس فيريوس" أَلْــفُ زهرة لمارُولاّ، وشجرة ليمون، وجوّافـــة. تسبّح أمّ خليل إلى ربّ هذا اللّيمون الذي ليس فلسطينيّاً. ثم تتسّلّل بعُودَيْن :

- هل نمَتْ الدّالية ؟

- اقتلعتها العجوز، والدة مارولاّ.

وَسَخُ العنب... ذباب العنب... ورق العنب... ينبغي أن تكوني في عيلبون أو طبريّة، خلال

الخريف القادم حتّى تكنسي أوراق الدّالية.

تهرب أم خليل إلى الخبّيزة : الخبيزة ملك الله .

وتقترب الذّكرى .

تقاوم أمّ خليل الذكرى: "ارحمني ياربّ لأنّي في ضيق. خسفتْ من الغمّ عيني. نَفَسي ربطني. لأن حياتي قد فنيت بالحزن، وأعوامي بالتنهّد "

تقترب الذكرى: وتقرّر ألا تعيشها: "يا أنتَ، يا صخرتي، لا تتصامم من جهتي لئلا تسكت عنّي فأُشبه الهابطين. "

تقترب الذكرى: زكي الذي يشبه كميل الذي يشبه: "مبارك الربّ لأنّه سمع صوت تضرّعي."

من فلسطين، إلى الشام، إلى أبو ظبي، إلى آيوس ذوميتيوس الذي باركتْه نيقوسيا: "إنْ أخطأ إليك أخوك فاذهبْ إليه وعاتبْه بينك وبينه وحدكما. إنْ سمعَ منك فقد ربحتَ أخاك. وإن لم يسمع، فخُذْ معك أيضاً واحداً أو اثنين لكي تقوم كلّ كلمة على فم شاهدين أو ثلاثة. وإن لم يسمع..."

إنْ لم يسمع أو أجّل السمع... انتظروا موتاً يقرّب، ولا تنتظروا ولادة. لأنه حيثما اجتمع اثنان أو ثلاثة باسمي، فهناك أكون في وسطهم. وعندما اقترب إليَّ الأشرار ليأكلوا لحمي، مُضَايِقيَّ وأعدائي عثروا وسقطوا. إنْ نزل عليَّ جيش لا يخاف قلبي. وأنا قلت في طمأنينتي: "لا أتزعزع إلى الأبد "

أعظّمك يا رب لأنّك نَشَلْتَني ولم تشمت بي أعدائي..."

***

بعدها وزّع أبو خليل بطاقات وكالة الغوث على أبنائه وبناته، وترك هذه الوصيّة: أنْ يعيدوه وزوجته إلى فلسطين... متى... عادوا.

وكانت الحكمة من إصراره على اقتناء تابوتينْ معدنيَّينْ، من "الستانلس ستيل" غير القابل للتّأَكْسُد ، وبسعر باهظ: أنهما يضمنان نقلَهُما، بعد أعوام وأعوام، إلى طبريّة... مَنْ يدري ؟

ولم تمرّ أسابيع ثلاثة على غياب أمّ خليل حتّى أحسّتْ برطوبة الخريف تتسرّب إلى جسد، كان جسدها، فنادت أبا خليل:

- قد كنتَ عوني فلا تتركني. ما الفائدة من دمي وأنا في الحفرة ؟

عندئذ لم يتوصّل أبو خليل إلى القفز من أعلى صخرة مشرفة على بحيرة طبرية قائلا لوجهها متمرئياً في الماء: "أنا فارسك الوحيد!" ، بل تنهّد شهراً، أو قرابة شهر لم يكمل أسبوعه الرابع:

- قد انقطعتُ من قدّام عينيك لكنك سمعت صوت تضرّعي إذ صرخت إليك.

كانت الآلام تعصف به وهو يجهّز مقبرة للعائلة، قبل عام، ويتحدث عنها كما لو كان يتحدث عن بيت جديد. لكنه يتحدّث عن الحياة أيضا، ببروقها وأنوائها، بشموسها ورياحها. فيترحّل حاملاً حُقَنَهُ وإبَرَهُ وعقاقيرَه، باحثا عن أنفاس جديدة في الحياة، فيجدها مضغوطة في اسطوانات الأوكسجين.

- بابا راح أموت!

مَنْ يصدّق الذي بشماله الألم وبيمينه الحياة ؟ الذي انبثق من ماء طبريّة رمحاً ساخناً من يد فارسه القتيل ؟ الذي "رأى سماء جديدة وأرضاً جديدة لأن السّماء الأولى، والأرض الأولى، مضَتَا، والبحر لا يوجد" الذي ركض كما أمَرَته شرايين دمه؟

من يصدّق الذي شقّ السّيول بشاحناته وتوغّل في دروب صحراويّة لم يجد في محطّاتها مَنْ يهرّبه داخل صهريج؟ الذي أقسم أنه وجد غجريّة في طريقه وأوصلها سليمة معافاة ؟ الذي وجد برميل قروش مخبأً أو منزلقاً عبر الدروب الوعرة؟ الذي يقول: "مرّة يا..." فتنفرط حبّات العنب من عناقيد الحكايات ...

كان السّمك في طبريّة... كان البيك الانجليزي في طبريّة...

لكنه لا يقفز من أعلى صخرة في طبريّة ليسقط الآن في أعمق حفرة في الشام، إلاّ وهو يقتنص اليوم ذاته من أمّ خليل؛ أربعاء الرماد. مرّة يا:

- سأموت!

لن يموت الذي تغدّى بسمك طبريّة وتعشّى بسمك ليماسول، حتى انسدّت أنفاسه في الواحدة ليلاً. لكنّ الحياة المضغوطة في اسطوانات الأوكسجين أعادت عينيه من طبريّة، ومِنْ مَقْتَلَة عيلبون، لتحدّقا في حُجرة الإنعاش المقابلة :

- هذا... يابا ... فارط من زمان!

وخرجت زوجة ذلك "الفارط من زمان" تصيح في الشّوارع الخلفيّة لحديقة نيقوسيا: " أُو أَنْدراسْ مُو...ذَانْ إيخُو أَلُو!" (زوجي... ليس لديَّ غيره!) ومن قال لها إنّ لها غيره؟ "ذَانْ ثيلّو أَلّو!) (لا أريد غيره!) ومن قال لها إنها تريد غيره ؟

- يابا عرفتُه... كانْ فارطْ م الأوّل!

مرّة يا...

أوقفوهم صفّاً واحداً في عيلبون.

مرّة يا...

كانت أكبر سمكة في حياتي...

ثم نفث أبو خليل حكاياته حتّى آخر ذريْرة أوكسجين، قافزاً من تلك الصّخرة إلى حفرّةٍ أعدّها بنفسه، وتنام فيها أمّ خليل .

***

- والآن ؟ هاتِ حكايتك يا جابر !

-أَكْمِلْ !

وما هي طبريّة هذه ؟

أو

نهاية البَيَات الشّتويّ

وجدتْ ماري بطاقة وكالة الغوث. وكانت تحتفظ بها مع إنجيل أمّها (التي كانت تعلّم على صفحاته الأثيرة لديها، بوضع مناديل ورقيّة مطويّة بينها) وحافظة نقودها ومنديلها و... فضلة من قماش الفستان الذي دُفنت فيه. وفي أوّل فرصة، عبر الدروب الجديدة السّالكة، أرسلت بقطعة القماش المتبقيّة من فستان أمّها (منفّذة وصيّتها) حتّى ينام شيء منها بين أهلها وذويها في عيلبون التي قرب طبريّة. وفعلاً دُفنتْ قطعة من القماش هناك بعد أن دُفن القماش كلّه في دمشق.

وأُنهي حكايات البَيات الشتوي كما يلي :

قال الثعلب عندما عجز عن التهام عنب طبريّة :

- وما هي طبريّة هذه ؟ ألم يصفْها المقدسي في القرن الرّابع الهجري، بأنّها: "ضيّقة، كَرِبة في الصّيف مؤذية ، بها ثماني حمّامات بلا وقود، ويقال إنّ أهل طبريّة شهريْن يرقصون، وشهرين يقمقمون، وشهرين يثاقفون، وشهرين عراة، وشهرين يزمّرون، وشهرين يرقصون من كثرة البراغيث" ؟

... وأخيراً "ورثنا" من الأمم المتّحدة مبلغا تعويضياً.

اشترينا أرضاً مالحة. وبَنيْنا فوقها دارنا المنزلقة. سمّينا غرفة النوم عيلبون، والمطبخ حيفا، والحمّام طبريّة، والسّطح صحراء النّقب.

وارتحنا في انتظار الأجيال القادمة.

ولم تأت تلك الأجيال بعد، عندما تزعزت الأرض تحتنا، وخسف بيتنا... ولم يبق بين يديّ إلاّ هذه السّاعة التي أهديتني إياها، بعد أن اختَطَفْتَها من طفل السّاعة... الطّفل الذي رماك بحجر، فأصاب منك عظمة لوح الكتف، بينما أنت تتساءل : " كيف استطاع أن يوصل الحجر، من تلك المسافة ؟ "

وها أنذا أعود إليك ، يا جابر، اِحكِ حكايتك!

في البدء

ظلّ جابر يروي حكاية من هنا، وأنا أروي حكاية من هناك، فتتوالد الحكايات، ولا تأتي الحكاية الأصلية، بينما هو يلومني ويحثّني "ينبغي أن أكمل، بل ينبغي أن أبدأ. بتّ لا أطيق الانتظار أكثر. لو أنّ شهرزاد توقّفتْ ، ليلة واحدة، لطار رأسها!"

غاب بضعة أسابيع فانشغلتُ بعمل آخر. وعندما عاد لزيارتي، استقبلتُه لائماً، قبل أن يبدأني باللّوم. ولم تكن الحقيقة كذلك؛ قلت له متراجعاً :

- على أيّة حال... هل تعلم ماذا كانت نتيجة إغرائك لي بالحديث عن مشاغلي اليوميّة ؟

- تطهّرتَ من الضّغوط وتفرّغت للكتابة، أليس كذلك ؟

- بل تفرّغت إلى حكاية أخرى، مستقلّة عنك وعن حكايتك. والآن تستطيع أن تبدأ... ولن أقاطعك .

- هل لي أن أعرف ماذا كتبت ؟

- قلت لك فَصلْتُ حكايتي عن حكايتك. صارت لي حكاية جديدة عن كلّ شيء واقعي، أو ندّعي أنه كذلك، معادل للخيال الذي نعيشه في بلداننا!

- آه!

- بقي أن تعرف أمراً مهمّاً! لستَ أنت الرّاوي في الحكاية الجديدة؛ إنه راوية أكثر جنونا وحرّية. وهو غير موجود أصلاً. لذلك، ما من معركة وجود بيني وبينه، لأنّه يبحث عن وجود لا يتحقّق، مع حرّية في السّرد والكذب والتّحوير. ومبرّر ذلك أنه يشعر بحنين إلى عالمنا، ولا يعاني من ضغوط العين مثلك، لأنه عين في عين في عين...

- ومَنْ يكون هذا الرّاوي إذاً ؟ كيف يروي وهو لم يتحقّق بعد ؟

- قد يكون أخاك اللاّمرئيّ، أو مريم، أو ربمّا الشّخصية المنسيّة في كلامك، ولستُ أدري لماذا ؟

- مَنْ ؟

- أمّك!

- وهل ستكفّ عن سماعي ؟

- في صوتك أسىً! هل أحسستَ بالفقد ؟

- بل أحسست بالموت...

- لاتخف! الحكاية لا تأتي منك؛ لكنها تأتي من صُلبك!

- وما عنوانها ؟

- "مملكة الأخيضر"

- هذه أيضاً ، أخذتها منّي!

- وسوف آخذ غيرها... لكن المسؤوليّة الآن عند راوية جديد. إنّه عمل فانتازي مجنون.

- وهل يتقبّله العقلاء ؟

- حتّى الآن: لا .

- ماذا تقصد ؟

- النّاشر الأوّل، كان ردّه مراوغاً، فاعتذر عن نشرها "نظراً لاكتمال برنامجنا النّشري في الوقت الحاضر" كما قال .

- والثاني؟ هل كان هناك ناشر ثان؟

- " أصارحك يا عزيزي... أنني وجدتها مغرقة في التجريبيّة الرّمزيّة، وقائمة على "فانتازيا" مبالغ فيها، حتّى حدود المجانية..." واعتذر عن نشرها طبعاً .

- وهل ستتخلّى عنها ؟

- كلا، لابدّ من ناشر ثالث!

- لماذا ؟

- من أجل التوصّل إلى يقين : إمّا أنّ " مملكة الأخيضر " رواية فاشلة...

- أو... أنّها ...

- ... من تلك الأعمال التي يُؤرَّخ لها بالقول " ومع ذلك رفضها الناشرون!"

-- من أين لك كلّ هذا الوثوق بالنفس ؟

- من هذا الثّالوث: اقتناعي بأنّ عَمَلاً جاء من صُلبك، وهزَّ كياني، وقرأه شاويش الجبس سرّاً، لابدّ أن يكون له شأن ما...

- تقصد صدمة ما ؟

- ربمّا ...

- وما الحلّ ؟

- الأطفال ...

- تقصد الأجيال الجديدة ؟

- أقصد ممالك الفانتازيا .

- لماذا ؟

- لأنّ الكبار يتمسّكون عادةً بما يخالونه الواقع، خوفاً من موتهم.

- لست أفهم ...

- ربمّا لأنك مثلهم ؛ تتمسك بما تخاله الواقع ...

- أي موتي ؟

- نعم .

- هذا كلام غامض. ولست أدري كيف عساه يبشّر برواية ناجحة!

- لن تتوصّل إلى إحباطي. وبالمناسبة، ما العنوان الذي ستختاره لحكايتك ؟

- حكايتي حكايتك .

- عُدنا إلى نحنحة البدايات عند جدّتي! أما زلت مصرّاً على عنوان "شمس القراميد" ؟

- لِمَ لا ؟

- والثانية ؟ ما عنوانها ؟

- الثانية ؟

- أقصد اعترافاتك حول ما جرى لك في المدينة .

- هَهْ !

- عنوانها " هَهْ "؟

- تلك أسرار ليست للنشر! هَهْ! ليست للنشر!

- سوف نغيّر الأسماء ونموّه الكثير من العلامات...

- لكنّها أحداث باتت معروفة بأسمائها.

- إذاً، ما المانع ؟ أيّ عنوان ستختار لها ؟

- ليَكُنْ " ليل الصّقر" هذا هو العنوان، إن كان لابدّ من نشرها... قبل ذلك لابدّ أن أقرأها حتّى أتأكد من أمانتك.
- لماذا اخترتَ هذا العنوان ؟
- لأنّ البومة هي ليل الصّقر.
- وهل أحسست بأنك كنتَ كذلك ؟
- ربمّا!
سكتَ جابر برهة ثم حدّق فيَّ قائلاً :
- أيْ مثلك أنت، تماماً.
- لماذا ؟
- لأنني أجد أن حكايتي هي حكايتك .
- أنا أفضّل أن يكون عنوانها "دَانْتيلاَّ "
- لماذا ؟
- لكثرة التخاريم التي تنادي العيون ...
- لكنّها كلمة القزم .
- ومن الذي أتى به ؟
- عُدْنا إلى... المرآة .
- لابدّ أن نعود، بل متى تركناها؟ لنتّفقْ إذاً، أنّ أحداً منّا لم يكن معلّما للآخر ولا متعلّما عنه، بل كان الصّورة الباقية على الرغم من محاولات الإفلات منه؛ هل يُرضيك هذا الحل ّ؟

-موافق!

- سأحضر جهاز التسجيل لتروي كما تشاء ...

- لا أستطيع مخاطبة آلة؛ أنا أتكلّم وأنت تكتب، هذا أفضل!
- طيب، ابْدأ...
- ها أنذا أبدأ: أراك تراني أراك...
- عُدْنا! فمن يصدّق الآن أنك بائع روبافيكيا ؟
- نعم، عدنا، فمن يصدّق الآن أنك بائع روبافيكيا ؟
- اسكتْ الآن... أرجوك!
- نعم، اسكتْ الآن...أرجوك!
- ها أنذا أسكتُ... تستطيع أن تبدأ...
- نعم، ها أنذا أسكت... تستطيع أن تبدأ...
- " في البدء لم تكنْ تُوجد كلمة واحدة، ولا مَنْ يروي للنّاس حكايات؛ ولكيْ يكونَ راوٍ ، ويتكلّم، كان لابدّ أن يناديه أحد. بالْتِماع الماء فيها، نادَتْهُ عينٌ شاردة. أجاب :
- " ها أنذا... "
- فكان صوت (...)

نهاية ثانية

محمد علي اليوسفي

* محمد علي اليوسفي من مواليد مدينة باجة بالجمهورية التونسية 3 مارس 1950
* متزوج وله أنسي ودانية.
* درس المرحلتين الابتدائية والثانوية بتونس ثم سافر إلى الشرق العربي حيث أتم دراسته الجامعية في جامعة دمشق وتخرج في قسم الفلسفة والعلوم الاجتماعية.
* تابع الدراسات العليا في الاختصاص ذاته بالجامعة اللبنانية خلال الحرب الأهلية.
* وفي الأثناء مارس الترجمة والكتابة والصحافة الثقافية في أبرز الصحف والمجلات السورية واللبنانية والفلسطينية.
* عاد إلى تونس ليستقر بها بعد عشرين عاما أمضى ثمانية منها في جزيرة قبرص.

* أعماله المؤلفة:

أ- في الشعر:

* حافة الأرض، دار الكلمة، بيروت 1988.
* امرأة سادسة للحواس، دار الطليعة الجديدة، دمشق 1998.
* ليل الأجداد، وزارة الثقافة السورية، دمشق 1998.

ب - في الرواية:

* توقيت البِنْكَا[جائزة الناقد للرواية] رياض الريس للكتب والنشر، لندن 1992.
* شمس القَراميد،[جائزة كومار:الريشة الذهبية] دار الجنوب، تونس 1997.
* مملكة الأخيْضَر، دار الطليعة الجديدة، دمشق، سوريا 2001.
* بيروت ونهر الخيانات، دار الفارابي، بيروت *2002*

ج - في النقد:

* أبجدية الحجارة، بيسان برس، نيقوسيا، قبرص، 1988 .

* أعماله المترجمة:

أ ـ شعر:

* حرية مشروطة، أوكتافيو باث، الدار العالمية، بيروت 1983.
* مدائح النور، مختارات من الشعر اليوناني، دار الملتقى، ليماسول، قبرص1994.

ب ـ رواية:

* حكاية بحار غريق، غابرييل غارسيا ماركيز، دار ابن رشد، بيروت 1980 .
* خريف البطريرك، غابرييل غارسيا ماركيز، دار الكلمة بيروت1981 .
* البابا الأخضر، ميغيل أنخل استورياس، دار التنوير، بيروت1981 .
* نارایاما، شيتشيرو فوكازاوا، دار التنوير، بيروت 1982 .
* مملكة هذا العالم، أليخو كاربنتييه، دار الحقائق، بيروت 1982 .

* البيت الكبير، ألفارو سيبيدا ساموديو، دار منارات، عمان 1986 .
* ليلة طويلة جدا، كريستين برووبه ، دار الجنوب، تونس1994 .
× بلزاك والخياطة الصينية الصغيرة، داي سيجي، المركز الثقافي العربي، بيروت الدار البيضاء، 2004.

ج ـ سيرة :

* المنشق، سيرة نيكوس كازنتزاكي بقلم زوجته، دار الآداب، بيروت 1994 .

د ـ رحلات

× من تونس إلى القيروان، غي دو موباسان، دار المدى، دمشق،2004.

هـ ـ دراسات :

* بدايات فلسفة التاريخ البورجوازية، ماكس هوركهايمر، دار التنوير، بيروت 1981 .
* بلزاك والواقعية الفرنسية، جورج لوكاش، المؤسسة العربية للناشرين المتحدين، تونس 1985.

و- سينما:

* الثورة الفرنسية في السينما، المؤسسة العامة للسينما، دمشق، 2003.
* قرن من السينما الفرنسية، المؤسسة العامة للسينما، دمشق،2005.

العنوان الإلكتروني:
yousdali@yahoo.fr